الخلاصةُ
في تفسير سورة يس

جمع وإعداد
الباحث في القرآن والسنة
علي بن نايف الشحود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العــالمين ، والصــلاة والســلام على ســيد الأنبيــاء والمرســلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فـإن الله تعـالى قد أَنْـزَلَ هَـذَا القُـرْآنِ ، وَفِيـهِ خَـيرٌ وَبَرَكَـةٌ ، وَنَفْـعٌ وَهُـدىً لِلنَّاسِ ، لِيُرْشِـدَهُمْ إِلَى مَا فِيهِ خَيْرُهُمْ وَسَِـعَادَتُهُمْ ، وَلِيَتَـدَبَّرَهُ أُولُو الأَفْهَامِ والعُقُـولِ والأَلْبَـابِ . وَتَـدَبُّرُ القُـرْآنِ لاَ يَكُونُ بِحُسْـنِ تِلاَوَتِـهِ ، وَإِنَّما يَكُـونَ بِالعَمَـلِ بِمَا فِيهِ ، واتِّبَاعِ مَا جَـاءَ فِيـهِ مِنْ أَوَامِـرَ ، وَالانْتِهَـاءِ عَمَّا نَهَى عَنْـهُ، قـال تعـالى : { كِتَـابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَـذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَـابِ } [ص : 29] .

وقد اعتـاد المسـلمون اليـوم حفظ كثـير منه ، ولاسـيما بعض السـور الـتي وردت لها فضـائل معينة ترتبط بحياتهم كسـورة يس ، فكثـيرا ما يقرؤونها على الأموات.

وهذا تفسير متوسط لسورة يس ، وقد سـرت فيه وفق الخطة التالية :

أولا – ذكـرت ما يتعلق بالسـورة نفسـها حـول تسميتها ومكيتها وعدد آياتها ، والأغـراض الـتي اشتملت عليها ، وفضائلها بشكل مستقصى .

ثانيا- قسَّمت الآيات لوحدات ، ووضعت عنواناً لكل وحـدةٍ يعـبر عنه بشـكل دقيق ، وذكـرت

سبب النزول ، ثم شرح الكلمات ، ثم مناسـبة الآيات لبعضها ثم تفسير آيـات المقطع بشـكل موسع ، ثم ذكرت أهم ما ترشد إليه الآيات مع بعض التوسع في بعض الأمكنة .

وقد اعتمـدت على أمهـات كتب التفسـير ولاسـيما التفسـير المنـير ،وكلمـات القـرآن للشـيخ غـازي الـدروبي وكتب الحـديث وكتب أسباب النزول وغيرها .

وقمت بتخـريج الأحـاديث من مصـادرها الرئيسة والحكم المناسب عليها ، وأحـاديث الفضائل يتسامح بها ما لا يتسامح بغيرها .

وآيـات كل مقطع ذكرتها بالرسم العثمـاني (مصـحف المدينة النبوية) وما سـوى ذلك بالرسم العادي .

قـال تعـالى على لسـان النـبي شـعيب عليه السـلام : { قَـالَ يَا قَـوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيـدُ أَنْ أُخَـالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَـاكُمْ عَنْـهُ إِنْ أُرِيـدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [هود : 88] }

أسـال الله تعـالى أن ينفع به جامعه وناشـره والـدال عليه في الـدارين وأن يكـون القـرآن حجة لنا لا حجةً علينا .

جمعه وأعده

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في 10 ربيع الأول 1430 هـ الموافق
ل 6/3/2009م

ما يتعلق بالسورة

مكيّة ، وهي ثلاث وثمانون آية

تسميتها :

سـميت سـورة يس لافتتاحها بهـذه الأحـرف الهجائية ، الـتي قيل فيها إنها نـداء معنـاه (يا إنسان) بلغة طي لأن تصغير إنسان : أنيسين ، فكأنه حذف الصدر منه ، وأخذ العجز ، وقال : يس أي أنيسـين. وعلى هـذا يحتمل أن يكـون الخطـابِ مع محمد ، بـدليل قوله تعـالى بعده. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ.

وذكر أنها تسـمى المعمّة ، والمدافعة ، والقاضية ، ومعنى المعمة : الـتي تعم صـاحبها بخـير الـدنيا والآخـرة. ومعـنى المدافعة الـتي تدفع عن صاحبها كل سوء ، ومعني القاضـية : التي تقضى له كل حاجة - بإذن اللّه وفضله[1]

مناسبتها لما قبلها :

تظهر صـلة هـذه السـورة بما قبلها من وجـوه ثلاثة :

1 - بعد أن ذكر تعالى في سورة فـاطر قوله : وَجـاءَكُمُ النَّذِيرُ [37] وقوله : وَأَقْسَـمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَـذِيرٌ ، لَيَكُـونُنَّ أَهْـدى مِنْ إِحْـدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جـاءَهُمْ نَـذِيرٌ [42] والمـراد به محمد ، وقد أعرضـوا عنه وكـذبوه ، افتتح هـذه السـورة بالقسم على

[1] - التفسير الوسيط للقـرآن الكـريم لطنطـاوي - (12 / 8) وراجع تفسير الآلوسى ج 22 ص 209.

صـحة رسـالته ، وأنه على صـراط مسـتقيم ، وأنه أرسل لينذر قوما ما أنذر آباؤهم.
2 - هناك تشابه بين السورتين في إيـراد بعض أدلة القـدرة الإلهية الكونية ، فقـال تعـالى في سورة فاطر : وَسَـخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ ، كُـلٌّ يَجْـرِي لِأَجَـلٍ مُسَـمًّى [13] وقـال في سـورة يس : وَالشَّـمْسُ تَجْـرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَها ، ذلِـكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَـرَ قَـدَّرْناهُ مَنـازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ [37 - 38].
3 - وقال سبحانه في فاطر : وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَـواخِرَ [12] وقـال في يس : وَآيَـةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ [41].[2]

أغراض هذه السورة :

* سـورة يس مكية وقد تنـاولت مواضـيع أساسية ثلاثة وهى : (الإيمان بالبعث والنشـور ، وقصة أهل القرية ، والأدلة والـبراهين على وحدانية رب العالمين).
* ابتـدأت السـورة الكريمة بالقسم بـالقرآن العظيم على صـحة الـوحي ، وصـدق رسـالة محمد ( ) ثم تحـدثت عن كفـار قـريش ، الذين تمادوا في الغي والضلال ، وكـذبوا سـيد الرسل محمد بن عبد الله ، فحق عليهم عـذاب الله وانتقامه. ثم سـاقت قصة أهل القرية " إنطاكية " الذين كذبوا الرسل ، لتحذر من عاقبة التكـذيب بـالوحي والرسـالة ، على

---
[2] - التفسير المنير ـ موافقا للمطبوع - (22 /ـ 287) وقـارن بالتفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 904)

طريقة القــرآن في اســتخدام القصص للعظة والاعتبار .
* وذكـــرت موقف الداعية المـــؤمن (حـــبيب النجـار) الـذي نصح قومه فقتلـوه فأدخله الله الجنة ، ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار .
* وتحـــــدثت الســـــورة عن دلائل القـــــدرة والوحدانية ، في هذا الكون العجيب ، بدءا من مشـهد الأرض الجـرداء تـدب فيها الحيـاة ، ثم مشهد الليل ينسلخ عنه النهـار ، فـإذا هو ظلام دامس ، ثم مشـهد الشـمس السـاطعة تـدور بقـــدرة الله في فلك لا تتخطـــاه ، ثم مشـــهد القمر يتـــدرج في منازله ، ثم مشـــهد الفلك المشـــحون يحمل ذرية البشر الأولين ، وكلها دلائل باهرة على قدرة الله جل وعلا .
* وتحـــدثت عن القيامة وأهوالها ، وعن نفخة البعث والنشـور ، الـتي يقـوم النـاس فيها من القبور ، وعن أهل الجنة وأهل النار ، والتفريق بين المؤمـــنين والمجـــرمين في ذلك اليـــوم الرهيب ، حـتى يسـتقر السـعداء في روضـات النعيم ، والأشقياء في دركات الجحيم .
* وختمت الســـــورة الكريمة بالحـــــديث عن الموضـــوع الأساسي ، وهو موضـــوع " البعث والجـــزاء " وأقـــامت الأدلة والـــبراهين على حدوثه ، وعلى صدقه .[3]

[3] - صفوة التفاسير ـ للصابونى - (3 / 83)

وقـال دروزة : " في السـورة توكيد لرسـالة النـــبي وصـــدقها وتنويه بـــالقرآن. وتقريع للكفــــار وتنديد بعقائـــدهم وشــــدّة غفلتهم وعنـادهم. وفيها قصة من القصص المسـيحية كما فيها تنويه بنعم اللّه وبعض مشـاهد الكـون ، وإنذار وتبشير بيـوم القيامة وبعض مشـاهده ومصـائر المؤمـنين والكـافرين فيـه.وفصـول السورة منسجمة ومترابطة تسـوغ القـول إنها نزلت جملة واحدة أو متلاحقة"[4]

هــذه الســورة المكية ذات فواصل قصــيرة. وإيقاعات سريعة. ومن ثم جاء عــدد آياتها ثلاثا وثمانين ، بينما هي أصـغر وأقصر من سـابقتها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون.

وقصر الفواصل مع ســــرعة الإيقـــــاع يطبع الســـورة بطـــابع خـــاص ، فتتلاحق إيقاعاتها ، وتـدق على الحس دقـات متوالية ، يعمل على مضــــاعفة أثرها ما تحمله معها من الصــــور والظلال الـــتي تخلعها المشـــاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتهـا. وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار.

والموضــــوعات الرئيســــية للســــورة هي موضـوعات السـور المكيـة. وهـدفها الأول هو بنـــاء أسس العقيـــدة. فهي تتعـــرض لطبيعة الـوحي وصـدق الرسـالة منذ افتتاحها : «يس. وَالْقُـــرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَـــلِينَ. عَلى صِـراطٍ مُسْـتَقِيمٍ. تَنْزِيـلَ الْعَزِيـزِ الـرَّحِيمِ ..».

4 - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 20)

وتســــوق قصة أصـــــحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة وتعرض هذه العاقبة في القصة على طريقة القـرآن في اسـتخدام القصص لتـدعيم قضـــاياه. وقـــرب نهاية الســـورة تعـــود إلى الموضوع ذاته : «وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْـرٌ وَقُـرْآنٌ مُبِينٌ لِيُنْـذِرَ مَنْ كـانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ» ..

كـــذلك تتعـــرض الســـورة لقضـــية الألوهية والوحدانيـــة. فيجيء اســـتنكار الشـــرك على لســان الرجل المـؤمن الـذي جـاء من أقصى المدينة ليحاج قومه في شـأن المرسـلين وهو يقـول : «وَما لِيَ لا أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَـرَنِي وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُــونَ؟ أَأَتَّخِــذُ مِنْ دُونِــهِ آلِهَــةً إِنْ يُــرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُـرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَـفاعَتُهُمْ شَـيْئاً وَلا يُنْقِـذُونِ؟ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ» .. وقـرب ختام السـورة يجيء ذكر هـذا الموضـوع مـرة أخـــرى : «وَاتَّخَــذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَــةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ. لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْـرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْـدٌ مُحْضَرُونَ»

والقضية التي يشتد عليها التركيز في الســورة هي قضــية البعث والنشــور ، وهي تــتردد في مواضع كثيرة في السورة.

تجيء في أولها : «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَـــــــوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَـيْءٍ أَحْصَـيْناهُ فِي إِمـامٍ مُبِينٍ» .. وتــأتي في قصة أصـحاب القرية ، فيما وقع للرجل المـــؤمن. وقد كـــان

جزاؤها العاجل في السياق : «قِيلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قالَ : يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» .. ثم ترد في وسط السورة : «وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟ ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ» .. ثم يستطرد السياق إلى مشهد كامل من مشاهد القيامة. وفي نهاية السورة ترد هذه القضية في صورة حوار : «وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ. قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» ..

هذه القضايا المتعلقة ببناء العقيدة من أساسها ، تتكرر في السور المكية. ولكنها تعرض في كل مرة من زاوية معينة ، تحت ضوء معين ، مصحوبة بمؤثرات تناسب جوها ، وتتناسق مع إيقاعها وصورها وظلالها.

هذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة - بصفة خاصة - ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها.

ومن مصارع الغابرين على مدار القرون. ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة. ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام. ومشهد الشمس تجري لمستقر لها. ومشهد القمر يتدرج في منازله حتى يعود كالعرجون القديم. ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية

البشر الأولين. ومشـــهد الأنعـــام مســـخرة للآدميين. ومشـهد النطفة ثم مشـهدها إنسـانا وهو خصـيم مـبين! ومشـهد الشـجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون! وإلى جوار هـذه المشـاهد مـؤثرات أخـرى تلمس الوجـدان الإنسـاني وتوقظه : منها صـورة المكـذبين الذين حقت عليهم كلمة اللّه بكفـرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر : «إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْنـاقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقـانِ فَهُمْ مُقْمَحُـونَ وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ سَـدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَـدًّا فَأَغْشَـيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِـرُونَ». ومنها صـورة نفوسـهم في سـرهم وفي علانيتهم مكشـوفة لعلم اللّه لا يـداريها منه سـتار .. ومنها تصـوير وسـيلة الخلق بكلمة لا تزيد : «إِنَّما أَمْـرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ. فَيَكُـونُ» .. وكلها مـؤثرات تلمس القلب البشـري وهو يـرى مصداقها في واقع الوجود.

ويجري سياق السـورة في عـرض موضـوعاتها في ثلاثة أشواط :

يبـدأ الشـوط الأول بالقسم بـالحرفين : «يـا. سين» وبالقرآن الحكيم ، على رسـالة النـبي - ﷺ - وأنه على صـراط مسـتقيم. يتلو ذلك الكشف عن النهاية البائسة للغـافلين الـذين يكذبون. وهي حكم اللّه عليهم بـألا يجـدوا إلى الهداية سـبيلا ، وأن يحـال بينهم وبينها أبـدا. وبيـان أن الإنـذار إنما ينفع من اتبع الـذكر وخشي الرحمن بالغيب فاستعد قلبه لاستقبال

دلائل الهــدى وموحيــات الإيمــان .. ثم يوجه رســـول اللّه - ﷺ - إلى أن يضـــرب لهم مثلا أصحاب القرية ، فيقص قصة التكـذيب وعاقبة المكذبين. كما يعرض طبيعة الإيمـان في قلب الرجل المؤمن وعاقبة الإيمان والتصديق ..

ومن ثم يبدأ الشوط الثاني بنداء الحسرة على العبـاد الـذين ما يفتـأون يكـذبون كل رسـول ويســتهزئون بـــه. غـــير معتـــبرين بمصـــارع المكذبين ، ولا متيقظين لآيات اللّه في الكــون وهي كثير .. وهنا يعرض تلك المشـاهد الكونية التي سبقت الإشارة إليها في تقديم السـورة ، كما يعرض مشهدا مطـولا من مشـاهد القيامة فيه الكثير من التفصيل.

والشـــوط الثـــالث يكـــاد يلخص موضـــوعات السـورة كلهـا. فينفي في أوله أن ما جـاء به محمد - ﷺ - شــعر ، وينفي عن الرســول كل علاقة بالشعر أصلا. ثم يعـرض بعض المشـاهد واللمســـات الدالة على الألوهية المتفـــردة ، وينعى عليهم اتخـاذ آلهة من دون اللّه يبتغــون عندهم النصر وهم الـذين يقومـون بحماية تلك الآلهة المدعاة!. ويتناول قضية البعث والنشور فيـذكرهم بالنشـأة الأولى من نطفة لـيروا أن إحيـــاء العظـــام وهي رميم كتلك النشـــأة ولا غرابة! ويـذكرهم بالشـجر الأخضر الـذي تكمن فيه النـــار وهما في الظـــاهر بعيد من بعيـــد! وبخلق السماوات والأرض وهو شاهد بالقــدرة على خلق أمثـــــــــالهم من البشر في الأولى

والآخــرة .. وأخــيرا يجيء الإيقــاع الأخــير في السورة : «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ. فَيَكُونُ. فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُـلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».[5]

فضائلها :

عَنْ أَنَسٍ قَــالَ قَــالَ النَّبِىُّ -صــلى الله عليه وسـلم- « إِنَّ لِكُـلِّ شَـىْءٍ قَلْبًا وَقَلْبُ الْقُـرْآنِ يس َمَنْ قَـرَأَ يس َتَبَ اللَّهُ لَـهُ بِقِرَاءَتِهَا قِـرَاءَةَ الْقُرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ »سنن الترمذى.[6]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: " لِكُـلِّ شَـيْءٍ قَلْبٌ، وَإِنَّ قَلْبَ الْقُـرْآنِ يس مَنْ قَرَأَ يس كَتَبَ اللهُ لَـهُ بِقِرَاءَتِهَا قِـرَاءَةَ الْقُـرْآنِ عَشْرَ مَرَّاتٍ "[7]

وعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، قَـالَ : قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ : " إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا ، وَإِنَّ قَلْبَ الْقُـرْآنِ يس وَمَنْ قَرَأَ يس وَهُوَ يُرِيدُ بِهَا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ غَفَـرَ اللَّهُ لَهُ ، وَأُعْطِيَ مِنَ الْأَجْـرِ كَأَنَّمَا قَـرَأَ الْقُـرْآنَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ قُرِئَ عِنْدَهُ إِذَا نَـزَلَ بِـهِ مَلَـكُ الْمَـوْتِ سُـورَةُ يس نَـزَلَ بِكُـلِّ حَـرْفٍ مِنْ سُـورَةِ يس عَشَـرَةُ أَمْلَاكٍ يَقُومُـونَ بَيْنَ يَدَيْهِ صُفُوفًا يُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ ، وَيَشْـــهَدُونَ غُسْــلَهُ ، وَيُشَــيِّعُونَ جِنَازَتَــهُ ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ ، وَيَشْهَدُونَ دَفْنَهُ ، وَأَيُّمَا مُسْـلِمٍ قَـرَأَ يس وَهُـوَ فِي سَـكَرَاتِ الْمَـوْتِ لَمْ يَقْبِضْ

---

[5] - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2956

[6] - سنن الترمذى -(3129) ضعيف

[7] - شعب الإيمان - (4 / 92) (2233) ضعيف

مَلَكُ الْمَـوْتِ رُوحَـهُ حَتَّى يَجِيئَهُ رِضْـوَانُ خَـازِنُ الْجَنَّةِ بِشَرْبَةٍ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ فَيَشْـرَبُهَا ،وَهُـوَ عَلَى فِرَاشِهِ،فَيَقْبِضُ مَلَـكُ الْمَـوْتِ رُوحَـهُ وَهُـوَ رَيَّانُ ، فَيَمْكُثُ فِي قَبْـــرِهِ وَهُـــوَ رَيَّانُ ، وَيُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُـوَ رَيَّانُ ، وَلَا يَحْتَـاجُ إِلَى حَـوْضٍ مِنْ حِيَاضِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى يَـدْخُلَ الْجَنَّةَ وَهُـوَ رَيَّانٌ "[8]

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللـهِ ﷺ : " سُـــورَةُ يس اقْرَءُوهَا عِنْــدَ مَوْتَـاكُمْ " وَفِي رِوَايَــةِ اقْرَءُوهَا عَلَى مَوْتَـاكُمْ " قَـالَ الْحَلِيمِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: " يَعْنِي عَلَى الْمُحْتَضَرِينَ "[9]

وعَنْ مَعْقِـــلِ بْنِ يَسَـــارٍ الْمُــــزَنِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَرَأَ يس ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ غُفِـــرَ لَـــهُ مَا تَقَـــدَّمَ مِنْ ذَنْبِـــهِ فَاقْرَءُوهَا عِنْـــدَ مَوْتَاكُمْ "[10]

وعَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَرَأَ يس فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ عَشْرَ مَرَّاتٍ "[11]

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " مَنْ قَرَأَ يس كُلَّ لَيْلَةٍ غُفِرَ لَهُ "[12]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:"مَنْ قَرَأَ يس ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ غُفِرَ لَهُ "[13]

---

[8] - مُسْنَدُ الشِّهَابِ الْقُضَاعِيِّ (964) ضعيف

[9] - شعب الإيمان - (4 / 92) (2230) فيه لين

[10] - شعب الإيمان - (4 / 92) (2231) فيه لين

[11] - شعب الإيمان - (4 / 92) (2232) صحيح مرسل

[12] - شعب الإيمان - (4 / 92) (2234) حسن لغيره

[13] - شعب الإيمان - (4 / 92) (2235) حسن لغيره

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللــهِ : " مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللــهِ غَفَـرَ لَـهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ "[14]

وعَنِ الصَّلْتِ، أَنَّ أَبَا بَكْـرٍ الصِّـدِّيقَ رَضِـيَ اللــهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّــهِ : " سُـورَةُ يس فِي التَّوْرَاةِ تُدْعَى الْمُعِمَّةَ " قِيــلَ: مَا الْمُعِمَّةُ ؟ قَالَ: " تَعِمُّ صَاحِبَهَا بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَتُكَابِـدُ عَنْهُ بَلْـوَى الـدُّنْيَا، وَتَـدْفَعُ عَنْـهُ أَهْـوَالَ الْآخِـرَةِ، وَتُدْعَى الْمُدَافِعَةَ الْقَاضِيَةَ تَدْفَعُ عَنْ صَاحِبِهَا كُلَّ سُوءٍ، وَتَقْضِي لَهُ كُـلَّ حَاجَـةٍ مَنْ قَرَأَهَا عَـدَلَتْ لَهُ عِشْرِينَ حَجَّةً، وَمَنْ سَمِعَهَا عَـدَلَتْ لَـهُ أَلْـفَ دِينَــارٍ فِي سَــبِيلِ اللـــهِ، مَنْ كَتَبَهَا ثُمَّ شَــرِبَهَا أَدْخَلَتْ جَوْفَهُ أَلْفَ دَوَاءٍ وَأَلْفَ نُـورٍ وَأَلْـفَ يَقِينٍ وَأَلْفَ بَرَكَةٍ وَأَلْفَ رَحْمَةٍ، وَنَزَعَتْ عَنْهُ كُـلَّ غِـلٍّ وَدَاءٍ "[15]

وعَنْ أَبِي عُثْمَــانَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْـرَةَ، قَــالَ: " مَنْ قَرَأَ يس مَرَّةً فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ عَشْـرَ مَـرَّاتٍ " وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: " مَنْ قَرَأَ يس مَـرَّةً، فَكَأَنَّمَا قَـرَأَ الْقُـرْآنَ مَـرَّتَيْنِ " قَـالَ أَبُو هُرَيْـرَةَ: حَـدِّثْ أَنْتَ عَمَّا سَمِعْتَ وَأُحَدِّثُ أَنَا بِمَا سَمِعْتُ "[16]

وعَنْ جُنْدُبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُـولُ اللــهِ : مَنْ قَرَأَ يس فِي لَيْلَةٍ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ غُفِرَ لَهُ.[17]

---

[14] - شعب الإيمان - (4 / 92) (2236) حسن لغيره

[15] - شعب الإيمان - (4 / 92) (2237) وقال : تَفَرَّدَ بِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ هَذَا عَنْ سُلَيْمَانَ، وَهُوَ مُنْكَرٌ "

[16] - شعب الإيمان - (4 / 92) (2238) ضعيف

[17] - صحيح ابن حبان - (6 / 312) (2574) حسن لغيره

وعَنْ مَعْقِـلِ بْنِ يَسَـارٍ أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ : " الْبَقَرَةُ سَنَامُ الْقُرْآنِ وَذُرْوَتُهُ ، نَزَلَ مَـعَ كُـلِّ آيَـةٍ مِنْهَا ثَمَـانُونَ مَلَكًا ، وَاسْـتُخْرِجَتْ : " اللَّهُ لَا إِلَـــهَ إِلَّا هُــــوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ " مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ ، فَوُصِلَتْ بِسُـورَةِ الْبَقَـرَةِ . وَ " يس " قَلْبُ الْقُـرْآنِ لَا يَقْرَؤُهَا أَحَـدٌ يُرِيـدُ اللَّهَ وَالـدَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا غُفِرَ لَـهُ ، فَاقْرَؤُوهَا عَلَى مَوْتَـاكُمْ ". رَوَاهُ أَحْمَدُ[18]

وعَنْ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ : قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ : " الْبَقَرَةُ سَنَامُ الْقُرْآنِ " ، وَذَكَرَ أَنَّهُ نَـزَلَ مَـعَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهَا ثَمَانُونَ مَلَكًا ، وَاسْـتُخْرِجَتْ اللَّهُ لَا إِلَــهَ إِلَّا هُــوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ مِنْ تَحْتِ الْعَــرْشِ ، وَفَضَلَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ أَوْ فُضِّلَتْ بِهَا ، وَيَاسِـينُ قَلْبُ الْقُـرْآنِ لَا يَقْرَؤُهَا رَجُـلٌ يُرِيـدُ اللَّهَ وَالـدَّارَ الْآخِرَةَ إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ، وَاقْرَءُوهَا عَلَى مَوْتَاكُمْ "[19]

وَلِهَـذَا قَـالَ بَعْض الْعُلَمَـاء مِنْ خَصَـائِص هَـذِهِ السُّورَة أَنَّهَا لَا تُقْـرَأ عِنْد أَمْر عَسِـير إِلَّا يَسَّـرَهُ اللَّه تَعَــالَى وَكَــأَنَّ قِرَاءَتهَا عِنْد الْمَيِّت لِتَنْــزِل الرَّحْمَة وَالْبَرَكَة وَلِيَسْـهُل عَلَيْـهِ خُـرُوج الـرُّوح وَاَللَّه تَعَالَى أَعْلَم .[20]

وعَنْ صَفْوَانَ بْنِ عَمْـرٍو ، قَـالَ : حَضَـرَ غُضَـيْفًا أَشْيَاخٌ مِنَ الْجُنْدِ حِينَ اشْتَدَّ مَرَضُهُ ، فَقَــالَ : " مَا مِنْكُمْ أَحَــدٌ يَقْــرَأُ يس ؟ فَقَرَأَهَا صَــالِحُ بْنُ

---

[18] - مسند أحمد (20300) فيه مبهم
[19] - مُسْنَدُ الرُّويَانِيِّ (1271) فيه مبهم
[20] - تفسير ابن كثير - (13 / 258)

شُرَيْحٍ السَّكُونِيُّ ، فَمَا عَدَا أَنْ قَـرَأَ أَرْبَعِينَ آيَـةً مِنْهَا ، فَمَاتَ ، فَقَالَ الْأَشْيَاخُ : " إِذَا قُرِئَتْ عِنْدَ الْمَيِّتِ خَفَّفَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ "[21]

ينطوي في الأحاديث تنويه نبوي بهذه السـورة لعلّ من حكمته ما فيها من مواعظ وأمثال.
وفي الأحـاديث دلالة على أن السـور القرآنية كانت مرتّبة معروفة بأسمائها المتواترة تـواترا لا ينقطع في حيـاة النـبي صـلى اللّه عليه وسلم.[22]

حكم قراءتها على الأموات :

"ذهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إلَى نَدْبِ قِرَاءَةِ سُورَةِ يس عِنْدَ الْمُحْتَضَرِ،لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : « اقْرَءُوا (يس) عَلَى مَوْتَاكُمْ » .أَيْ مَنْ حَضَرَهُ مُقَدِّمَاتُ الْمَوْتِ .

كَمَا ذَهَبُوا إلَى اسْتِحْبَابِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى الْقَبْرِ ،لِمَا رُوِيَ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا : مَنْ دَخَلَ الْمَقَابِرَ فَقَرَأَ سُورَةَ يس خَفَّفَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَكَانَ لَهُ بِعَدَدِ مَنْ دُفِنَ فِيهَا حَسَنَاتٌ[23] ،وَلِمَا صَحَّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ أَوْصَى إذَا دُفِنَ أَنْ يُقْرَأَ عِنْدَهُ بِفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ وَخَاتِمَتِهَا .

وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ إلَى كَرَاهَةِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْمُحْتَضَرِ وَعَلَى الْقَبْرِ[24]

---

[21] - الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ(9310) صحيح مرسل

[22] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 20)

[23] - قلت : هـذا الحـديث موضـوع فلا يحتج به ، السلسـلة الضعيفة والموضوعة " (3/397) (1246)

[24] - الموسـوعة الفقهية الكويتية - (ج 33 / ص 59) وحاشـية ابن عابدين 1 / 605 ، 607 ، والقليوبي وعميرة 1 / 351 ،

وفيها أيضاً : " اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى الْقَبْرِ،فَذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ إلَى أَنَّهُ لاَ تُكْرَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَلَى الْقَبْرِ بَل تُسْتَحَبُّ،لِمَا رَوَى أَنَسٌ مَرْفُوعًا قَال : مَنْ دَخَل الْمَقَابِرَ فَقَرَأَ فِيهَا يس خَفَّفَ عَنْهُمْ يَوْمَئِذٍ،وَكَانَ لَهُ بِعَدَدِهِمْ حَسَنَاتٌ   ،وَصَحَّ عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ أَوْصَى إذَا دُفِنَ أَنْ يُقْرَأَ عِنْدَهُ بِفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ وَخَاتِمَتِهَا .

قَال الشَّافِعِيَّةُ : يَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ.لَكِنْ رَجَّحَ الدُّسُوقِيُّ الْكَرَاهَةَ مُطْلَقًا   .

وقَال الْقَلْيُوبِيُّ : وَمِمَّا وَرَدَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّهُ مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الإِْخْلاَصِ إحْدَى عَشْرَةَ مَرَّةً وَأَهْدَى ثَوَابَهَا إلَى الْجَبَّانَةِ غُفِرَ لَهُ ذُنُوبٌ بِعَدَدِ الْمَوْتَى فِيهَا .

وَرَوَى السَّلَفُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ يُعْطَى لَهُ مِنَ الأَْجْرِ بِعَدَدِ الأَْمْوَاتِ.

قَال ابْنُ عَابِدِينَ نَقْلاً عَنْ شَرْحِ اللُّبَابِ : وَيَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا تَيَسَّرَ لَهُ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَأَوَّل الْبَقَرَةِ إلَى الْمُفْلِحُونَ وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ،وَآمَنَ الرَّسُول،وَسُورَةِ يس،وَتَبَارَكَ الْمُلْكِ،وَسُورَةِ التَّكَاثُرِ وَالإِْخْلاَصِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً أَوْ إحْدَى عَشْرَةَ أَوْ سَبْعًا أَوْ ثَلاَثًا .

وَقَال الْبُهُوتِيُّ : قَال السَّامِرِيُّ يُسْتَحَبُّ أَنْ يُقْرَأَ عِنْدَ رَأْسِ الْقَبْرِ بِفَاتِحَةِ الْبَقَرَةِ وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ بِخَاتِمَتِهَا.

وكشاف القناع 2 / 147 وحاشية الدسوقي 1 / 423 ، والشرح الصغير 1 / 228 .

وَصَرَّحَ الْحَصْكَفِيُّ بِأَنَّهُ لاَ يُكْرَهُ إجْلاَسُ الْقَارِئِينَ عِنْدَ الْقَبْرِ،قَال : وَهُوَ الْمُخْتَارُ .
وَذَهَبَ الْمَالِكِيَّةُ : إلَى كَرَاهَةِ الْقِرَاءَةِ عَلَى الْقَبْرِ،لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَمَل السَّلَفِ،قَال الدَّرْدِيرُ : الْمُتَأَخِّرُونَ عَلَى أَنَّهُ لاَ بَأْسَ بِقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ وَجَعْل ثَوَابِهِ لِلْمَيِّتِ وَيَحْصُل لَهُ الأَجْرُ إنْ شَاءَ اللَّهُ ."
وقال القرافي:" وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ عَلَى الْقَبْـرِ فَقَـدْ نَصَّ ابْنُ رُشْـدٍ فِي الْأَجْوِبَـةِ وَابْنُ الْعَـرَبِيِّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ وَالْقُرْطُبِيِّ فِي التَّذْكِرَةِ عَلَى أَنَّ الْمَيِّتَ يَنْتَفِعُ بِالْقِرَاءَةِ قُرِئَتْ عَلَى الْقَبْـرِ أَوْ فِي الْبَيْتِ أَوْ فِي بِلَادٍ إلَى بِلَادٍ وَوُهِبَ الثَّوَابُ اهـــــ مَحَلُّ الْحَاجَةِ مِنْهُ .[25]

وجاء في الموسوعة الفقهية : "قَال الطَّحْطَاوِيُّ : إِذَا فَرَغُوا مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ يُسْتَحَبُّ الْجُلُوسُ (الْمُكْثُ) عِنْدَ قَبْرِهِ بِقَدْرِ مَا يُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهُ،(فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَال : إِذَا دَفَنْتُمُونِي فَشُنُّوا عَلَيَّ التُّرَابَ شَنًّا،ثُمَّ أَقِيمُوا حَوْل قَبْرِي قَدْرَ مَا تُنْحَرُ جَزُورٌ وَيُقْسَمُ لَحْمُهَا حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ،وَأَنْظُرَ مَاذَا أُرَاجِعُ بِهِ رُسُل

---

[25] - وانظر : فتـاوى حسـنين مخلـوف - (1 / 488) قـراءة القــرآن على المــوتى وعلى المقــابر وفتــاوى الأزهر - (8 / 295) سورة يس للميت وفتـاوى الأزهر - (8 / 302) انتفـاع الميت بقــراءة القــرآن وفتــاوى الأزهر - (8 / 302) انتفــاع الميت بقراءة القرآن وفتاوى الأزهر - (8 / 315) صلة الأحياء بالأموات وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (9 / 667) رقم الفتوى 60768 اتخاذ أوراد خاصة والمداومة عليها

رَبِّي) يَتْلُونَ الْقُرْآنَ وَيَدْعُونَ لِلْمَيِّتِ . فَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ قَالَ كَانَ النَّبِىُّ -ﷺ - إِذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ :« اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الآنَ يُسْأَلُ ».

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَسْتَحِبُّ أَنْ يَقْرَأَ عَلَى الْقَبْرِ بَعْدَ الدَّفْنِ أَوَّل سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَخَاتِمَتَهَا.[26]

شــروط القــراءة الــتي يصل ثوابها للميت :

قال الشيخ عبد الحليم محمود :

" الجمهـور مِن أهل السُّـنة يُعلن في صـراحة أن القــراءة الــتي يصل ثوابها إلى الميت إنما هي القـراءة الـتي ليست مـأجورةً، ويُعلن في صراحة أيضًا أنه مِن النِّيَّة التي تتقدم القـراءة، وقراءة القرآن على الميت لا تَتقدَّر بــزمنٍ بعد الوفاة. فلا تَتَقَيَّدُ بمرور سـبعة أيـام أو أكـثر أو أقـل، وما مِن شك في أنه مِن الخـير أن يُقـرأ القـــرآنُ عند الميت في حالة الاحْتضـــار، وأن يُقرأ بعد وَفاته مُباشـرةً، وأن يُقـرأ له بعد ذلك كلَّما تُتـاح الفُرْصـة، وليس في الإسـلام مُطلقًا ما يدلُّ على أن القِراءة تكون بعد سبعة أيــام. "[27]

---

[26] - الموســوعة الفقهية الكويتية - (ج 16 / ص 42) وانظر المعجم الكبــير للطــبراني - (ج 14 / ص 108)(15833) والقــــراءة على القبــــور(1) وهو حسن موقــــوف ، ورفعه الطبراني

[27] - فتاوي عبد الحليم محمود - (1 / 297) في فضْل سورة يس

حكم قراءة سورة يس بعد كل صلاة :

السنَّةُ بعد الصلوات قـراءة الأذكـار الـواردة، وقــراءة القــرآن في كل وقت لا بــأس بهــا، وأفضل ذلك في الفجر لقوله تعـالى: "وَقُـرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً" [الإسراء: من الآية78].

والإكثـار من قـراءة يس أمر طيب، بشـرط ألا يهجر بقية القـرآن، فقد روى أنها قلب القـرآن وأنها تقـرأ عند المـوتى، وأنه يغفر لقارئها في ليلة ابتغاء وجه الله. [28]

---

[28] - فتاوى واستشـارات الإسـلام اليـوم - (1 / 256) قـراءة القرآن بعد الصلاة -المجيب د. سـالم بن محمد القـرني-عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى

القرآن والرسول والمرسل إليهم

ﭑ ﭒ ﭓ

ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ
ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ
ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ
ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ
ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ

سبب النزول :

نزول الآية (1) يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَـالَ : كَـانَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ يَقْـرَأُ فِي الْمَسْـجِدِ فَيَجْهَـرُ بِالْقِرَاءَةِ حَتَّى تَـأَذَّى بِـهِ نَـاسٌ مِنْ قُـرَيْشٍ حَتَّى قَـامُوا لِيَأْخُـذُوهُ وَإِذَا أَيْـدِيهِمْ مَجْمُوعَـةٌ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ وَإِذَا هُمْ عُمْيٌ لَا يُبْصِـرُونَ فَجَـاءُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا : نَنْشُدُكَ اللَّهَ وَالرَّحِمَ يَا مُحَمَّدُ قَـالَ : وَلَمْ يَكُنْ بَطْنٌ مِنْ بُطُـونِ قُـرَيْشٍ إِلَّا وَلِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِمْ قَرَابَـةٌ فَـدَعَا النـبي ﷺ حَتَّى ذَهَبَ ذَلِكَ عَنْهُمْ فَنَزَلَتْ : يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : و سَـوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ قَـالَ : فَمَا آمَنَ مِنْ أُولَئِكَ النَّفَرِ أَحَدٌ "[29].

نزول الآية (8) :إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْنـاقِهِمْ أَغْلالًا :

أخـرج ابن جرير الطـبري عن عكرمة قـال : قـال أبو جهل : لئن رأيت محمـدا لأفعلن ،

---

[29] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ (147) فيه النضر بن عبد الرحمن ، أبو عمر الخزاز وهو متروك

فــأنزل اللّه : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْنــاقِهِمْ أَغْلالًا إلى قوله : لا يُبْصِرُونَ فكانوا يقولون : هذا محمد ، فيقول : أين هو ، أين هو؟ لا يبصر.

نزول الآية (12) :إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَـوْتى :

أخـرج الترمـذي عَنْ أَبِى سَـعِيدٍ الْخُـدْرِىِّ قَـالَ كَـانَتْ بَنُو سَــلِمَةَ فِى نَاحِيَـةِ الْمَدِينَـةِ فَـأَرَادُوا النُّقْلَةَ إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِى الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَـدَّمُوا وَآثَـارَهُمْ) فَقَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ -صـلى الله عليه وسـلم- « إِنَّ آثَارَكُمْ تُكْتَبُ ». فَلَمْ يَنْتَقِلُوا.[30] .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، قَالَ : كَانَ بَنُو سَلَمَةَ فِي نَاحِيَةٍ مِنَ الْمَدِينَـةِ فَـأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُـوا إِلَى قُــرْبِ الْمَسْــجِدِ فَــأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَــالَى : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَــــوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَــــدَّمُوا وَآثَــــارَهُمْ فَــدَعَاهُمْ رَسُــولُ اللَّهِ فَقَــالَ : " إِنَّهُ تُكْتَبُ آثَارُكُمْ " ، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ فَتَرَكُوا "[31]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : " كَانَتْ مَنَازِلُ الْأَنْصَارِ مُتَبَاعِدَةً مِنَ الْمَسْجِدِ ، فَأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُــوا إِلَى الْمَسْــجِدِ فَنَــزَلَتْ وَنَكْتُبُ مَا قَــدَّمُوا وَآثَــارَهُمْ فَقَالُوا : " نَثْبُتُ فِي مَكَانِنَا "

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : " كَانَتِ الْأَنْصَارُ بَعِيـدَةً مَنَـازِلُهُمْ مِنَ الْمَسْـجِدِ ، فَـأَرَادُوا أَنْ يَنْتَقِلُـوا ، قَالَ : فَنَزَلَتْ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ " فَثَبَتُوا "

---

30 - سنن الترمذى (3533) صحيح

31 - شُعَبُ الْإِيمَانِ لِلْبَيْهَقِيِّ (2761) صحيح

وعَنْ جَــابِرٍ ، قَــالَ : أَرَادَ بَنُو سَــلِمَةَ قُــرْبَ الْمَسْجِدِ ، قَالَ : فَقَـالَ لَهُمْ رَسُـولُ اللَّهِ : " يَا بَنِي سَلِمَةَ " دِيَارَكُمْ ، إِنَّهَا تُكْتَبُ آثَارُكُمْ "
وعَنْ جَابِرٍ ، قَـالَ : أَرَادَ بَنُو سَـلِمَةَ أَنْ يَتَحَوَّلُـوا إِلَى قُـرْبِ الْمَسْـجِدِ ، قَـالَ : وَالْبِقَـاعُ خَالِيَـةٌ ، فَبَلَـغَ ذَلِـكَ النَّبِيَّ ، فَقَـالَ : " يَا بَنِي سَـلِمَةَ دِيَـارَكُمْ إِنَّهَا تُكْتَبُ آثَـارُكُمْ " قَــالَ :" فَأَقَــامُوا وَقَالُوا : مَا يُسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا "[32]

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها
1 ... يس ... أحد الحـــروف المقطعة ويقـــرأ ياسين
2 ... وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ ... القرآن المحكم
4 ... صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ... دين قويم
6 ... مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ ... لم ينذر آباؤهم
7 ... لَقَدْ حَقَّ القَوْلُ ... لقد وجب العذاب
8 ... أَغْلاَلاً ... قيودا تشد أيديهم إلى أعناقهم
8 ... فَهُمْ مُقْمَحُــون ... غلت أيــديهم فجمعت تحت ذقونهم فارتفعت رؤوسهم
9 ... سَدًّا ... حاجزا ومانعا
9 ... فَأَغْشَـــيْنَاهُمْ ... جعلنا على أبصـــارهم غشاوة
11 ... اتَّبَعَ الذِّكْرَ ... اتبع القرآن مؤمنا به
12 ... وَآثَارَهُمْ ... ما فعلـوه من حسن وسـوء وما اقتدى به أحد من الخلق

---

[32] - جَـامِعُ الْبَيَـانِ فِي تَفْسِـيرِ الْقُـرْآنِ لِلطَّبَـرِيِّ(26709-26712) صحيح

12 ... أَحصَيْنَاهُ ... كتبناه وأثبتناه وحفظناه
12 ... إِمَامٍ مُّبِينٍ ... في اللوح المحفوظ (أم الكتاب)

التفسير والبيان :

يس ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ،افتتح اللّه هذه السورة بالحروف المقطعة ، تنبيها لوصف القرآن وإشارة إلى إعجازه ، وتحديا دائما على الإتيان بأقصر سورة من مثله ، وإثباتا قاطعا إلى أنه كلام اللّه الذي لا يضارعه شيء من كلام البشر ، فكأن اللّه يقول للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم : كيف تعجزون عن الإتيان بمثله ، مع أنه كلام عربي ، مركب من الحروف الهجائية التي ينطق بها كل عربي ، ومع ذلك عجزتم عن مجاراته.[33]

أي أقسم بالقرآن ذي الحكمة البالغة ، المحكم بنظمه ومعناه بأنك يا محمد لرسول من عند اللّه على منهج سليم ، ودين قويم ، وشرع مستقيم لا عوج فيه.

وفى وصف القرآن بالحكمة هنا ، إلفات لما اشتمل عليه من فرائد الحكمة ، التي هى مورد العقول ، ومطلب الحكماء .. وأن الذي ينظر فى آيات اللّه ينبغى أن ينظر فيها بعقل متفتح ، وبصيرة متطلعة ، وقلب مشوق ، حتى يظفر ببعض ما يتحدث به هذا القرآن

33 - التفسير المنير ـ موافقا للمطبوع - (1 / 73) وقارن بالتفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (1 / 23)

الحكيم ، فإنه لا ينتفع بحكمة الحكيم ، إلا من كان ذا حكمة وبصيرة ..[34]
وفي هـذا إشـارة إلى أن القـرآن هو المعجـزة الباقية ، وأن محمـدا رسـول اللّه ، صـادق في نبوته ، ومرسل برســـــالة دائمة من عند ربه.
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الـرَّحِيمِ أي هـذا القـرآن والـدين والصراط الذي جئت به تنزيل من رب العزة ، الـرحيم بعبـاده المؤمـنين ،كما قـال تعـالى : وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ، صِراطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّـماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِـيرُ الْأُمُـورُ [الشـورى 42/ـ 52 - 53].
وهذا دليل واضح على مكانة القــرآن وأنه أجل نعمة من نعم الرحمن.
لِتُنْذِرَ قَوْمـاً ما أُنْـذِرَ آبـاؤُهُمْ ، فَهُمْ غـافِلُونَ أي أرسـلناك أيها النــبي لتنــذر العــرب الــذين لم يأتهم رسول نذير من قبلك ، ولم يـأت آبـاءهم الأقــربين من ينــذرهم ويعــرّفهم شــرائع اللّه تعالى ، فهم غـافلون عن معرفة الحق والنــور والشرائع التي تسعد البشر في الدارين.
فهـــذا الحشد العظيم من الصـــفات العظيمة للنــبىّ ، هو وإن كـانت تكريما للنــبىّ ، وامتنانا عليه بإحسان ربّه إليه ـ هو أيضا تكـريم لهـؤلاء الجــــاهليين ، وامتنـــان بفضل اللّه عليهم ، إذ بعث فيهم خير رسله ، وخاتم أنبيائه ، ومجتمع

[34] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 906)

كتبه .. وفى هذا حثّ لهم على أن يقبلـوا على هذا الخـير الكثـير المرسل إليهم ، وأن يأخـذوا حظهم منه.[35]
لكنّ ذكـــرهم وحـــدهم هنا للعناية بهم وتوجيه الخطاب لهم : لا ينفي كونه مرسلا إلى الناس كافة ، بـــدليل الآيــات والأحــاديث المتــواترة المعروفة في عمـــــــوم بعثته ، مثل قوله تعـالى : قُـلْ : يا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُـولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً [الأعراف 7/ 158] فعن جَابِرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ : " أُعْطِيتُ خَمْسًـا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَـهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْـجِدًا وَطَهُـورًا ، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْـهُ الصَّـلاَةُ فَلْيُصَـلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ المَغَـــانِمُ وَلَمْ تَحِـــلَّ لِأَحَـــدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّـــفَاعَةَ ، وَكَــــانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً "[36]
وعن جَـابِرَ بْنِ عَبْـدِ اللَّهِ ، أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ ، قَالَ : " أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَـدٌ قَبْلِي : نُصِــرْتُ بِــالرُّعْبِ مَسِــيرَةَ شَــهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ، وَأَيُّمَا رَجُـلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْـهُ الصَّـلَاةُ فَلْيُصَـلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَـائِمُ ، وَلَمْ تَحِــلَّ لِأَحَــدٍ قَبْلِي ، وَأُعْطِيتُ الشَّــفَاعَةَ ، وَكَـانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِــهِ خَاصَّــةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً "[37]

---
[35] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 906)
[36] - صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (335)
[37] - صَحِيحُ ابْنِ حِبَّانَ (6504) صحيح

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ أي لقد وجب العذاب على أكثر أهل مكة ، وهو ما سـجّل عليهم في أم الكتــاب أنهم لا يؤمنــون بـــالقرآن وبمحمد ، وهم الـــذين علم اللّه أنهم يموتـــــون على الكفر ، ويصـــــرون عليه طوال حياتهم.
وقد صدق ما أخبر به القرآن ، ووقع كما أخــبر به .. فإن أكثر هؤلاء المشركين الـذين شـهدوا مطــالع الــدعوة الإســلامية ، لم يــدخلوا فى الإســلام ، فإنه خلال ثلاث وعشــرين سـنة ــ وهى مدة الرسالة الإسلامية ــ مـات كثـير من هـؤلاء المشـركين على شـركه ، ومن لم يمت منهم على فراش الموت مات قتيلا فى ميدان القتــال مع المســلمين .. ومن امتــدّ به الأجل وأدرك الفتح ، ودخل فى دين اللّه مع الداخلين ـ ظل ممسكا بشركه فى صـدره ، حـتى مـات عليه ، أو مات فى حروب الـردّة مع المرتـدّين ..[38]
والمراد بالقول : الحكم والقضـاء الأزلي ، وهو ســبق علم اللّه بنهايــاتهم ، لا بطريق الجــبر والإلجاء ، بل باختيارهم وإصرارهم على الكفر ، وفي هذا تطمين للنـبي حـتى لا يجـزع ولا يأسف على عدم إيمانهم به.
ثم ضـــرب اللّه تعــالى مثلا لتصــميمهم على الكفر وأنه لا سـبيل إلى إيمـانهم ، فقـال : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا ، فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ

---

[38] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 907)

فَهُمْ مُقْمَحُــونَ أي إنا جعلنا أيــديهم مشــدودة إلى أعناقهم بالقيود ، تمنعهم من فعل شيء ، فصـاروا مرفـوعي الـرؤوس خافضي الأبصـار. وهــــذا يعــــني أن اللّه جعلهم كـــــالمغلولين المقمحين (الــــــرافعي رؤوســــــهم الغاضي أبصـارهم) في أنهم لا يلتفتـون إلى الحق ، ولا يوجهون أنظارهم نحوه ، وهم أيضا كالقــائمين بين ســدين ، لا يبصــرون أمــامهم ولا خلفهم ، وأنهم متعامون عن النظر في آيــات اللّه ، كما قال : وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَــدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَــدًّا ، فَأَغْشَــيْناهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِــرُونَ أي تأكيــدا لما سبق في تصوير حالتهم أنهم بتعــاليهم عن النظر في آيـــات اللّه جعلـــوا كمن أحـــاط به سدان من الأمـام والخلف ، فمنعـاه من النظر ، فهو لا يبصر شيئا ، وهؤلاء لا ينتفعون بخــير ، ولا يهتدون إليه لأنا غطينا أبصارهم عن الحق.

"والأغلال الــتي جعلها اللّه فى أعنــاق هــؤلاء المشركين ، هي أغلال معنوية.

فــإن الــذي ينظر إليهم ، وهم ماضــون على طريق الشرك ، لا يلتفتون إلى هذا النور الذي عن يمينهم وعن شـمالهم ، ومن أمـامهم ومن خلفهم ـ يخيّل إليه أن فى أعناق القوم أطواقا من حديد ، قد شـــلت حركة رءوســـهم ، فلم يقدروا على إلفاتها يمينا أو شمالا .."[39]

أما وقد جعل اللّه ـــ ســبحانه ـــ ســدّا من بين أيــديهم أي من أمــامهم ، وســدّا من خلفهم ،

[39] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 909)

فقد أحكم سد المنافذ عليهم من جميع الجهــات ، وأصــبحوا وقد أغلقت عليهم منافذ النظر إلى العـــالم الخـــارجي ، وصـــاروا محصورين فى عالمهم الذي لا شـىء فيه غـير الضــلال والظلام .. فيمينهم وشــمالهم مغلق عليهم أبدا بحكم هذا الطوق الذي طوقوا به .. وأمـامهم وخلفهم .. مسـدودان .. فـإذا أداروا وجوههم إلى أي اتجاه ، لم يتغير حـالهم ، ولم يرتفع عنهم سد من هـذه السـدود المضـروبة عليهم ، حيث يلازمهم هـــذان الســـدان المضـــروبان عليهم من أمـــام ومن خلف .. فعلى أي اتجـاه يكونـون ، يكـون السـدان من خلفهم ومن أمــامهم .. أما عن أيمــانهم وعن شــمائلهم ، فـالطوق قـائم بوظيفته فيهم فى كل حال ..

وهذه الصورة إعجـاز من إعجـاز القـرآن ، فى تجسيد المعـاني ، وفى بعث الحيـاة ، والحركة فى الجمادات والساكنات .. حيث نرى الكـافر هنا وقد أدخل فى سجن محكم ، مطبق عليه ، لا يرى منه النور أبدا.[40]

وفيه إشارة إلى ما يقع لهـؤلاء المشـركين من هــذه الآيــات الــتي ســلطها اللّه عليهم ، من الأغلال والسـدود ، فلقد أقـامت هـذه الآفـات غشـــاوة على عيـــونهم ، فهم لا يبصـــرون .. وكيف يبصر من عاش فى هذه الحدود الـتي لا

---

[40] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 909)

تتجاوز محيط جسده ؟ وما ذا يبصر لو كـان له أن يبصر ؟ .[41]
ونتيجة لما سـبق : وَسَـواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْـذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْـذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُـونَ أي إن إنــذارك لهــؤلاء المصـــرين على كفـــرهم وعدمه ســـواء ، فلا ينفعهم الإنذار ، ما داموا غير مستعدين لقبـول الحق ، والخضــــوع لنـــداء اللّه ، والنظر في الــدلائل الدالة على صـدق رسـالة النـبي ، والتأمل في عجـائب الكـون المشـاهدة الدالة على وجود اللّه تعالى ووحدانيته.
"إنهم لن يتحولوا عن حـالهم الـتي هم فيها ، فلقد جمــــدوا على حــــالتهم تلك ، كما تحنط المـوتى فى توابيتها « وَما تُغْنِي الْآيـاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَــوْمٍ لا يُؤْمِنُـونَ » (101 يــونس) وإذا فلا يقف النـبي كثـيرا عنـد هـؤلاء المشـركين الـذين وقفــوا من الــدعوة هــذا الموقف المحــادّ لها ، المتربص بها .."[42]
أما نفع الإنذار ، فهو كما ذكر تعالى : إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَـعَ الـذِّكْرَ ، وَخَشِـيَ الـرَّحْمنَ بِـالْغَيْبِ ، فَبَشِّــرْهُ بِمَغْفِــرَةٍ وَأَجْــرٍ كَــرِيمٍ ، أي إنما ينفع إنـذارك الـذين آمنـوا بـالقرآن العظيم واتبعـوا أحكامه وشــرائعه ، وخــافوا عقــاب اللّه قبل حدوثه ومعاينة أهواله ، أو خشـــــوا اللّه قبل رؤيته ، فهــؤلاء بشــرهم بمغفــرة لــذنوبهم ، ورضوان من اللّه ، وأجر كـريم ونعيم مقيم هو

[41] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 910)
[42] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 910)

الجنــة. ونظــير الآية : إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَــوْنَ رَبَّهُمْ بِـالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِـرَةٌ ، وَأَجْـرٌ كَبِـيرٌ [الملك 67/ 12].

" فليوجه النـــبي وجهه كله إلى المؤمـــنين ، وليعطهم جهـده كله ، ففى هـذا الميـدان يثمر عمله ، ويقع موقعه من أهله ..

وفى قصر الإنـذار على من اتبع الـذكر وخشى الـــرحمن بـــالغيب ـــ فى هـــذا إشـــارة إلى الاستعداد الفطري للإيمان عند هؤلاء المنذرين ، وأنهم بفطرتهم السليمة كانوا والإيمان الـذي يــدعون إليه على موعد ، بل إنهم فى انتظــار له ، وشوق إليه ، قبل أن يطلع عليهم ..

وفى جعل الخشية ، للرحمن ، إشـارة إلى أنها خشية إجلال وتعظيم ، .. خشية حب وتوقــير ، لا خشية جبروت وقهر .. إنها خشية « الرحمن » الذي وسعت رحمته كل شىء .."[43]

ثم أكد اللّه تعـالى حصـول الجـزاء للمؤمـنين وغــــيرهم ، فقــــال : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَــــوْتى ، وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثـارَهُمْ أي إننا قـادرون فعلا على إحياء الموتى ، وبعثهم أحياء من قبــورهم ، ونحن الــــذين نــــدوّن لهم كل ما قــــدموه وأسـلفوه من عمل صـالح أو سـيء ، وتركـوا من أثر طيب أو خــــبيث ، أي نكتب ونســـجل أعمـالهم الـتي باشـروها بأنفسـهم ، وآثـارهم الــتي أثروها وخلفوها من بعــدهم ، فنجــزيهم على ذلك إن خــيرا فخــير ، وإن شــرا فشر ،

---

[43] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 911)

فمن عمل على نشر الفضـــيلة جـــوزي بها ، ومن عمد إلى نشر الرذيلة والســـــــوء في الملاهي أو الكتب الخليعة يحاسب عليها.

"وفى هذا التقرير يتأكد للمؤمنين إيمانهم بهذا الغيب ، وتزداد خشيتهم للّه .." فعَنْ جَرِيــرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُـولِ اللـهِ جُلُوسًـا فِي صَدْرِ النَّهَارِ، فَجَاءَ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ عَلَيْهِمُ الْعَبَاءُ، أَوْ قَالَ: مُتَقَلِّدِي السُّــيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَـلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَـرَ، فَـرَأَيْتُ وَجْــهَ رَسُــولِ اللـــهِ يَتَغَيَّرُ لَمَّا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْــرَ فَخَطَبَ فَقَــالَ:" {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُــوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِـــــــــدَةٍ } [النســـاء: 1] الْآيَـــةُ، ثُمَّ قَـــالَ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَــدٍ } [الحشر: 18] الْآيَـةُ، تَصَـدَّقَ رَجُـلٌ مِنْ دِينَـارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُـرِّهِ، مِنْ صَـاعِ تَمْـرِهِ"، حَتَّى قَـالَ:" وَلَـوْ بِشِـقِّ تَمْـرَةٍ" قَـالَ: وَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُـرَّةٍ، قَـدْ كَـادَتْ كَفُّهُ أَنْ تَعْجِزَ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجِـزَتْ عَنْهَا فَـدَفَعَهَا إِلَى رَسُولِ اللـهِ ، فَتَتَـابَعَ النَّاسُ فِي الصَّـدَقَاتِ، فَـرَأَيْتُ بَيْنَ يَـدَيْ رَسُـولِ اللـهِ كَـوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، وَجَعَلَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، وَقَالَ:" مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً كَـانَ لَـهُ أَجْرُهَا وَأَجْـرُ مَنْ عَمِـلَ بِهَا مِنْ غَيْـرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُـورِهِمْ شَـيْءٌ، وَمَنْ سَـنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَـانَ عَلَيْـهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ

مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ" أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ[44]

وَعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ، عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ - قَالَ : " مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا مَا عُمِلَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ حَتَّى تُتْرَكَ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ إِثْمُهَا حَتَّى تُتْرَكَ ، وَمَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُ الْمُرَابِطِ حَتَّى يُبْعَثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ " . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ[45]

وروى مسلم عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَالَ « إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ».[46]

ثم ذكر تعالى أن كتابة الآثار لا تقتصر على الناس ، وإنما تتناول جميع الأشياء ، فقال : وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ أي لقد ضبطنا وأحصينا كل شيء من أعمال العباد وغيرهم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ الذي سجّل فيه جميع ما يتعلق بالكائنات ، كما قال تعالى : عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى [طه 20/ 52] وقال سبحانه :

---

[44] - شعب الإيمان - (5 / 26) (3048) وصحيح مسلم (2398) -المجتاب : اللابس -المذهبة : الشىء المموه بالذهب -النمار : جمع نمرة وهى كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب

[45] - المعجم الكبير للطبراني - (15 / 450) (17645) حسن

[46] - صحيح مسلم(4310)

وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ [القمر 54/ 52 - 53].

ومضات

هـذا الكتـاب مؤلف من جنس هـذه الأحـرف ، وهي في متنـاول المخـاطبين به من العـرب. ولكنه - مع هـــذا - هو ذلك الكتـــاب المعجز ، الذي لا يملكون أن يصـوغوا من تلك الحـروف مثله. الكتاب الذي يتحداهم مـرة ومـرة ومـرة أن يـــــأتوا بمثله ، أو بعشر ســـــور مثله ، أو بســورة من مثله فلا يملكــون لهــذا التحـــدي جوابا!

والشأن في هـذا الإعجـاز هو الشـأن في خلق اللّه جميعـا. وهو مثل صـنع اللّه في كل شـيء وصنع الناس .. إن هـذه التربة الأرضـية مؤلفة من ذرات معلومة الصـفات. فـإذا أخذ النـاس هذه الذرات فقصارى ما يصوغونه منها لبنة أو آجرة. أو آنية أو أسـطوانة ، أو هيكل أو جهـاز. كائنا في دقته ما يكـــون .. ولكن اللّه المبـــدع يجعل من تلك الـــذرات حيـــاة. حيـــاة نابضة خافقة. تنطـوي على ذلك السر الإلهي المعجز .. سر الحيـاة .. ذلك السر الـذي لا يسـتطيعه بشر ، ولا يعرف سره بشر .. وهكذا القرآن .. حروف وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا ، ويجعل منها اللّه قرآنا وفرقانا ، والفــرق بين صـــنع البشر وصـــنع اللّه من هـــذه الحـــروف والكلمــات ، هو الفــرق ما بين الجسد الخامد

والـــروح النـــابض .. هو الفـــرق ما بين صـــورة الحياة وحقيقة الحياة![47]

يقسم اللّه ســبحانه بهــذين الحــرفين : «يــا. سين» كما يقسم بالقرآن الحكيم. وهذا الجمع بين الأحــرف المقطعة والقــرآن يــرجح الوجه الــذي اخترنــاه في تفســير هــذه الأحــرف في أوائل السور والعلاقة بين ذكرها وذكر القرآن. وأن آية كونه من عند اللّه ، الآية الــــــــتي لا يتدبرونها فيردهم القرآن إليها ، أنه مصوغ من جنس هذه الأحرف الميسرة لهم ولكن نســقه التفكيري والتعبيري فــوق ما يملكــون صــياغته من هذه الحروف.

ويصف القرآن - وهو يقسم به - بأنه «الْقُــرْآنِ الْحَكِيمِ». والحكمة صفة العاقل. والتعبير على هـــذا النحو يخلع على القـــرآن صـــفة الحيـــاة والقصد والإرادة. وهي من مقتضيات أن يكون حكيما. ومع أن هذا مجــاز إلا أنه يصــور حقيقة ويقربهـــا. فــإن لهــذا القــرآن لروحــا! وإن له لصــــفات الحي الــــذي يعاطفك وتعاطفه حين تصفي له قلبك وتصغي له روحك! وإنك لتطلع منه على دخائل وأســــرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحـــك! وإنك لتشـــتاق منه إلى ملامح وســــمات ، كما تشــــتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، حين تصــاحبه فــترة وتــأنس به وتستروح ظلاله! ولقد كــان رســول اللّه - - يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غــيره ويقف

[47] - فى ظلال القرآن ـ موافقا للمطبوع - (1 / 38)

على الأبــواب ينصت إذا ســمع من داخلها من يرتل هــذا القــرآن. كما يقف الحــبيب وينصت لسـيرة الحـبيب! والقـرآن حكيم. يخـاطب كل أحد بما يدخل في طوقه. ويضـرب على الـوتر الحساس في قلبه. ويخاطبه بقدر.

ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه.

والقــــرآن حكيم. يــــربي بحكمة ، وفق منهج عقلي ونفسي مســتقيم. منهج يطلق طاقــات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصـالح القـويم. ويقرر للحياة نظاما كـذلك يسـمح بكل نشـاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم.

يقسم اللّه سبحانه بياء وسين والقرآن الحكيم على حقيقة الــوحي والرســالة إلى الرســول الكــريم : «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَــلِينَ عَلى صِــراطٍ مُسْتَقِيمٍ» ..

وما به ســبحانه من حاجة إلى القســم. ولكن هذا القسم منه - جل جلاله - بـالقرآن وحروفه ، يخلع على المقسم به عظمة وجلالا ، فما يقسم اللّه سبحانه إلا بـأمر عظيم ، يرتفع إلى درجة القسم به واليمين! «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ» .. والتعبـير على هـذا النحو يـوحي بــأن إرســال الرسل أمر مقــرر ، له ســوابق مقررة.

فليس هو الــذي يــراد إثباتــه. إنما المــراد أن يثبت هو أن محمــــــدا - ﷺ - من هــــــؤلاء المرســــلين. ويخاطبه هو بهـــذا القسم - ولا يوجهه إلى المنكرين المكذبين - ترفعا بالقسم

وبالرســـول وبالرســـالة عن أن تكـــون موضع جدل أو مناقشــة. إنما هو الإخبــار المباشر من اللّه للرسول.
«إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَـــــــــــلِينَ عَلى صِـــــــــــراطٍ مُسْــتَقِيمٍ» ..وهــذا بيــان لطبيعة الرســالة بعد بيــان حقيقة الرســول. وطبيعة هــذه الرســالة الاســتقامة. فهي قائمة كحد الســيف لا عـــوج فيها ولا انحـــراف ، ولا التـــواء فيها ولا ميـــل. الحق فيها واضح لا غموض فيه ولا التباس. ولا يميل مع هــوى ولا ينحــرف مع مصــلحة. يجــده من يطلبه في يسر وفي دقة وفي خلوص.
وهي لاستقامتها - بسيطة لا تعقيد فيها ولا لف ولا دوران. لا تعقد الأمـــــــــــور ولا توقع في إشــكالات من القضــايا والتصــورات والأشــكال الجدلية. وإنما تصدع بــالحق في أبسط صــورة من صوره ، وأعراها عن الشـــوائب والأخلاط ، وأغناها عن الشرح ، وتفصيص العبارات وتوليد الكلمــات ، والــدخول بالمعــاني في الــدروب والمنحنيات! يمكن أن يعيش بها ومعها البــادي والحاضر ، والأمي والعــالم ، وســاكن الكـــوخ وســاكن العمــارة ويجد فيها كل حاجته ويــدرك منها ما تســتقيم به حياته ونظامه وروابطه في يسر ولين.
وهي مســتقيمة مع فطــرة الكـــون ونــاموس الوجـــود ، وطبيعة الأشـــياء والأحيـــاء حـــول الإنسان ، فلا تصدم طبــائع الأشــياء ، ولا تكلف الإنسان أن يصــدمها ، إنما هي مســتقيمة على

نهجها ، متناســـقة معها ، متعاونة كـــذلك مع سائر القوانين التي تحكم هذا الوجــود وما فيه ومن فيه.
وهي من ثم مستقيمة على الطريق إلى اللّه ، واصـــلة إليه موصـــلة به ، لا يخشى تابعها أن يضل عن خالقه ، ولا أن يلتـــوي عن الطريق إليه. فهو سـالك دربا مسـتقيما واصلا ينتهي به إلى رضوان الخالق العظيم.
والقــرآن هو دليل هــذا الصــراط المســتقيم. وحيثما سار الإنسان معه وجد هـذه الاسـتقامة في تصـــويره للحق ، وفي التوجيه إليه ، وفي أحكامه الفاصـــلة في القيم ، ووضع كل قيمة في موضعها الدقيق.
«تَنْزِيـلَ الْعَزِيـزِ الـرَّحِيمِ» ..يعـرف اللّه عبـاده بنفسه في مثل هذه المواضع ، ليدركوا حقيقة ما نزل إليهم. فهو العزيز القوي الذي يفعل ما يريـد. وهو الـرحيم بعبـاده الـذي يفعل بهم ما يفعل ، وهو يريد بهم الرحمة فيما يفعل.
فأما حكمة هـذا التنزيل فهي الإنــذار والتبليغ : «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ» .. والغفلة أشد ما يفسد القلوب. فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته. معطل عن الالتقـاط والتأثر والاستجابة.
تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحســها أو يدركها. ودون أن ينبض أو يستقبل. ومن ثم كان الإنــذار هو أليق شـيء بالغفلة الـتي كـان

فيها القــوم ، الــذين مضت الأجيــال دون أن ينذرهم منذر ، أو ينبههم منبه.
فهم من ذرية إسماعيل ولم يكن لهم بعده من رســـول. فالإنــــذار قد يوقظ الغــــافلين المستغرقين في الغفلة ، الـذين لم يـأتهم ولم يأت آباءهم نذير.
ثم يكشف عن مصير هؤلاء الغافلين وعما نزل بهم من قــــدر اللّه ، وفق ما علم اللّه من قلوبهم ومن أمرهم.
ما كـان منه وما سـيكون : «لَقَـدْ حَـقَّ الْقَـوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ» ..
لقد قضي في أمــرهم ، وحق قــدر اللّه على أكــــثرهم ، بما علمه من حقيقتهم ، وطبيعة مشاعرهم. فهم لا يؤمنون.
وهذا هو المصير الأخير للأكثرين. فإن نفوسهم محجوبة عن الهـدى مشـدودة عن رؤية دلائله أو استشعارها.
وهنا يرسم مشهدا حسيا لهذه الحالة النفســية ، يصـورهم كـأنهم مغلولـون ممنوعـون قسـرا عن النظر ، محال بينهم وبين الهـدى والإيمـان بالحواجز والسدود ، مغطى على أبصـارهم فلا يبصرون : «إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْنـاقِهِمْ أَغْلالًا ، فَهِيَ إِلَى الْأَذْقــانِ ، فَهُمْ مُقْمَحُــونَ. وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا. فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ» ..
إن أيــديهم مشــدودة بــالأغلال إلى أعنــاقهم ، موضوعة تحت أذقانهم. ومن ثم فإن رؤوسهم

مرفوعة قسرا ، لا يملكون أن ينظـروا بها إلى الأمـــام! ومن ثم فهم لا يملكـــون حرية النظر والرؤية وهم في هذا المشهد العنيف!

وهم إلى هذا محـال بينهم وبين الحق والهـدى بسد من أمـــــامهم وسد من خلفهم فلو أرخي الشد فنظروا لم تنفذ أبصارهم كذلك من هـذه الســـدود! وقد ســـدت عليهم ســـبيل الرؤية وأغشـيت أبصـارهم بـالكلال! ومع عنف هــذا المشهد الحسي وشـدته فـإن الإنسـان ليلتقي بأناس من هذا النوع ، يخيل إليه وهم لا يـــرون الحق الواضح ولا يدركونه أن هنالك حائلا عنيفا كهذا بينهم وبينه. وأنه إذا لم تكن هــذه الأغلال في الأيـــدي ، وإذا لم تكن الـــرؤوس مقمحة ومجـــبرة على الارتفـــاع ، فـــإن نفوســـهم وبصائرهم كذلك .. مشدودة عن الهدى قســرا وملفوتة عن الحق لفتـــــــا. وبينها وبين دلائل الهدى سد من هنا وسد من هناك. وكذلك كان أولئك الــذين واجهــوا هــذا القــرآن بمثل ذلك الإنكـار والجحـود. وهو يصـدع بالحجة ، ويـدلي بالبرهـــان. وهو بذاته حجة ذات ســـلطان لا يتماسك لها إنسان.

«وَسَـــواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْـــذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْـــذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُــونَ» ..فلقد قضى اللّه فيهم بــأمره ، بما علمه من طبيعة قلـــوبهم الـــتي لا ينفذ إليها الإيمان. ولا ينفع الإنذار قلبا غير مهيأ للإيمان ، مشـــدود عنه ، محـــال بينه وبينه بالســـدود. فالإنـــذار لا يخلق القلــوب ، إنما يوقظ القلب

الحي المســتعد للتلقي : «إِنَّما تُنْــذِرُ مَنِ اتَّبَــعَ الــذِّكْرَ وَخَشِــيَ الــرَّحْمنَ بِــالْغَيْبِ ، فَبَشِّــرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ» ..
والــذكر يــراد به هنا القــرآن - على الأرجح - والـذي اتبع القـرآن ، وخشي الـرحمن دون أن يراه ، هو الذي ينتفع بالإنذار ، فكأنه هو وحــده الـذي وجه إليه الإنـذار. وكأنما الرسـول - ﷺ - قد خصه به ، وإن كـــان قد عمم. إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه ، فانحصر في من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب.
وهــذا يســتحق التبشــير بعد انتفاعه بالإنــذار : «فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ» .. المغفـرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصـر. والأجر الكـريم على خشية الرحمن بالغيب ، واتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر. وهما متلازمـان في القلب. فما تحل خشية اللّه في قلب إلا ويتبعها العمل بما أنزل. والاستقامة على النهج الذي أراد.
وهنا يؤكد وقـوع البعث ودقة الحسـاب ، الـذي لا يفوته شي ء : «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَـــــــوْتى ، وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ ، وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ» ..
وإحيـــاء المـــوتى هو إحـــدى القضـــايا الـــتي اسـتغرقت جـدلا طـويلا. وسـيرد منه في هـذه السـورة أمثلة منوعـة. وهو ينـذرهم أن كل ما قـــــدمت أيـــــديهم من عمل ، وكل ما خلفته أعمالهم من آثار ، كلها تكتب وتحصى ، فلا يند منها شيء ولا ينسـى. واللّه سـبحانه هو الـذي

يحــيي المــوتى ، وهو الــذي يكتب ما قــدموا وآثارهم ، وهو الـذي يحصي كل شـيء ويثبتـه. فلا بد إذن من وقوع هذا كله على الوجه الـذي يليق بكل ما تتولاه يد اللّه.

والإمـام المـبين. واللـوح المحفـوظ. وأمثالهـا. أقـرب تفسـير لها هو علم اللّه الأزلي القـديم وهو بكل شيء محيط.[48]

وقال دروزة :

أما الآيات فقد احتوت :

1 - توكيـدا للنـبي ﷺ بصـدق رسـالته وصـحة نسبة التنزيل القرآني إلى اللّه وقـوة إحكامه ، وكونه على الطريق القويم لينذر قوما غـافلين لم ينذر آباؤهم.

2 - وحملة شديدة على معظم القوم الذين لم ينتفعــوا بالإنــذار ووقفــوا من الــدعوة موقف الجحود والعنـاد حـتى كأنما ضـرب عليهم سـدّ حجب عنهم رؤية الحق. وكأنما قيّدت رؤوسهم بــالأغلال فعجــزوا عن تحريكها يمنة أو يســرة لاستبانة طريق الهدى.

3 - وتسلية للنبي صـلى اللّه عليه وسـلم. فهو إنما أرسل لينـذر النـاس وينتفع بإنـذاره الـذين حسـنت نيـاتهم وصـدقت رغبـاتهم في الحق ، واستشــعروا بخــوف ربهم فــآمنوا به واتبعــوا قرآنه ورســوله فاســتحقوا مغفرته وأجــره الكريم.

---

48 - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2958

4 - وتقريرا ربانيا بأن اللّه سوف يحيي النـاس بعد موتهم وأنه يسـجل عليهم جميع ما فعلـوه في حيـاتهم وخلفـوه من تبعـات بعد مـوتهم تسجيلا دقيقا وواضحا.

وعلى كل حال فالآيات بسبيل تطمين النبي وتثبيته إزاء ما كـان يلقـاه من قومه من عنـاد وجحود ومناوأة. وأسلوبها قوي نافـذ. والـراجح أنها نــزلت في ظــرف كــان لهم أو لبعضــهم موقف شــديد من ذلك أثــار النــبي وآلمه فاقتضت حكمة التنزيل الإيحـــاء بها للتطمين والتثــبيت من جهة والتنديد والتقريع والإنــذار من جهة أخرى.

والآيات [7 ـ 9] قد توهم أن الكفار قد وقفوا موقف الجحـود والعنـاد بتحـتيم ربـاني لم يكن لهم منه منــاص. غــير أن الــتروّي فيها وفيما قبلها وما بعـدها يؤيد التأويل الـذي أوّلناها بـه. فالآية [10] تذكر أن النبي إنما عليه إنـذار من اتّبع الذكر وخشي الرحمن وبعبـارة أخـرى من صدقت رغبته في اتّباع الحق. وهـذا يعـني أيضا أن الكفــار إنما وقفــوا مــوقفهم لخبث نيّتهم وعزوفهم عن الحق فحقّ عليهم القـول. فهي من باب وَيُضِــلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ في الآية [27] من ســورة إبــراهيم ،و{وَما يُضِــلُّ بِــهِ إِلَّا الْفاسِــقِينَ في الآية [26] من ســورة البقــرة و{وَ قَــوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْــفٌ بَــلْ طَبَــعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْــرِهِمْ في الآية [155] من ســورة النســاء ،وكَـذلِكَ يَطْبَـعُ اللَّهُ عَلى كُـلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ

في الآية [35] من سورة غـافر. وهـذا التأويل هو الأكـثر انسـجاما مع حكمة اللّه تعـالى في إرســال الرسل ودعــوة النــاس وإنــذارهم وتبشـيرهم وبيـان طـرق الهـدى والضـلال لهم وتعيين مصائرهم الأخروية وفق سلوكهم. وهو الأكثر اتساقا مع الحملة الشديدة التي احتوتها الآيات على الكفار والمناوئين ...

وإلى هذا فإنه يتبادر لنا أن أسـلوب الآيـات قد جاء أيضا بسبيل تسجيل واقع أمر الكفـار حين نزولها وحسب وليس على ســبيل تأييد عــدم إيمانهم سواء أنذروا أم لم ينذروا بدليل يقيـني هو أن كثــيرا منهم قد آمنــوا فيما بعد وحسن إيمانهم ونالوا رضاء اللّه.

فالآيات قد وردت بهذا الأسـلوب لتكـون أبلغ في التطمين والتثــبيت. وفي توجيه الخطــاب للنـبي ﷺ في الآيـات الـتي قبلها وما فيها من عطف وتأييد وثناء وما في الآية التي بعدها من إيعــاز له بأنه إنما ينــذر ذوي النفــوس الطيبة والرغبــات والصــادقة ، وأن له فيهم الغنــاء والعزاء - قرائن قوية على ذلك أيضا.

والآيات مصـدر إلهـام وتلقين مسـتمر المـدى. ســواء أفيما احتوته من ثنــاء وبشــرى لــذوي النفـوس الطيبة والرغبـات الصـادقة أم في ما احتوته من حملة تنديدية شـــــديدة على ذوي السرائر الخبيثة الذين يكون ديـدنهم المكـابرة في الحق والإيغـــــال في الباطل أم في ما احتوته من تثــبيت وتطمين يلهمــان الــدعاة

والقادة والزعماء والمصلحين قوة يتغلبـون بها على ما يلقونه في طـــــريقهم من عقبـــــات ومصاعب."[49]

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

1 - القرآن الكـريم معجـزة النـبي الخالـدة إلى يوم القيامة ، وهو تنزيل من رب العالمين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

2 - الرســول محمد رســول من عند اللّه ، أرســله اللّه بالهــدى ودين الحق ، على منهج وطريق ودين مستقيم هو الإسلام.

3 - رسـالة النـبي إلى العـرب خاصة وإلى الناس كافة ، فلم يبق بعدها عذر لمعتذر.

4 - إن رؤوس الكفر والطغيـــان والعنـــاد من أهل مكة أو العـرب اسـتحقوا الخلـود في نـار جهنم والعـذاب الـدائم فيها لأنهم أصـروا على الكفر ، وأعرضــوا عن النظر في آيــات اللّه ، والتأمل في مشاهد الكـون ، وقد علم اللّه في علمه الأزلي بقـــــاءهم على الكفر ، لكنه أمر نبيه بدعوتهم إلى دينه لأنهم لا يعلمـون سـابق علم اللّه فيهم ، ولتعليمنا المنهج في دعـــــوة النــــاس قاطبة إلى الإيمــــان باللّه والقــــرآن ورسالة النبي والبعث والحساب والجزاء.

5 - لا أمل بعد هــذا في إنـــذارهم ولا نفع فيه بعد أن ســـدوا على أنفســـهم منافذ الهداية

---

[49] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 22)

ومـدارك المعرفة ، ولم تتفتح بصـائرهم لرؤية الحق والنور الإلهي.
6 - إنما نفع الإنـــذار لمن اســـتعد للنظر في منهج الحق ، ثم آمن بـــــالقرآن كتابا من عند اللّه ، وخشي عــذاب اللّه ونــاره قبل المعاينة والحـــدوث ، فهـــذا وأمثاله يغفر اللّه له ذنبه ، ويدخله الجنة.
7 - البعث حق والإيمان به واجب ، واللّه قـادر عليه ، وســيكون مســتند الجــزاء ما كتب من أعمال العبـاد ، وما تركـوه من آثـار صـالحة أو سيئة ، كما أن اللّه أحصى كل شــيء وضـبطه من أمور الكائنـات ، فلا يخفى عليه شــيء في الأرض ولا في السماء.
وقد دلّ ســبب نــزول الآية على أن حســنات البعيدين عن المسـجد مثل حسـنات القريـبين منه ، وأنه إن تعـــــذر عليهم الاقـــــتراب من المسجد أو شقّ عليهم ، فلا يلزم القرب منه.

قصة أصحاب القرية

قال تعالى :

ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ
ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ
ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ
ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ
ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ
ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ
ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

14 ... فَعَزَّزْنَا بِثَـــالِثٍ ... قويناهما وشـــددنا أزرهما برسول ثالث

18 ... تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ... لم نر على وجـــــوهكم خيرا في عيشنا

19 ... طَـــائِرُكُمْ مَّعَكُمْ ... شـــؤمكم بســـبب أعمالكم وكفركم

19 ... أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ... من أجل تـــــذكيرنا لكم بعبادة الله

19 ... مُسْـرِفُونَ ... مجـاوزون الحد بكفـركم وشرككم

20 ... يَسْـعَى ... يســرع في مشــيه لنصــرة قومه

22 ... فَطَرَنِي ... خلقني وحده لا شريك له

23 ... لا تُغْنِ عَنِّي ... لا تدفع عني

المناسبة :

مناسـبة ضـرب هـذا المثل هنا ، هو أن الآيـات السـابقة كشـفت عن الطبيعة الإنسـانية ، وأن النـاس على طبيعـتين : أصـحاب طبيعة متأبيّة على الخـــــير ، مغلقة الحـــــواسّ عنه ، لا يســتجيبون له مهما جىء إليهم به من شــتى الوســائل .. وأصــحاب طبيعة أخــرى مهيــأة للإيمان ، مسـتعدة له ، متشـوفة إليه ، لا تكـاد تهبّ عليهم نسمة من أنسامه العطـرة ، حـتى يتنفسوا أنفاسه ، ويملئـوا صـدورهم به ..وفى هذا المثل ، عرض للناس فى طبيعتيهم هـاتين معا ..[50]

فبعد بيان حال مشركي العـرب الـذين أصـروا على الكفر ، ضرب الحق تعالى لهم مثلا يشبه حالهم في الإفـراط والغلو في الكفر وتكـذيب الــدعاة إلى اللّه ، وهو حـــال أهل تلك القرية الــذين كــذبوا الرسل فــدمرهم اللّه بصــيحة واحدة ، فإذا استمر المشـركون على عنـادهم واسـتكبارهم ،كـان إهلاكهم يسـيرا كأهل هـذه القرية ،وتكـون قصـتهم مع رسل اللّه ، كقصة قوم النبي ﷺ معه.

التفسير والبيان :

وَاضْــرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْــحابَ الْقَرْيَــةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَـلُونَ أي واضـرب مثلا في الغلو والعنـاد والكفر يا محمد لقومك الــذين كــذبوك بأهل تلك القرية حين أرسل اللّه إليهم ثلاثة

[50] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 913)

فكــذبوهم ، كما كــذبك قومك عنــادا ، وأصر الفريقان على التكذيب.
والقرية : أنطاكية في رأي جميع المفســرين ، والمرســلون : أصــحاب عيسى عليه الســلام أرســـلهم مقـــررين لشــــريعته ، في رأي ابن عباس وكثير من المفسرين.
وعقب الخطيب بقوله : " وهـذا التأويل للقرية وللرسل ، لا يقوم له شاهد من القرآن الكريم ، ولا تـدل عليه إشـارة من إشـاراته القريبة أو البعيـدة .. وإنما هو من واردات أهل الكتـاب ، وأخبــارهم. والخــبر هنا وارد من المســيحية ، وينسب إلى وهب ابن منبّه ، الــذي تلقــاه من المسيحية ، مما يعرف عند المسيحيين بأعمال الرسل ، الملحقة بالأناجيل
فهـذا التأويل ــ فى نظرنا ــ لا يعـوّل عليه ، ما دام غير مســتند إلى دليل من القــرآن الكــريم ذاته . فالقرآن الكريم ـ فى رأينا ـ يفسر بعضه بعضا ، وهو كما وصـفه الحق سـبحانه وتعـالى فى قوله :« وَنَزَّلْنا عَلَيْـكَ الْكِتـابَ تِبْيانـاً لِكُـلِّ شَيْءٍ » (89 : النحل) فكيف لا يكون تبيانا لما فيه ؟ .
وندع القرية واســمها ، والرسل والصـفة الـتي لهم ــ نـدع هـذا الآن ، ونعـرض المثل على أن القرية واحـــدة من القــرى المبثوثة فى هـــذه الـــدنيا ، وأن الرسل ، هم بعض رسل اللّه إلى عباده ..

فهــذه قرية ، قد جاءها رسل ، مبعوثــون من عند اللّه ،وقد دعوا أصحابها إلى الإيمـان ، فلم يلقــوا منهم إلّا الصد اللــئيم ، والقــول القــبيح .."[51]

قلت : والصواب ما قاله الخطيب .

ثم بيّن عــدد الرسل فقــال : إِذْ أَرْسَــلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَـذَّبُوهُما ، فَعَزَّزْنا بِثـالِثٍ ، فَقـالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ أي حين أرسلنا إليهم رسـولين ، أرسلهما عيسى عليه السلام بأمر اللّه تعالى ،فبادروا إلى تكذيبهما في الرسـالة ،فأيـدناهما وقويناهما برســول ثــالث ،فقــالوا لأهل تلك القرية : إنا مرســلون إليكم من ربكم الــذي خلقكم بأن تعبدوه وحده لا شريك له ، وتتركوا عبادة الأصنام.

فتمسكوا كغيرهم من الأمم بشـبهة البشـرية ، كما حكى تعالى : قالُوا : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، وَما أَنْــزَلَ الــرَّحْمنُ مِنْ شَــيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ أي قال أصـحاب القرية للرسل الثلاثة : أنتم مثلنا بشر تأكلون الطعـام وتمشـون في الأسواق ، فمن أين لكم وجـود مزية تختصـون بها علينا ، وتدّعون الرسالة؟ واللّه الرحمن لم يــنزل إليكم رســالة ولا كتابا مما تــدّعون ، ويدّعيه غيركم من الرسل وأتبـاعهم ، وما أنتم فيما تدّعون الرسالة إلا كاذبون.

---

[51] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 913)
"قلت : الصواب ما قاله الخطيب فلا يجوز التعويل على أقاويل أهل الكتاب المخالفة لظاهر القرآن الكريم فهم رسل حقيقة والتفاصيل في كتابنا المهذب في تفسير سورة يس "

وقولهم : ما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ دليل على اعترافهم بوجود اللّه ، لكنهم ينكرون الرسالة ، ويعبدون الأصنام وسائل إلى اللّه تعالى.
وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة ، كما أخبر اللّه تعـالى عنهم في قوله : ذلِـكَ بِأَنَّهُ كـانَتْ تَـأْتِيهِمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنـاتِ ، فَقـالُوا : أَبَشَـرٌ يَهْدُونَنا؟ [التغابن 64/ 6] أي تعجبـوا من ذلك وأنكـروه. وقوله تعـالى : قـالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُنا تُرِيـدُونَ أَنْ تَصُـدُّونا عَمَّا كـانَ يَعْبُـدُ آباؤُنا ، فَأْتُونا بِسُـلْطانٍ مُبِينٍ [إبـراهيم 14/ 10].
فأجـابهم الرسل : قـالُوا : رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : اللّه يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه ، لانتقم منا أشد الانتقـام ، ولكنه سـيعزّنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكـون عاقبة الـدار؟ كقوله تعـالى : قُـلْ : كَفى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَـهِيداً ، يَعْلَمُ ما فِي السَّـماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ ، وَكَفَـرُوا بِاللَّهِ ، أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ [العنكبوت 29/ 52].
ثم ذكر الرسل مهمتهم : وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي إنما علينا أن نبلغكم ما أرسـلنا به إليكم ، ولا يجب علينا إلا تبليغ الرسـالة بنحو واضح ، فـإذا اسـتجبتم كـانت لكم سـعادة الـدارين ، وإن لم تجيبـوا فسـتعلمون عاقبة تكذيبكم.

فعند ذلك هـــددهم أهل القرية : قـــالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُـــــوا لَنَـــــرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّـنَّكُمْ مِنَّا عَـذابٌ أَلِيمٌ أي قـال لهم أهل القرية : إنا تشــاءمنا بكم ، ولم نر خـــيرا في عيشنا على وجـوهكم ، فقد فرقتمونا وأوقعتم الخلاف فيما بيننا ، ولئن لم تتركوا هذه الدعوة ، وتعرضـــوا عن هـــذه المقالة ، لـــنرجمنكم بالحجـارة ، وليصـيبنكم منا عـذاب مـؤلم أو عقوبة شديدة. وقوله : وَلَيَمَسَّنَّكُمْ بيان للرجم ، يعـني :ولا يكـون الـرجم رجما قليلا بحجر أو حجـرين ، بل نـديم ذلك عليكم إلى المـوت ، وهو عذاب أليم. ويرى بعضهم أن الواو بمعـنى (أو) والمــــراد : إما أن نقتلكم أو نســـجنكم ونعذبكم في السجون.

فأجـابهم الرسل : (قـالُوا طـائِرُكُمْ مَعَكُمْ) أي قـالوا لهم سـبب شـؤمكم من أفعـالكم لا من قبلنا كما تزعمـــون ، فـــأنتم أشـــركتم باللّه ســــــواه،وأولعتم بالمعاصي واجـــــــترحتم السـيئات،أما نحن فلا شـؤم من قبلنا ، فإنا لا نـــدعو إلا إلى توحيد اللّه ،وإخلاص العبـادة له والإنابة إليه ، وفي ذلك منتهى اليمن والبركة.

(أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَـلْ أَنْتُمْ قَـوْمٌ مُسْـرِفُونَ) أي أمن جـــرّاء أنا ذكرنـــاكم وأمرنـــاكم بعبـــادة اللّه مخلصين له الدين تقابلوننا بمثل هـذا الوعيد ؟ بل أنتم قوم ديدنكم الإسـراف ومجـاوزة الحد في الطغيان ، ومن ثم جاءكم الشـؤم ولا دخل لرسل اللّه في ذلك.

والخلاصة - أنتم قوم مسـرفون في ضـلالكم ، متمـــادون في غيكم ، تتشـــاءمون بمن يجب التـــبرك بهم من هـــداة الـــدين ، فقد جعلتم أسـباب السـعادة أسـبابا للشـقاء ولا يخفى ما في ذلك من شـــديد التـــوبيخ وعظيم التهديد والتنبيه إلى ســـوء صـــنيعهم بحرمـــانهم من الخيرات.
ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن قوم فرعــون « فَـإِذا جـاءَتْهُمُ الْحَسَـنَةُ قـالُوا لَنا هـذِهِ وَإِنْ تُصِـبْهُمْ سَـيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَمَنْ مَعَـهُ ، أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ »
"وينتهي موقف الرسل مع أصحاب القرية إلى هـذا الطريق المسـدود ..ثم لا يلبث أن يجيء صـــــوت العقل ، من واحد من أهل القرية ، فيكسر هذا الحائط ، ويدخل على القـوم منه ، ويأخذ موقفه مع الرسل ، داعيا إلى اللّه .."[52]
فقد أبـان أنّ الحق لا يعـدم نصـيرا ، وأن اللّه يقيّض له من يـدافع عنه فقـال : (وَجـاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْـعى قـالَ يا قَـوْمِ اتَّبِعُـوا الْمُرْسَـلِينَ. اتَّبِعُـوا مَنْ لا يَسْـئَلُكُمْ أَجْـراً وَهُمْ مُهْتَـدُونَ) أي وجـاء من أطـراف المدينة رجل يعـــدو مســـرعا ، لينصح قومه حين بلغه أنهم عقـدوا النية على قتل الرسل ، فتقـدم للـذبّ عنهم ابتغـاء وجه اللّه ونيل ثوابه ،قـال يا قـوم اتبعوا رسل اللّه الـذين لا يطلبـون منكم أجـرا على تبليغهم ولا يطلبـون علــوا في الأرض ولا

[52] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 915)

فســـادا،وهم ســـالكون طريق الهداية الـــتي توصل إلى سعادة الدارين.

" فأي دعوة أولى من هـذه الـدعوة ،بـالقبول لها ، والاحتفاء بأهلها ؟

  إنها دعوة من أهل الهدى ، الـذين لا يسـألون أجرا على هذا الهدى الذي ، يقدمونه ويــدعون إليه ..فلم التمنّع والإعـراض عن خـير يبـذل بلا ثمن ؟

ذلك لا يكون إلا عن سفه وجهل معا ..

ثم يعــرض هــذا الوافد الجديد ، نفسه عليهم ، في الزيّ الجديد الـذي تزيّا ، والخـير الموفـور الذي بين يديه من تلك الدعوة .. "

فقد أبــان لهم أنه ما اختــار لهم إلا ما اختــاره لنفسه فقال : (وَما لِيَ لا أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَـرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُـونَ ؟) أي وما يمنعـني من إخلاص العبـادة للـذي خلقـني ، وإليه المرجع للجـزاء يوم المعـاد فيجـازيكم على أعمـالكم إن خـيرا فخير ، وإن شرا فشر.

وفي هــذا تقريع لهم بــتركهم عبــادة الخــالق وعبادة غـيره ، وتهديد بتخـويفهم بـالرجوع إلى شديد العقاب.

ثم أعاد التوبيخ مرة أخرى مبينا عظيم حمقهم فقال : (أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِـذُونِ ؟) أي أأعبد من دون اللّه آلهة لا تملك من الأمر شــيئا ، وهو لو أرادني بســوء فلا كاشف له إلا هو ، ولا تملك الآلهة دفعه عنى ولا منعه.

(إِنِّي إِذاً لَفِي ضَــــلالٍ مُبِينٍ) أي إنى إذا فعلت ذلك واتخـذت من دونه آلهة لفى ضـلال بيّن لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل ، فإن إشـــراك من لا يخلق وليس من شـــأنه النفع والضر ، بمن يخلق وهو القادر على كل شى ء - خطأ ظاهر ، وغلط واضح لدى أرباب الأحلام وذوى الحجا.[53]

"أسئلة إنكارية ، ينكر بها الرجل على نفسه ألا يكون فى العابدين للّه ، الذي فطـره ، والـذي إليه موعده ولقـاؤه مع النـاس ، يـوم الحشر ، إنه لا بد أن يكون له إله يعبده .. أفيترك عبادة من خلقه ورزقه ، والـــــــــذي يميته ثم يحييه ..ويعبد آلهة من دون اللّه ، إن يــرده اللّه بضر لا تغـنى عنه هـذه الآلهة شـيئا ، ولا تمد يــدها لإنقاذه مما يريده اللّه به من ضر ؟

« إِنِّي إِذاً لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ » !! وأي ضـلال بعد هذا الضلال ، الذي يـدع فيه الإنســان حبل النجـاة الممـدود إليه ، ثم يتعلق بـأمواج البحر الصاخبة ، وتياراته المتدافعة ؟ ."

وهذا تعريض بهم ، ثم صرح بإيمانه تصــريحا لا شك فيه مخاطبا الرسل : إِنِّي آمَنْتُ بِــــرَبِّكُمْ فَاسْـــمَعُونِ أي إني صـــدقت بـــربكم الـــذي أرسلكم ، فاشهدوا لي بذلك عنده.

"وهكـذا يقولها صـريحة مدويّة في وجه القـوم .. إنها هى كلمة النجاة ، وحسبه أن يمسك بها ، وليكن ما يكون ..!

---

[53] - تفسير المراغي ، ج 22 ، ص : 153

وألا فليسـمعوها عالية مدوية متحدية .. إنها كلمة الحق التي يجب أن ترتفع فوق كل كلمة ، وتعلو على كل نداء."

وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ خَاطَبَ بِذَلِكَ الرُّسُلَ ، وَقَالَ لَهُمُ : اسْمَعُوا قَوْلِي لِتَشْهَدُوا لِي بِمَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّي ، وَأَنِّي قَدْ آمَنْتُ بِكُمْ وَاتَّبَعْتُكُمْ ؛ فَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ هَذَا الْقَوْلَ ، وَنَصَحَ لِقَوْمِهِ النَّصِيحَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَثَبُوا بِهِ فَقَتَلُوهُ ثُمَّ اخْتَلَفَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ فِي صِفَةِ قَتْلِهِمْ إِيَّاهُ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ[54]

عَنْ قَتَادَةَ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ " هَذَا رَجُلٌ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى اللَّهِ ، وَأَبْدَى لَهُمُ النَّصِيحَةَ فَقَتَلُوهُ عَلَى ذَلِكَ وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَرْجِمُونَهُ بِالْحِجَارَةِ ، وَهُوَ يَقُولُ : اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي ، اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي ، حَتَّى أَقْعَصُوهُ وَهُوَ كَذَلِكَ " وَقَالَ آخَرُونَ : بَلْ وَثَبُوا عَلَيْهِ ، فَوَطَئُوهُ بِأَقْدَامِهِمْ حَتَّى مَاتَ "[55]

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ ، فِيمَا بَلَغَهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَعَنْ كَعْبٍ ، وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ ، قَالَ لَهُمْ : وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي . . إِلَى قَوْلِهِ : فَاسْمَعُونِ " وَثَبُوا وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَقَتَلُوهُ وَاسْتَضْعَفُوهُ لِضَعْفِهِ وَسَقَمِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَدْفَعُ عَنْهُ "[56]

---

[54] - الطبري

[55] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (26742) صحيح مرسل

[56] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (26743) بلاغاً

وعَنِ ابْنِ إِسْحَاقَ ، عَنْ بَعْضِ أَصْـحَابِهِ أَنَّ عَبْـدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَانَ يَقُولُ : " وَطِئُوهُ بِـأَرْجُلِهِمْ حَتَّى خَرَجَ قُصْبُهُ مِنْ دُبُرِهِ "[57]
وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ ، عَنْ بَعْضِ أَصْـحَابِهِ أَنَّ عَبْـدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَـانَ يَقُـولُ : " قَـالَ اللَّهُ لَـهُ : ادْخُــلِ الْجَنَّةَ ، فَــدَخَلَهَا حَيًّا يُــرْزَقُ فِيهَا ، قَــدْ أَذْهَبَ اللَّهُ عَنْـهُ سَـقَمَ الـدُّنْيَا وَحُزْنَهَا وَنَصَـبَهَا ، فَلَمَّا أُفْضِيَ إِلَى رَحْمَـةِ اللَّهِ وَجَنَّتِـهِ وَكَرَامَتِـهِ " قَالَ : يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُـونَ بِمَا غَفَـرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ "[58]
"« قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ » ـ هذا هو الجـواب الـذي تلقـــاه الرجل المـــؤمن ، ردّا على إقـــراره بالإيمـان بربه .. وهو الجـزاء الـذي يلقـاه كل مؤمن صادق الإيمان ..والقول الـذي قيل لهـذا المــؤمن ، إما أن يكــون فى الحيــاة الــدنيا ، بوحي من اللّه سبحانه وتعالى ، وإما أن يكـون ذلك بعد المـوت ، حيث يعلم المـرء مكانه من الجنة أو النـار فيقـال له يومئذ : « ادخل الجنة » فهى الدار التي أعدّها اللّه لك."
«قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ »!
إنه يتمنّى لقومه أن ينالوا هذا الخير الذي ناله ، بإيمانه بربه ، وأن يعلمـــــــــوا ما أعد اللّه

---

[57] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُـرْآنِ لِلطَّبَـرِيِّ (26744) فيه جهالة
[58] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُـرْآنِ لِلطَّبَـرِيِّ (26745) فيه جهالة

للمؤمـنين من مغفـرة وإكـرام .. وأنّى لهم أن يعلموا هذا الغيب ؟
وأنّى لهم أن يؤمنوا به ، وقد أنكروا ما لمسوه بحواسهم ، وكذبوا ما رأوه بأعينهم ؟ ..
يا ليت قــومي يعلمــون بمــآلي وحسن حــالي وحميد عـــــاقبتي ، فيؤمنـــــوا مثل إيمــــاني ، فيصـيروا إلى مثل ما أنا فيه من نعيم ، وليتهم يعلمون بما أنعم اللّه عليّ من مغفـرة لـذنوبي ، وبما جعلـني في زمـرة المكـرمين المقـربين الشــهداء الــذين منحهم ربهم الثــواب الجزيل والفضل العميم. وهذا شـأن المـؤمن المخلص يحب الخير للناس جميعا ، عَنْ قَتَـادَةَ ، قَوْلُـهُ : قِيلَ ادْخُـلِ الْجَنَّةَ " فَلَمَّا دَخَلَهَا " قَـالَ : يَا لَيْتَ قَـوْمِي يَعْلَمُـونَ بِمَا غَفَـرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ قَالَ : " فَلَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا نَاصِـحًا ، وَلَا تَلْقَاهُ غَاشًّا ، فَلَمَّا عَايَنَ مِنْ كَرَامَـةِ اللَّهِ " قَالَ : يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُـونَ بِمَا غَفَـرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْـــــرَمِينَ " تَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ يَعْلَمَ قَوْمُـهُ مَا عَـايَنَ مِنْ كَرَامَـةِ اللَّهِ ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ "[59].
"هذا هو المثل ، وتلك هى مواقف الشخصيات والأحداث فيه ..
وعلى ضـــوء هـــذا المثل يـــرى المشـــركون الضالون ، إلى أين يسير بهم كفرهم وضـلالهم ، وإلى أين ينتهي الإيمـــان بـــالمؤمنين الـــذين

---
[59] - جَـامِعُ الْبَيَـانِ فِي تَفْسِـيرِ الْقُـرْآنِ لِلطَّبَـرِيِّ (26746) صحيح مرسل

استجابوا لرسول اللّه ، واستقاموا على الطريق الذي يدعوهم إليه!."

ومضات

لم يذكر القرآن من هم أصحاب القرية ولا ما هي القرية. وقد اختلفت فيها الروايات. ولا طائل وراء الجري مع هذه الروايات.

وعدم إفصاح القرآن عنها دليل على أن تحديد اسمها أو موضعها لا يزيد شيئا في دلالة القصة وإيحائها.

ومن ثم أغفل التحديد ، ومضى إلى صميم العبرة ولبابها. فهي قرية أرسل اللّه إليها رسولين. كما أرسل موسى وأخاه هارون - عليهما السّلام - إلى فرعون وملئه. فكذبهما أهل تلك القرية ، فعززهما اللّه برسول ثالث يؤكد أنه وأنهما رسل من عند اللّه. وتقدموا ثلاثتهم بدعواهم ودعوتهم من جديد «فَقالُوا : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ» ..

هنا اعتراض أهل القرية عليهم بالاعتراضات المكرورة في تاريخ الرسل والرسالات ..

«قالُوا : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» .. «وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ ءٍ» .. «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» .. وهذا الاعتراض المتكرر على بشرية الرسل تبدو فيه سذاجة التصور والإدراك ، كما يبدو فيه الجهل بوظيفة الرسول. فقد كانوا يتوقعون دائما أن يكون هناك سر غامض في شخصية الرسول وحياته تكمن وراءه الأوهام والأساطير .. أليس

رسـول السـماء إلى الأرض فكيف لا تحيط به الأوهـام والأسـاطير؟ كيف يكـون شخصـية مكشـوفة بسـيطة لا أسـرار فيها ولا ألغـاز حولهـا؟! شخصـية بشـرية عادية من الشخصـيات الـتي تمتلئ بها الأسـواق والبيوت؟! وهذه هي سذاجة التصور والتفكير. فالأسرار والألغـاز ليست صـفة ملازمة للنبـوة والرسالة. وليست في هذه الصـورة السـاذجة الطفوليـة. وإن هنالك لسـرا هـائلا ضـخما، ولكنه يتمثل في الحقيقة البسـيطة الواقعـة. حقيقة إيداع إنسان من هؤلاء البشر الاستعداد اللـدني الـذي يتلقى به وحي السـماء، حين يختـاره اللّه لتلقي هـذا الـوحي العجيب. وهو أعجب من أن يكـون الرسـول ملكا كما كـانوا يقـترحون! والرسـالة منهج إلهي تعيشه البشرية. وحياة الرسول هي النموذج الـواقعي للحياة وفق ذلك المنهج الإلهي.

النموذج الذي يدعو قومه إلى الاقتداء به. وهم بشـر. فلا بد أن يكـون رسـولهم من البشر ليحقق نموذجا من الحيـاة يملكـون هم أن يقلدوه.

ومن ثم كـانت حيـاة الرسـول - ﷺ - معروضة لأنظار أمته. وسجل القرآن - كتاب اللّه الثابت - المعـالم الرئيسـية في هـذه الحيـاة بأصـغر تفصـيلاتها وأحـداثها، بوصـفها تلك الصـفحة المعروضة لأنظـار أمته على مـدار السـنين والقرون. ومن هذه التفصـيلات حياته المنزلية

والشخصية. حتى خطرات قلبه سجلها القـرآن في بعض الأحيان ، لتطلع عليها الأجيـال وتـرى فيها قلب ذلك النبي الإنسان.

ولكن هذه الحقيقة الواضحة القريبة هي الــتي ظلت موضع الاعتراض من بني الإنسان! ولقد قال أهل تلك القرية لرسلهم الثلاثة : «ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا» .. وقصدوا أنكم لستم برسل .. «وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْ ءٍ» .. مما تـدعون أنه نزله عليكم من الـوحي والأمر بـأن تـدعونا إليــه. «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْـذِبُونَ» ..وتــدعون أنكم مرســـلون! وفي ثقة المطمئن إلى صـــدقه ، العارف بحدود وظيفته أجابهم الرسل : قالُوا : رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَــــــلُونَ. وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ» ..

إن اللّه يعلم. وهـــذا يكفي وإن وظيفة الرسل البلاغ. وقد أدوه. والنـاس بعد ذلك أحـرار فيما يتخذون لأنفسـهم من تصـرف. وفيما يحملـون في تصـــــــرفهم من أوزار. والأمر بين الرسل وبين الناس هو أمر ذلك التبليغ عن اللّه فمـتى تحقق ذلك فالأمر كله بعد ذلك إلى اللّه.

ولكن المكذبين الضالين لا يأخذون الأمور هــذا المأخذ الواضح الســهل اليســير ولا يطيقــون وجود الدعاة إلى الهدى فتأخذهم العزة بــالإثم ويعمــدون إلى الأســلوب الغليظ العــنيف في مقاومة الحجة لأن الباطل ضيق الصــدر عربيد :

«قـــــالُوا : إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ! لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُــــــوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ» ..

قـــالوا : إننا نتشــــاءم منكم ونتوقع الشر في دعـوتكم فـإن لم تنتهـوا عنها فإننا لن نسـكت عليكم ، ولن ندعكم في دعوتكم : «لَنَرْجُمَنَّكُمْ ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ» ..

وهكـذا أسـفر الباطل عن غشـمه وأطلق على الهـــداة تهديــــده وبغى في وجه كلمة الحق الهادئة ، وعربد في التعبـــير والتفكـــير! ولكن الـــواجب الملقى على عــــاتق الرسل يقضي عليهم بالمضي في الطريق : «قالُوا : طائِرُكُمْ مَعَكُمْ» ..

فــالقول بالتشــاؤم من دعــوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهليـة. والرسل يـبينون لقــومهم أنها خرافة وأن حظهم ونصــيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم. إنما هو معهم. مرتبط بنواياهم وأعمــالهم ، متوقف على كسبهم وعملهم. وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيرا أو أن يجعلوه شرا. فــإن إرادة اللّه بالعبد تنفذ من خلال نفسه ، ومن خلال اتجاهه ، ومن خلال عملـــــه. وهو يحمل طـائره معـه. هـذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح. أما التشـاؤم بـالوجوه ، أو التشاؤم بالأمكنة ، أو التشاؤم بالكلمات .. فهو خرافة لا تسـتقيم على أصل مفهـوم! وقــالوا لهم : «أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ؟» ..

يعني أترجموننا وتعـذبوننا لأننا نـذكركم! أفهـذا جزاء التذكير؟

«بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ» ..تتجـاوزون الحـدود في التفكير والتقـدير وتجـازون على الموعظة بالتهديد والوعيد وتردون على الـدعوة بـالرجم والتعـذيب! تلك كـانت الاسـتجابة من القلـوب المغلقة على دعوة الرسل. وهي مثل للقلوب الـتي تحـدثت عنها السـورة في الجولة الأولى وصـــورة واقعية لـــذلك النمـــوذج البشـــري المرسوم هناك.

فأما النمــوذج الآخر الــذي اتبع الــذكر وخشي الرحمن بالغيب ، فكان له مسـلك آخر وكـانت له استجابة غـير هـذه الاسـتجابة : «وَجـاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُــوا الْمُرْسَـلِينَ. اتَّبِعُـوا مَنْ لا يَسْـئَلُكُمْ أَجْـراً وَهُمْ مُهْتَـدُونَ. وَما لِيَ لا أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَـرَنِي وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُــونَ؟ أَأَتَّخِــذُ مِنْ دُونِــهِ آلِهَــةً إِنْ يُــرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُـرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَـفاعَتُهُمْ شَـيْئاً وَلا يُنْقِـذُونِ؟ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ. إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ» ..

إنها اسـتجابة الفطـرة السـليمة لـدعوة الحق المســـتقيمة. فيها الصـــدق. والبســـاطة. والحرارة. واستقامة الإدراك.

وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين.

فهذا رجل سـمع الـدعوة فاسـتجاب لها بعد ما رأى فيها من دلائل الحق والمنطق ما يتحــدث عنه في مقالته لقومــه. وحينما استشــعر قلبه

حقيقة الإيمـــان تحـــركت هـــذه الحقيقة في ضــميره فلم يطق عليها ســكوتا ولم يقبع في داره بعقيدته وهو يـــرى الضـــلال من حوله والجحـود والفجـور ولكنه سـعى بـالحق الـذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره. ســعى به إلى قومه وهم يكـــذبون ويجحـــدون ويتوعدون ويهـددون. وجـاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق ، وفي كفهم عن البغي ، وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصـبوه على المرسلين.
وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جـاه ولا سـلطان. ولم يكن في عـــزوة من قومه أو منعة من عشــيرته. ولكنها العقيــدة الحية في ضــميره تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها ..
«قالَ : يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَـلِينَ. اتَّبِعُـوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ» ..
إن الذي يدعو مثل هذه الدعوة ، وهو لا يطلب أجـرا ، ولا يبتغي مغنما .. إنه لصـادق. وإلا فما الذي يحمله على هـذا العنـاء إن لم يكن يلـبي تكليفا من اللّـه؟ ما الـذي يدفعه إلى حمل هم الـدعوة؟ ومجابهة النـاس بغـير ما ألفـوا من العقيـــدة؟ والتعـــرض لأذاهم وشـــرهم واسـتهزائهم وتنكيلهم ، وهو لا يجـني من ذلك كسبا ، ولا يطلب منهم أجرا؟

«اتَّبِعُــــوا مَنْ لا يَسْـــئَلُكُمْ أَجْـــراً» .. «وَهُمْ مُهْتَدُونَ» ..وهداهم واضح في طبيعة دعـوتهم. فهم يــدعون إلى إله واحــد. ويــدعون إلى نهج واضـح. ويـدعون إلى عقيـدة لا خرافة فيها ولا غمــوض. فهم مهتــدون إلى نهج ســليم ، وإلى طريق مستقيم.
ثم عــــاد يتحــــدث إليهم عن نفسه هو وعن أســباب إيمانه ، ويناشد فيهم الفطــرة الــتي اســتيقظت فيه فــاقتنعت بالبرهــان الفطــري السليم : « وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُــونَ؟ أَأَتَّخِــذُ مِنْ دُونِــهِ آلِهَــةً إِنْ يُــرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُـرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَـفاعَتُهُمْ شَـيْئاً وَلا يُنْقِــــذُونِ؟ إِنِّي إِذاً لَفِي ضَــــلالٍ مُبِينٍ» ..إنه تساؤل الفطرة الشاعرة بالخالق ، المشـدودة إلى مصـدر وجودها الوحيد .. «وَما لِيَ لا أَعْبُـدُ الَّذِي فَطَـرَنِي؟» وما الــذي يحيد بي عن هــذا النهج الطــبيعي الــذي يخطر على النفس أول ما يخطر؟ إن الفطر مجذوبة إلى الذي فطرها ، تتجه إليه أول ما تتجه ، فلا تنحــــرف عنه إلا بــدافع آخر خــارج على فطرتهــا. ولا تلتــوي إلا بمــــؤثر آخر ليس من طبيعتهــــا. والتوجه إلى الخـــــالق هو الأولى ، وهو الأول ، وهو المتجه الــذي لا يحتــاج إلى عنصر خـــارج عن طبيعة النفس وانجــذابها الفطــري. والرجل المــؤمن يحس هـذا في قـرارة نفسه ، فيعـبر عنه هـذا التعبـير الواضح البسـيط ، بلا تكلف ولا لف ولا تعقيـد! وهو يحس بفطرته الصـادقة الصـافية

كـــذلك أن المخلـــوق يرجع إلى الخـــالق في النهايـــة. كما يرجع كل شـــيء إلى مصـــدره الأصيل. فيقول : «وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» ..ويتســاءل لم لا أعبد الذي فطـرني ، والـذي إليه المرجع والمصير؟ ويتحـدث عن رجعتهم هم إليـه. فهو خالقهم كذلك. ومن حقه أن يعبدوه.

ثم يســتعرض المنهج الآخر المخـــالف للمنهج الفطري المستقيم. فيراه ضـلالا بينا : «أَأَتَّخِـذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَـةً إِنْ يُـرِدْنِ الـرَّحْمنُ بِضُـرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ؟» ..

وهل أضل ممن يدع منطق الفطرة الذي يدعو المخلـــوق إلى عبـــادة خالقه ، وينحـــرف إلى عبادة غير الخالق بدون ضرورة ولا دافع؟ وهل أضل ممن ينحـــــرف عن الخـــــالق إلى آلهة ضـعاف لا يحمونه ولا يـدفعون عنه الضر حين يريد به خالقه الضر بسبب انحرافه وضلاله؟

«إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ» ..

والآن وقد تحـــدث الرجل بلســـان الفطـــرة الصادقة العارفة الواضحة يقـرر قـراره الأخـير في وجه قومه المكذبين المهددين المتوعدين. لأن صـــوت الفطـــرة في قلبه أقـــوى من كل تهديد ومن كل تكـــذيب : «إِنِّي آمَنْتُ بِـــرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ» ..

وهكذا ألقى بكلمة الإيمـان الواثقة المطمئنـة. وأشهدهم عليهـا. وهو يـوحي إليهم أن يقولوها كما قالهـا. أو أنه لا يبـالي بهم مـاذا يقولـون! ويوحي سياق القصة بعد ذلك أنهم لم يمهلـــوه

أن قتلــوه. وإن كــان لا يــذكر شــيئا من هــذا صراحة. إنما يسدل الستار على الدنيا وما فيها ، وعلى القــوم وما هم فيه ويرفعه لــنرى هــذا الشـهيد الـذي جهر بكلمة الحق ، متبعا صـوت الفطـرة ، وقـذف بها في وجـوه من يملكـون التهديد والتنكيل. نراه في العالم الآخر. ونطلع على ما ادخر اللّه له من كرامــة. تليق بمقــام المـؤمن الشـجاع المخلص الشـهيد : «قِيـلَ : ادْخُلِ الْجَنَّةَ. قالَ : يا لَيْتَ قَـوْمِي يَعْلَمُـونَ. بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ» ..

وتتصل الحيـاة الـدنيا بالحيـاة الآخـرة. ونـرى الموت نقلة من عالم الفناء إلى عـالم البقـاء. وخطـوة يخلص بها المـؤمن من ضـيق الأرض إلى ســعة الجنــة. ومن تطــاول الباطل إلى طمأنينة الحــق. ومن تهديد البغي إلى ســلام النعيم. ومن ظلمات الجاهلية إلى نور اليقين.

ونـرى الرجل المـؤمن. وقد اطلع على ما آتـاه اللّه في الجنة من المغفــرة والكرامة ، يــذكر قومه طيب القلب رضي النفس ، يتمــــنى لو يـــراه قومه ويـــرون ما آتــاه ربه من الرضى والكرامة ، ليعرفوا الحق ، معرفة اليقين.[60]

وقال دروزة :

" الآيات معطوفة على سابقاتها والضـمير في وَاضْــرِبْ لَهُمْ عائد إلى الكفــار الــذين حكت الآيـات السـابقة مـوقفهم من الـدعوة كما هو المتبـادر. وهكـذا يكـون هـذا الفصل قد جـاء

[60] - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2961

معقبا على سابقه تعقيب تمثيل وتـذكير ، وفيه توثيق للتأويل الـذي أوّلنـاه للآيـات الـتي حكت موقف الجاحدين والتخمين الذي خمّنّاه بـنزول الفصل السـابق في ظـرف أزمة من أزمـات النبي النفسية لموقف مثير وقفه الكفار.

وعبارة الآيات واضحة لا تقتضي أداء آخر. وقد احتـوت قصة رسل أرسـلهم اللّه إلى إحـدى المدن وموقف أهلها الجحـودي منهم ، سـيقت لسامعي القرآن أو الكـافرين منهم على ما هو المتبادر للتمثيل والتذكير.

وأسـلوب الآية الأولى وفحواها يلهمـان أن المثل الـذي أمر النـبي بضـربه ليس غريبا عن السـامعين وأنهم أو أن منهم من كـان يعرف القصة المذكورة فيه..

وأسلوب الآيـات صـريح في أن المقصـود منها المثل والتذكير والعبرة وهذا هو الهـدف العـام لكل القصص القرآنية الـذي يكـون محكما مؤثرا حينما تكـون القصة المسـاقة مما يعرفه السامعون.

ومما يلحظ أن في حكاية الحـوار بين رسل اللّه وأهل القرية ثم بين أهل القرية والمـؤمن تشابها مع حالة الكفار العرب سـواء فيما كـان من سخفهم وضلالهم في اتخـاذ آلهة غـير اللّه أم في موقفهم من النبي وأقوالهم له في معـرض التكـذيب والجحـود أم في تهديـدهم لرسـلهم بالعـذاب والأذى إذا لم يكفـوا عن دعـوتهم بحيث تبـدو في هـذه الملحوظـات

حكمة المثل وهدفه وهو تذكير الكفـار العـرب بأنهم ليسوا المتفردين في مواقفهم وأقـوالهم وباطل عقائـــــدهم ، وتبكيتهم على ما هم فيه من سـخف وضـلال وعنـاد ، وإنـذارهم بعـذاب اللّه الذي أصاب أمثالهم فجعلهم خامدين دون ما حاجة إلى جنـــود تـــنزل وحـــرب تنشب ، وتطمين النبي بأنه ليس المتفـرّد فيما لقي من كفار قومه وأن له الأسـوة بمن تقدمه من الرسل في الأزمنة القديمة أو الحديثة بالنسبة لزمنه فلا يحـــــزن ولا يغتمّ وأنه ليس عليه إلّا التبليغ والتذكير مثلهم.

وأسلوب حكاية موقف المـؤمن وأقواله لقومه قـــوي أخـــاذ. ســـواء في تبكيته وتســـفيهه للمعاندين أم في إغرائه وتشويقه على الإيمان باللّه وتصديق رسله ومن شأن ذلك أن يحـدث أثرا نافـذا في السـامعين. وهـذا ما اسـتهدفته الحكاية على ما هو المتبـادر. ولعــلّ من أثرها ما روته روايــات الســيرة من تفــاني الرعيل الأول من المسلمين في مكة في نصرة وتأييد النـبي والـذبّ عنه والتعـرّض بسـبب ذلك لصنوف الأذى. وفيها أسوة وحافز على نصـرة الحق والداعين إليه في كل موقف وزمان."[61]

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

1 - لم يــترك اللّه ســبحانه في قرآنه ســبيلا لـدعوة النـاس إلى الإيمـان الصـحيح ، سـواء

[61] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 26)

بالأدلة والـبراهين ، أو بإعمـال الفكر والعقل ، أو بالتأمل والمشاهدة ، أو بضرب الأمثـال ، أو بذكر القصص للعظة والعبرة.
والمراد من بيان قصة أصحاب القرية : توضيح أن النبي أمر بإنـذار المشـركين من قومه ، حـتى لا يحل بهم ما حـلّ بكفـار أهل القرية المبعوث إليهم ثلاثة رسل.
2 - يكـون الرسـول عـادة من جنس المرسل إليهم ، حـتى لا يبـادروا إلى الإعـراض بحجة المغايرة والمخالفة ، فتكـون شـبهة الكـافرين ببشرية الرسل في غـير محلها ، وإنما البـاعث عليها الاعتزاز بـالنفس والاسـتعلاء والاسـتكبار فيما يبدو.
3 - يؤكد الرسل عـادة صـدقهم بـالمعجزات ، التي يؤيـدهم الله بها، فـإن كـذبهم قـومهم،لم يجـدوا سـبيلا إلا التصـريح بمهمتهم بالتحديد ، وهي إبلاغ الرسـالة ، والإعلام الواضح في أن اللّه واحد لا شريك له..
4 - لا يجد المرسل إليهم في العادة ذريعة بعد دحض حجتهم إلا ادّعاء التشاؤم بالرسـل. قـال مقاتل في أصـحاب القرية : حبس عنهم المطر ثلاث سـنين ، فقـالوا : هـذا بشـؤمكم. ويقال : إنهم أقاموا ينذرونهم عشر سنين.
5 - ثم إذا ضـاق الأمر بهم يلجـؤون عـادة إلى التهديد والوعيد إما بالطرد والإبعـاد من البلد ، وإما بالقتل أو الـرجم بالحجـارة. قـال الفـراء في قوله : لَنَـرْجُمَنَّكُمْ : وعامة ما في القـرآن

من الرجم معناه القتل. وقال قتـادة : هو على بابه من الرجم بالحجارة. وقيل : لنشتمنكم.
وأما قوله تعـالى : وَلَيَمَسَّـنَّكُمْ مِنَّا عَـذابٌ أَلِيمٌ فهو إما القتل أي الـرجم بالحجـارة المتقـدم ، وإما التعـــذيب المـــؤلم قبل القتل كالســـلخ والقطع والصلب.
6 - إن الشـــؤم الحقيقي من أهل القرية وهو الشـــرك والكفر وتكـــذيب الرسل ، وليس هو من شــؤم المرســلين ، ولا بســبب تــذكيرهم ووعظهم ، وإنما بسـبب إسـرافهم في الكفر ، وتجاوزهم الحدّ ، والمشرك يجاوز الحدّ.
7 - لا يعــدم الحق في كل زمــان أنصــارا له ، وإن كانوا قلة ، وكـان أهل الباطل كـثرة ، فقد قيض اللّه مؤمنا من أهل القرية جـــاء يعـــدو مسرعا لما سمع بخبر الرسل ، ونـاقش قومه ، ورغبهم وأرهبهم ، ودعـــــاهم إلى توحيد اللّه واتبـاع الرسل ، وتـرك عبـادة الأصـنام ، فـإن الرسل على حق وهدى ، لا يطلبـون مـالا على تبليغ الرســالة ، وهــذا دليل إخلاصــهم وعــدم اتهـامهم بمـأرب دنيـوي ، والخـالق هو الأحق بالعبــادة ، وهو الــذي إليه المرجع والمــآب ، فيحاسب الخلائق على ما قــدموا من خــير أو شر.
أما الأصنام فلا تجلب نفعا ولا تدفع ضررا ، ولا تنقذ أحــدا مما ألمّ به من البلاء ، فمن عبــدها بعدئذ فهو في خسران ظاهر.

8 - ثم صرح مؤمن القرية مخاطبا الرسل بأنه مؤمن باللّه ربهم ، فليشهدوا له بالإيمان.
9 - لقد كان جزاؤه المرتقب من القوم بسبب تصلبه في الدين ، وتشـدده في إظهـار الحق : القتل أو المـوت الـزؤام. وأما جـزاؤه من اللّه فهو التكريم في جنان الخلد.
10 - بـالرغم من هـذا الإيـذاء والتعـذيب أحبّ هـذا المـؤمن ، كشـأن كل مـؤمن ، أن يبـادر قومه إلى الإيمـــان بمثل ما آمن به ، ليحظـــوا بما حظي به من النعيم والنجـــــاة. قــــال ابن عباس : نصح قومه حيّا وميتا.
11 - قــال القرطـــبي : وفي هـــذه الآية تنبيه عظيم ، ودلالة على وجـــــــوب كظم الغيظ ، والحلم عن أهل الجهل ، والــــترؤف على من أدخل نفسه في غمــار الأشــرار وأهل البغي ، والتشـمر في تخليصه ، والتلطف في افتدائه ، والاشتغال بذلك عن الشماتة والدعاء عليه. ألا تــرى كيف تمــنى الخــير لقتلته ، والبــاغين له الغوائل ، وهم كفرة عبدة أصنام [62].

12- أهمية ضرب الأمثال :

" الصورة التي يصورها المثل واضحة مشرقة ، لا ينقصـها أن يفتقد اسم القرية فيها ، ولا أن تغيب أســــماء الرسل ومشخصـــــاتهم . إنها مستغنية عن كل هذا..

وإذا كــــان لا بد من التطلع إلى ما وراء هـــذه الصـــورة ، والنظر إلى موقع القرية من هـــذا

[62] - تفسير القرطبي : 15/ 20

العــالم ، وإلى أشــخاص الرسل من بين رسل اللّه ـــ إذا كـــان لا بد من ذلك ، فليكن النظر مقصـــــورا على كتـــــاب اللّه ، وليكن التطلع محجوزا فى هذه الحدود .. لا يتجاوزها ..
وننظر فى القرآن الكريم فنرى :
أولا : أن القـــرآن الكـــريم ، لم يتحـــدث عن رسولين حملا رسالة واحدة ، إلى جهة واحــدة ، غير موسى وهرون ..
وثانيا : أن هــذين الرســولين الكــريمين ، قد حملا رسالتهما إلى فرعون ..
وثالثا : أنه قد قـــام من قـــوم فرعـــون رجل مؤمن ، خرج على سلطان فرعـون ، وعلى ما كـان عليه قومه من متابعة فرعـون فى كفـره وضلاله.
ورابعا : أن القـرآن الكـريم ، يعقد الصـلة فى أكثر من موضع منه ، بين فرعون ، وبين هؤلاء المشركين من قريش ..فـإذا نظرنا إلى المثل على ضوء هذه الإشارات المضيئة من القــرآن الكريم ، نجد :
أولا : أن قوله تعالى : « إِذْ أَرْسَـلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما » يقبل التأويل ، على أن الرسـولين ، هما موسى ، وهرون ، كما يقـول تعـالى : « اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى » (43 : طه) ..
وثانيا : أن قوله تعـــالى : « فَعَزَّزْنا بِثـــالِثٍ » يقابله فى قصة موسى وهــرون مع فرعــون ، حــديث عظيم فى القــرآن العظيم ، عن رجل لم يكشف القرآن عن اسمه ، وإنما أشـار إلى

أنه من آل فرعون .. أي خاصته ، وذوى قرابته ..

فهو إنسان ذو شأن فى المجتمع الفرعــوني .. ومع هذا لم يكشف القرآن عن اســمه .. إذ ما جـــــدوى الاسم ، فى مقـــــام الــــوزن للقيم الإنســـانية فى النـــاس ؟ إن المعتـــبر هنا هو الصفة لا الموصوف ، وذات المسمّى لا الاسم يقول القرآن الكريم ، عن هذا الرجل المـؤمن : « وَقـالَ رَجُـلٌ مُـؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَـوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَـهُ أَتَقْتُلُـونَ رَجُلًا أَنْ يَقُـولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَـدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْـهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِـدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ يا قَـوْمِ لَكُمُ الْمُلْـكُ الْيَـوْمَ ظـاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَـوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشـادِ وَقالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْـلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعـادٍ وَثَمُـودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيـدُ ظُلْمـاً لِلْعِبـادِ وَيا قَـوْمِ إِنِّي أَخـافُ عَلَيْكُمْ يَـوْمَ التَّنـادِ يَـوْمَ تُوَلُّونَ مُـــدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِـــمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَـهُ مِنْ هـادٍ وَلَقَـدْ جـاءَكُمْ يُوسُـفُ مِنْ قَبْـلُ بِالْبَيِّنـاتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَـكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْـدِهِ رَسُـولًا كَـذلِكَ يُضِـلُّ اللَّهُ مَنْ هُـوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ ... » (28 ـ 34 : المؤمن).

ثم تمضى الآيـات ، فتـذكر دعـوة هـذا الـداعي إلى اللّه .. فيقول سبحانه :« وَقــالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُـونِ أَهْـدِكُمْ سَـبِيلَ الرَّشـادِ يا قَـوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْـزى إِلَّا مِثْلَها وَمَنْ عَمِـلَ صـالِحاً مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْـثى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَـــدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُـــونَ فِيها بِغَيْـــرِ حِســابٍ وَيا قَــوْمِ ما لِي أَدْعُــوكُمْ إِلَى النَّجــاةِ وَتَــــدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَــــدْعُونَنِي لِأَكْفُــــرَ بِاللَّهِ وَأُشْـرِكَ بِـهِ ما لَيْسَ لِي بِـهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُـوكُمْ إِلَى الْعَزِيـزِ الْغَفَّارِ لا جَـرَمَ أَنَّما تَـدْعُونَنِي إِلَيْـهِ لَيْسَ لَـهُ دَعْـوَةٌ فِي الـدُّنْيا وَلا فِي الْآخِـرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْـــرِفِينَ هُمْ أَصْـــحابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقُـولُ لَكُمْ وَأُفَـوِّضُ أَمْـرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِـــيرٌ بِالْعِبـــادِ فَوَقـــاهُ اللَّهُ سَـيِّئاتِ ما مَكَـرُوا وَحـاقَ بِـآلِ فِرْعَـوْنَ سُـوءُ الْعَذابِ » (38 ـ 45 : المؤمن) ..

هـذه دعـوة رجل صـاحب رسـالة .. إنها إن لم تكن على يد رســول ، فهى رســالة رســول ، وحـقّ لصـاحبها أن يـدخل فى زمـرة الرسل .. وهذا هو السر فى التعبـير القـرآنى : « فَعَزَّزْنا بِثـالِثٍ » أي فعززنا الرسـولين بثـالث ، وهـذا يمكن أن يحمل ـ وهو فى إطلاقه كهذا ـــ على محملين ، فيقدّر برسول ثالث ، أو معين ثـالث ، بعد المعين الثاني ، الذي كان معينا للرسـول الأول ، فهو تعزيز بعد تعزيز .. ولقد عــــــزّز

موسى بهــارون ، وكــان هــذا الرجل المــؤمن تعزيزا لهما ..
بقيت مسألة تحتـاج إلى نظر .. وهى أن المثل ذكر مع الرسل الثلاثة ، رجلا ، كـانت له دعــوة إلى اللّه كــدعوة هــؤلاء الرسل ، وأنه جـاء من أقصى المدينة ، وهى القرية الــتي جــاء ذكرها فى أول المثل .. وهـــذا الرجل يكـــاد يكـــون صورة مطابقة لمؤمن آل فرعــون ، الــذي قلنا عنه إنه رســول ، أو حــوارىّ رســول. فمن هو هــذا الرجل ؟ وهل له مكــان فى قصة موسى مع فرعون ؟ .
ونعم ، فإننا نجد فى قصة موسى مع فرعون ، رجلا آخر ، جــاء من أقصى المدينة ، يســعى .. ولكنه فى هذه القصة لم يكشف عن دعــوة له إلى اللّه ، وإنما جاء ناصــحا لموسى ، هاتفا به أن يخــرج من المدينة ، فــإن الملأ يــأتمرون به ليقتلوه ، كما يقول تعالى فى سورة القصص :
« وَجاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قــالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُــوكَ فَــاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ » (آية 20).
ولم تكن للرجل دعـــــــوة إلى اللّه هنا ، لأن موسى لم يكن قد أرسل بعد
وربما كــان الرجل مؤمنا باللّه ، يــدين بالتوحيد عن طريق اليهودية ، أو عن طريق النظر الحرّ .. وعلى أىّ فهو على غير دين فرعــون .. وقد ظل الرجل على إيمانه إلى أن بعث اللّه موسى رسولا ، فلما جاء موسى يدعو فرعون

إلى اللّه ، وعــرض بين يديه تلك المعجــزات ، ازداد الرجل إيمانا ، فأصـــــبح داعية إلى اللّه ، يدعو قومه إلى الإيمان باللّه ..

وعلى هـــــــــذا ، فإننا نجد فى القصة والمثل رجلين :

أحـدهما ، وهو المـؤمن الـذي من آل فرعـون. والذي وقف مع موسى وهرون موقف الداعية إلى اللّه ، وأنه كــان على إيمــان باللّه ، ولكنه كـان يكتم إيمانه خوفا من فرعـون ، فلما رأى أن فرعون يدبّر لقتل موسى ، فزع لهـذا الأمر ، وأعلن إيمانه ، ووقف مع موسى وهـــــرون ، يحاجّ فرعون ، ويجادله ، إذ كان ــ مع إيمانه ــ ذا جاء وسلطان .. إنه من آل فرعون! ..

أما الرجل الآخر ، فهو الذي جـاء إلى موسى ، قبل الرســالة ، وحــذّره مما يــدبر له القــوم ، ونصح له بـالفرار من المدينة ..وبهـذا نـرى أن أحد الـــــرجلين ، خلّص موسى من القتل بعد الرســـالة ، على حين أن الآخر قد خلّصه من القتل أيضا ، ولكن قبل الرسالة ..

ومسألة أخرى ، تحتاج إلى نظر أيضا ..إذا كان هــذان الــرجلان هما المشــار إليهما فى المثل المضــروب ، فى ســورة « يس » باعتبــار أن الرجل الـذي من آل فرعـون هو الرسـول ، أو حوارىّ الرسول ، وأن الآخر هو الذي جــاء من أقصى المدينة ، وقال : يا قوم « اتَّبِعُــوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ الآيات » ــ إذ كـان ذلك كذلك ، فلم نوه القرآن الكريم فى المثل

المضروب بالرجل الآخر ، ولم يـذكر شـيئا عن موقف الرجل الأول ، الذي هو من آل فرعـون ، والـذي قلنا إنه هو الـذي عـزّز به الرسـولان الكريمان ؟ :

والجواب على هذا ـ واللّه أعلم ـ من وجهين :

فـأولا : أنه بحسب مـؤمن آل فرعـون تنويها ، أن يضـاف إلى الرسـولين الكـريمين ، وأن يكـون له المكـــان الثـــالث معهما .. فقد رفع إلى درجة رسول.

وثانيا : وبحســبه شــرفا وتكريما أن تســمى فى القرآن سـورة باسـمه ، هى سـورة « المـؤمن » والتي تسمى « غـافر » أيضا .. أما الرجل الآخر ، فهو الذي جاء إلى موسى ، قبل الرسالة ، وحذّره مما يدبر له القوم ، ونصح له بـالفرار من المدينة ..

وبهـذا نـرى أن أحد الـرجلين ، خلّص موسى من القتل بعد الرسالة ، على حين أن الآخر قد خلّصه من القتل أيضا ، ولكن قبل الرسالة ..

ومسـألة أخـرى ، تحتـاج إلى نظر أيضا ..إذا كـان هـــذان الـــرجلان هما المشـــار إليهما فى المثل المضـــروب ، فى ســـورة « يس » باعتبـــار أن الرجل الـــذي من آل فرعـــون هو الرســـول ، أو حــواريّ الرسـول ، وأن الآخر هو الـذي جـاء من أقصى المدينة ، وقـــال : يا قـــوم « اتَّبِعُـــوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ الآيات » ـ إذ كان ذلك كـــذلك ، فلم نـــوه القـــرآن الكـــريم فى المثل المضـــروب بالرجل الآخر ، ولم يـــذكر شـــيئا عن موقف الرجل الأول ، الـذي هو من آل فرعـون ،

والـــذي قلنا إنه هو الـــذي عـــزّز به الرســـولان الكريمان ؟ :
والجواب على هذا ـ واللّه أعلم ـ من وجهين :
فـأولا : أنه بحسب مـؤمن آل فرعـون تنويها ، أن يضـاف إلى الرسـولين الكـريمين ، وأن يكـون له المكـــــان الثـــــالث معهما .. فقد رفع إلى درجة رسول.
وثانيا : وبحســبه شــرفا وتكريما أن تســمى فى القرآن سـورة باسـمه ، هى سـورة « المـؤمن » والـتي تسـمى « غـافر » أيضا .. وقد ذكـرت فى هـذه السـورة رسـالته كلها ، والـتي قلنا عنها إنها رسالة رسول ..!
هذا ، واللّه أعلم ... "[63]

---

[63] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (11 / 917)

إهلاك مكذبي الرسل

قال تعالى :

ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ
ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ
ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

29 ... صَيْحَةً وَاحِدَةً ... صوتا مهلكا

29 ... خَامِدُونَ ... ميتون

30 ... يَاحَسْرَةً ... يا ويلا ويا تندما (وهذا غاية التألم)

31 ... كَمْ أَهْلَكْنَا ... أهلكنا كثيرا من الأمم

31 ... القُرُون ... الأمم

32 ... وَإِنْ كُـــلٌّ لَمَّا جَمِيـــعٌ ... جميع الأمم السابقة واللاحقة

32 ... مُحْضَـــرُونَ ... ستحضر للحســـاب والجزاء يوم القيامة

المناسبة :

ينتهى المثل الذي ضربه اللّه سبحانه وتعـالى لأصـحاب القرية فى الآية السـابقة على هـذه الآيـات ــ ينتهى بهـذا التعقيب الـذي بـدأت به الآيـات الـتي نحن بين يـديها الآن ، ومن هـذا التعقيب يكـــون المنطلق الـــذي تنطلق فيه الآيـات بعد هـذا ، فتواجه المشـركين الـذين اســتمعوا إلى هـــذا المثل ، وتعـــرض عليهم مشاهد من قـدرة اللّه سـبحانه وتعـالى ، ومن آثار رحمته فى خلقه ، لعلهم يجـدون فى هـذه

المشاهد ، ما يفتح قلوبهم وعقولهم إلى اللّه ، حتى يؤمنوا ، ويلحقـوا بـركب المؤمـنين ، قبل أن تفلت من أيديهم تلك الفرصة السانحة ، ثم لا يكون منهم إلا الحسرة والندم ، ولات ساعة مندم.[64].

التفسير والبيان :

وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِــهِ مِنْ بَعْــدِهِ مِنْ جُنْــدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ "

"هو تعقيب على قوله تعالى على لســان العبد المؤمن : « يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَـرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ »..إنهم لن يعلموا شيئا ، ولو علموا ما آمنوا .. إنهم لا يؤمنون إلا إذا نـــزل عليهم ملائكة من الســـماء ، بعد أن رفضوا الرسل ، لأنهم بشر ، وقــالوا « ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْـزَلَ الـرَّحْمنُ مِنْ شَـيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْــذِبُونَ ». . واللّه ســبحانه لم يرسل إلى قــوم ملائكة حــتى تتحقق أمــنيتهم فيهم ، وما كـــــــان اللّه مرسلا ملائكة إلى هـــــــؤلاء المشركين ، الذين كانوا يقولون : « لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنا ؟ » (21 : الفرقان) ويقولـون : « ما لِهـذَا الرَّسُـولِ يَأْكُـلُ الطَّعـامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْواقِ ؟ لَـوْ لا أُنْـزِلَ إِلَيْـهِ مَلَـكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً » (7 : الفرقان).

وإذن فليمت هـؤلاء المشـركون على شـركهم ،كما مـــــات فرعـــــون وقومه من قبلهم على كفرهم .. وهـذا ما يشـير إليه قوله تعـالى فى

---

[64] - التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع - (12 / 925)

الآية التالية : « إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَـإِذا هُمْ خامِــدُونَ ».. إنها صــيحة المــوت ، الــتي يقضى بها على النّـاس ، مـؤمنهم ، وكـافرهم .."

وهــذا لتحقــير شــأنهم ، فــإن إنــزال الملائكة لعظائم الأمــور ، وهـؤلاء لا يحتـاجون لإهلاكهم جندا من السماء ، بل أهلكناهم بصيحة واحــده ، كما قال تعالى : إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِــدَةً ، فَإِذا هُمْ خامِدُونَ أي ما كان إهلاكهم إلا بصيحة واحدة صـاح بهم جبريل ، فـأهلكهم ، فـإذا هم أموات لا حراك بهم.

وقوله : إِنْ كــــانَتْ أي الأخــــذة أو العقوبة إلا صــيحة واحــدة ، وقوله : واحِــدَةً تأكيد لكــون الأمر هينا عند اللّه ، وقوله : فَإِذا هُمْ خامِــدُونَ فيه إشارة إلى سرعة الهلاك.

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ، ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُـولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ

" يمكن أن يكون هذا نـداء من الحق سـبحانه وتعــــالى للحســــرة ، لتقع على الكــــافرين المكـــذبين برسل اللّه ، وأن تشـــتمل عليهم ، ليــذوقوا عــذاب النــدم ، إلى جــانب العــذاب الجهنمى ، نعـوذ باللّه منهما .. وهـذا ما يشــير إليه سـبحانه فى قوله تعـالى : « لِيَجْعَـلَ اللَّهُ ذلِــــكَ حَسْـــرَةً فِي قُلُـــوبِهِمْ » (156 : آل عمران).

ويمكن أن يكـون ذلك نـداء تعجبيّا من الوجـود كلّه ، لهـذه الحسـرة الـتي تقع على النـاس ،

اســتفظاعا لها ، وإشــفاقا منها أن تمتد ظلاله الكئيبة إلى كل موجود.

وقوله تعالى : « ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كـانُوا بِهِ يَسْـتَهْزِؤُنَ » هو على التقـدير الأول ، تعليل للحســـرة الـــتي ســـاقها اللّه إلى المكـــذبين والضالين .. وهو على التقـدير الثـاني ، جـواب لســـؤال ينطق به لســـان الحـــال ، وهو : أية جناية جناها الناس حتى يساق إليهم هـذا البلاء العظيم ؟

فكـان الجـواب : « ما يَـأْتِيهِمْ مِنْ رَسُـولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ».

وفى وصف النـاس بـأنهم عبـاد ، إشـارة إلى أنهم ـ وهم عباد ـ لم يرعـوا حق العبودية للّه ، بل كفـروا باللّه ، وكـذبوا رسـله ، واسـتهزءوا بهم.والمـراد بالعبـاد ، هم النـاس جميعا على اختلاف أوطانهم ، وأزمانهم ..إنهم هكـذا دأبهم وقليل منهم من يؤمن باللّه ، ويصدّق رسـله .. أما الكثرة منهم ، فهم على هذا الوصف!."

وتنكير حَسْرَةً للتكثير. وسبب التحسر عليهم : أنهم لم يعتبروا بأمثالهم من الأمم الخاليـة. ولا متحسر أصلا في الحقيقة ، إذ المقصـود بيـان أن ذلك وقت طلب الحســرة ، حيث ظهــرت الندامة عند مواجهة العـذاب ومعاينتـه. وقيل : إنها حســرة الملائكة على الكفــار حين كــذبوا الرسل.

ثم أنـــذر اللّه تعـــالى الأجيـــال الحاضـــرة والمستقبلة فقال: « يا حَسْـرَةً عَلَى الْعِبـادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ».
" الخطـاب هناً للمشـركين. وهو تقرير لتلك الحقيقة الـــتي يشـــهدونها عيانا ، وهى أن الهالكين قبلهم من الأمم السـابقة ، كثـيرون ، وقد ذهبـوا وذهبت آثـارهم ، وأنهم لن يرجعـوا مرة أخرى إلى هذه الدنيا .. فلمَ يشتدُّ حـرص هؤلاء المشـركين على دنيـاهم تلك ، الـتي كل ما فيها باطل وقبض الـريح ؟ ألا يفكـرون فى حياة أخرى وراء هذه الحياة ، أبقى ، وأعظم ؟ ".
أي ألم يتعظـــــوا بمن أهلك اللّه قبلهم من المكذبين للرسل كعـاد وثمـود ، وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا ، خلافا لما يزعم الدّهرية الـذين يعتقـدون جهلا منهم أنهم يعـودون إلى الـدنيا كما كـــانوا فيها ، كما حكى اللّه تعـــالى عنهم بقوله : وَقـالُوا : ما هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الـدُّنْيا نَمُـوتُ وَنَحْيا ، وَما يُهْلِكُنا إِلَّا الــــدَّهْرُ .. [الجاثية 45/ 24].
ثم أعلمهم أيضا بوجود الحسـاب والعقـاب في الآخرة بعد عذاب الدنيا ، فقال تعـالى : « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ ».
"« إن » هنا نافية بمعـــنى « ما » و« لما » بمعنى إلّا ، أي ما كلّ إلا جميع محضرون لـدنيا .. وهذا مثل قوله تعـالى : « إِنْ كُـلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْها حافِظٌ ». والمعنى ، أنه إذا كانت القرون

الكثـيرة الـتي هلكت لم ترجع إلى الـدنيا مـرة أخرى. فإن لها رجعة إلى اللّه .. وحضــورا بين يديه .. فكل من هلك من الناس راجع إلى اللّه ، للمساءلة ، والجزاء ..

وفى قوله تعالى : « مُحْضَرُونَ » ـ إشارة إلى أن هناك قوة تستدعيهم للحضور بين يدى اللّه ، وأن ذلك ليس عن اختيــار منهم ، ولو كــان ذلك كذلك لكان للكافرين وأهل الضلال مهرب إلى عــالم الفنــاء الأبــدي ، حيث يــذهبون ولا يعودون ، كي يفلتوا من العذاب الأليم.

وإذا كان الحديث هنا عن المجرمين ، فقد كان قوله : « مُحْضَـرُونَ » مناسـبا لحـالهم ، الـتي هم فيها ، والتي يمنون النفس بأن لارجعة إلى حيـاة بعد المـوت ، كما يقولـون : « إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الــــدُّنْيا وَما نَحْنُ بِمَبْعُـــــوثِينَ » (29. الأنعام).

أما إذا كـان الحـديث عامّا إلى النـاس جميعا ، مؤمنين وكافرين ، فأكثر ما يجىء الحديث عن البعث بالرجعة إلى اللّه ، كما يقـول سـبحانه : « إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى » (8 : العلق).

وكما يقول سـبحانه : « كُـلٌّ إِلَيْنا راجِعُـونَ » (93 : الأنبيـاء) .. والرجـوع هنا ، هو عـودة إلى المبـدأ الـذي بـدأت منه رحلة الحيـاة .. حيث كانت الحياة من عند اللّه ، ثم رجعت إليه .."

وهذا دليل على أنه ليس من أهلكه اللّه تركه ، بل بعـده جمع وحسـاب ، وحبس وعقـاب ولو

أن من أهلك ترك لكان الموت راحة ، كما قال القائل :

ولو أنا إذا متنا تُركنا لكانَ المَوْتُ راحَةَ كُلِّ حَيِّ

ولكنا إذا متنا بُعثنا ونُسأل بعد ذا عن كل شي[65]

ومضات

فأما الطغيـان فكـان أهـون على اللّه من أن يرسل عليه الملائكة لتـدمره. فهو ضـعيف ضعيف : «وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِـهِ مِنْ بَعْـدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ. وَما كُنَّا مُنْـزِلِينَ. إِنْ كـانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ»

ولا يطيل هنا في وصف مصـرع القـوم ، تهوينا لشـأنهم ، وتصـغيرا لقـدرهم. فما كـانت إلا صـيحة واحـدة أخمـدت أنفاسـهم .. ويسـدل الستار على مشهدهم البائس المهين الذليل!

بعد الحديث في الدرس الأول عن المشـركين الذين واجهوا دعـوة الإسـلام بالتكـذيب والمثل الـذي ضـربه لهم في قصة أصـحاب القرية المكـذبين وما انتهى إليه أمـرهم «فَـإِذا هُمْ خامِـدُونَ» .. يبـدأ الحـديث في هـذا الـدرس بـالتعميم في موقف المكـذبين بكل ملة ودين ويعـرض صـورة البشـرية الضـالة على مـدار القرون ، وينادي على العباد نداء الحسرة وهم

[65] - جميع دواوين الشعر العربى على مر العصور ـ محتويات موقع أدب - (12 / 167) والمحاسن والمساوئ - (1 / 144) وصـيد الخـاطر - (1 /ـ 57) ونفح الطيب من غصن الأنـدلس الرطيب - (6 / 326)

لا يتعظون بمصارع الهـالكين ، الـذين يـذهبون أمامهم ولا يرجعون إلا يوم الـدين : «وَإِنْ كُـلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» ..
ثم يأخذ في اســتعراض الآيــات الكونية الــتي يمرون عليها معرضين غافلين وهي مبثوثة في أنفسهم وفيما حولهم وفي تـاريخهم القـديم .. وهم مع هذا لا يشعرون وإذا ذكروا لا يــذكرون : «وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَـةٍ مِنْ آيـاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كـانُوا عَنْها مُعْرِضِــينَ» .. وهم يســتعجلون بالعــذاب غير مصدقين : «وَيَقُولُونَ : مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» وبمناسبة الاستعجال والتكذيب يسـتعرض مشـهدا مطـولا من مشـاهد القيامة يرون فيه مصيرهم الـذي به يسـتعجلون ، كأنه حاضر تراه العيون.
«يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبـادِ! ما يَـأْتِيهِمْ مِنْ رَسُــولٍ إِلَّا كــانُوا بِــهِ يَسْــتَهْزِؤُنَ. أَلَمْ يَــرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُـونَ؟ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» ..
والحسرة انفعـال نفسي على حـال مؤسـفة لا يملك الإنسـان شـيئا حيالها ، سـوى أن يتحسر وتألم نفسه. واللّه سبحانه وتعــالى - لا يتحسر على العبـاد ولكنه يقـرر أن حالة هـؤلاء العبـاد مما يسـتحق حسـرة المتحسـرين! فهي حـال بائسة مؤسـفة تنتهي بأصـحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم! يا حســرة على العبــاد تتــاح لهم فرصة النجـــاة فيعرضـــون عنها ، وأمـــامهم مصارع الهالكين قبلهم لا يتدبرونها ولا ينتفعون

بهـــا. ويفتح اللّه لهم أبـــواب رحمته بإرســـال الرسل إليهم الحين بعد الحين ولكنهم يتجــافون أبــواب الرحمة ويســيئون الأدب مع اللّه : «ما يَــأْتِيهِمْ مِنْ رَسُـــولٍ إِلَّا كــانُوا بِــهِ يَسْتَهْزِؤُنَ» ..
«أَلَمْ يَــرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُــرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ» ..
ولقد كــــان في هلاك الأولين الـــــذاهبين لا يرجعون ، على مدار السنين وتطاول القـرون. لقد كان في هذا عظة لمن يتدبر. ولكن العبـاد البائســين لا يتـدبرون. وهم صـائرون إلى ذات المصـير. فأية حالة تـدعو إلى الحسـرة كهـذا الحال الأسيف؟! إن الحيوان ليرجف حين يرى مصرع أخيه أمامه ويحـاول أن يتوقـاه قـدر ما يستطيع. فما بـال الإنسـان يـرى المصـارع تلو المصارع ، ثم يسير مندفعا في ذات الطريـق؟ والغـــرور يملي له ويخدعه عن رؤية المصـــير المطــروق! وهــذا الخط الطويل من مصــارع القــرون معــروض على الأنظــار ولكن العبــاد كــأنهم عمي لا يبصــرون! وإذا كــان الهــالكون الذاهبون لا يرجعون إلى خلفائهم المتــأخرين ، فإنهم ليسوا بمتروكين ولا مفلتين من حســاب اللّه بعد حين ..«وَإِنْ كُــلٌّ لَمَّا جَمِيـــعٌ لَـــدَيْنا مُحْضَرُونَ» ..[66]

وقــال دروزة : " الآيــات متصــلة بالســياق السابق اتصالا تعقيبيا كما هو المتبــادر. وهو ما

[66] - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2964

جرى عليه النظم القرآني عقب القصـص. وقد احتــوت تنديــدا بالنــاس الــذين لا تــؤثر فيهم المواعظ والأمثـــال وما كـــان من إهلاك اللّه للأقـوام السـابقة فيقفـون من رسل اللّه كلما جــاء رســول موقف الاســتهزاء والتكــذيب. وتوكيـدا بـأن النـاس جميعهم محضـرون أمـام اللّه ومجزيون عن أعمالهم.

والتعقيب مؤثر نافذ كما هو واضح."[67]

ما ترشد إليه الآيات

دلت الآيات على ما يأتي :

1 - إن تكــذيب الرسل ما جــاؤوا به من الحق يستدعي مزيد الألم والندامة والحسرة.

2 - لا رجعة لأحد إلى الـــدنيا بعد المـــوت أو الإهلاك.

3 - إن يــوم القيامة يــوم الجــزاء والحســاب والثواب والعقاب الدائم.

4- مظــاهر قــدرة الله تعــالى في إهلاك أهل أنطاكية بصيحة واحدة .

5- إبــداء التحسر على العبــاد من أنفســهم إذ هم الظـــالمون المكـــذبون فالحســـرة منهم وعليهم .

6- حرمة الاســتهزاء بما هو من حرمــات الله تعالى التي يجب تعظيمها .

7- طلب العبرة من أخبار الماضين وأحوالهم ، والعاقل من اعتبر بغيره .[68]

[67] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 28)

[68] - انظر أيسر التفاسير للجزائري - (3 / 354)

أدلة القدرة الإلهية على البعث وغيره

قال تعالى :

ڈ ڙ ڙ ڙ ڑ ڑ ک ڪ ګ ڬ ڭ ڮ گ ڰ ڱ ڲ ڳ ڴ ڵ ڶ ڷ

ڸ ڹ ں ڻ ڼ ڽ ھ ڿ ۀ ہ ۂ ۃ ۄ ۅ ۆ ۇ ۈ ۉ ۊ ۋ ی ۍ

ێ ۏ ې ۑ ے ۓ ۔ ە ۖ ۗ ۘ ۙ ۚ ۛ ۜ ۝ ۞ ۟ ۠ ۡ ۢ ۣ

ۤ ۥ ۦ ۧ ۨ ۩ ۪ ۫ ۬ ۭ ۮ ۯ ۰ ۱ ۲ ۳ ۴ ۵ ۶ ۷ ۸ ۹

ۺ ۻ ۼ ۽ ۾ ۿ ې ې ى ى ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ٿ ٿ ٺ ٺ ٽ ٽ

ٿ ٿ ٹ ٹ ٺ ٺ ٽ ٽ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڦ ڦ

ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

33 ... وَآيَـــــةٌ لَهُمُ ... دلالة لهم على إحيـــــاء الموتى

34 ... فَجَّرْنَا فِيهَا ... شــقننا الأرض بـــالعيون السارحة (الأنهار)

35 ... وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِم ... غرسوه ونصبوه

36 ... خَلَـقَ الأَزْوَاجَ ... خلق الأصـناف الـذكر والأنثى

36 ... وَمِمَّا لايَعْلَمُونَ ... من مخلوقـات شـتى لا يعرفونها

37 ... نَسْـلَخُ ... نزيل النهـار عن الليل - نزيل الضـــوء من مكانه (الليل هو الأصل والنهـــار عارض)

38 ... لِمُسْـــــتَقَرٍّ لَهَا ... لأجل لها لا تعـــــدوه (حين تطلع الشمس من مغربها)

39 ... قَـدَّرْنَاهُ مَنَـازِلَ ... قـدر سـيره منـازل ومسافات

39 ... العُرْجُونِ القَــدِيمِ ... أصل العنقــود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى
40 ... فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ... يــدورون في فلك السماء
41 ... حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ... أولاد قوم نوح
41 ... فِي الفُلْـكِ المَشْـحُونِ ... في الســفينة المملوءة (سفينة نوح)
42 ... وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِّثْلِـهِ ... الســفن جعلت من بعد سفينة نوح على مثلها
43 ... فِلاَ صَــــرِيخَ لَهُمْ ... فلا مغيث لهم من الغرق

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعـــالى ما يـــدل على الحشر بإحضار جميع الأمم إليه يـوم القيامة للحسـاب والجـــزاء ، ذكر ما يـــدل على إمكـــان البعث بإنبــات النبــات من الأرض الجــدباء بــالمطر ، وإيجاد البساتين وتفجير الأنهـار ، لتوفـير سـبل المعاش بها ، مما يستدعي شــكرهم على تلك النعم.

وبعد بيــان أحــوال الأرض الــتي هي المكــان الكلي ، ذكر أربع آيـــــــــات دالة على قدرته العظيمة من أحــــوال الأزمنة ، وهي تعــــاقب الليل والنهـــار ، ودوران الشـــمس ، ومســـير القمر في منازله ، وتخصــيص مــدار مســتقل لكل من الشمس والقمر.

ثم أردف ذلك بـــدليل آخر دال على القـــدرة المقترنة بالرحمة وهو تنقل الأولاد والأجيـــال في السفن العابرة مياه البحار.[69]

التفسير والبيان :

قوله تعالى :« وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَـةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ».

" أي ومن الأدلة على قدرتنا على البعث إحياء الأرض الهامدة التي لا نبات فيها بإنزالنا المــاء عليها ، فتهـــتز وتربو وتنبت نباتا مختلفا ألوانه وأشكاله ، وتخرج حبا هو قوت لكم ولأنعـامكم ، وبه قوام حياتكم."

"وهذا شاهد يشهد للمكذبين بالبعث ، بأنه أمر ممكن ، وإن إنكـــارهم له يقـــوم على فهم خاطئ لقدرة اللّه .. فلو أنهم نظروا إلى هــذه الأرض الميتة ، وكيف يحـــــيى اللّه مواتها ، ويبعث فيها الحياة ، ويخرج من أحشائها صـورا لا حصر لها من الكائنات الحية ـ لو نظـروا إلى هذا لـرأوا أن بعث الأجسـاد الهامـدة لا يختلف فى شـــىء ، عن بعث الحيـــاة فى الأرض الجديب.

وقوله تعــالى : « وَآيَــةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَــةُ » مبتدأ وخبر ، وقدم الخبر « آية » على المبتـدأ « الأرض » للإلفـــات إليه ، لأنه الآية المــــراد النظر فى وجهها ، وأصل النظم : « والأرض الميتة آية لهم » وقوله تعـــــالى : « أَحْيَيْناها

---

[69] - انظر تفسير الشيخ المراغى ـ موافقا للمطبـوع - (23 / 6)

وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْـهُ يَـأْكُلُونَ » هو بـدل من الأرض الميتة .. وهو بيان لها ، يكشف عما فى كيـان هـذه الآية الـتي تخـرج من الأرض .. والحبّ ، هو ما يخرج من نبات البرّ ، والشـعير والأرز ، ونحوها.."
قوله تعـالى:« وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيـلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ » أي وأوجـدنا في الأرض التي أحييناها بسـاتين مشـجرة من نخيل وأعنـاب وغيرها ، وجعلنا فيها أنهـارا موزعة في أمـاكن مختلفة ، يحتـاجون إليهـا. وخصص النخيل والأعناب بالذكر من بين سائر الفواكه ، لأن ألذ المطعوم الحلاوة ، وهي فيها أتم ، ولأن التمر والعنب قـوت وفاكهة خلافا لغيرهما ، ولأنهما أعم نفعا.
قوله تعـالى : « لِيَـأْكُلُوا مِنْ ثَمَـرِهِ وَما عَمِلَتْـهُ أَيْـدِيهِمْ أَفَلا يَشْـكُرُونَ » أي إن القصد من إنشاء الحب والجنات أن يأكل المخلوقـون من ثمر المـذكور من النخيل والأعنـاب ، ويـأكلوا مما صنعته أيديهم من تلك الغراس والزروع أو الحبوب والثمار ،كالعصـير والـدبس ونحوهما ، وما ذاك كله إلا من رحمة اللّه تعـالى بهم ، لا بقدرتهم وقوتهم ، فهلا يشـكرونه على ما أنعم به عليهم من هـذه النعم الـتي لا تعد ولا تحصـى؟! وهـذا أمر بالشـكر من طريق إنكـار تركه.
" يمكن أن تكـون اللام فى قوله تعـالى : « لِيَـأْكُلُوا » للتعليل ، أي أحيينا الأرض ، وأنبتنا

فيها جنــات من نخيل وأعنــاب ، ليكــون ذلك نعمة من نعمنا عليهم ، لحفظ حيـاتهم ، بالأكل من ثمرات هذه الجنات ..

ويمكن أن تكــون اللام للأمر ، وفى هــذا الأمر دعــوة لهم إلى الأكل من تلك المائــدة الــتي مــدها اللّه للعبــاد ، وجعل عليها ما تشــتهي الأنفس من طيبـات ــ وفي هـذا الأمر إلفـات لهم إلى هذا الإحســان ، وذلك الفضل من اللّه ، وإلى ما ينبغى للّه من شــكر وحمد ، وهــذا مثل قوله تعــالى : « الَّذِي جَعَــلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّــماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِـهِ أَزْواجـاً مِنْ نَبـاتٍ شَـتَّى كُلُـوا وَارْعَـوْا أَنْعـامَكُمْ .. إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآيـاتٍ لِأُولِي النُّهى » (53 ـ 54 : طه) والضمير فى ثمره ، يعــــود إلى النخيل ، لأنه المقــــدم رتبة على العنب ، وهو أكثر أنواعا وألوانا منه ، فلا يعــدو أن يكـون العنب لونا من ألـوان الثمر ــ وقوله تعالى : « وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ » يمكن أن تكـون الجملة معطوفة على قوله تعــــــالى : « مِنْ ثَمَرِهِ » أي ليأكلوا من ثمـره من غـير صـنعة ، وليــأكلوا ما عملته أيــديهم من هــذا الثمر ، وصنعته ..

ويمكن أن تكــون الجملة حالية ، والــواو واو الحـال ، وما نافية .. ويكـون المعـنى ، ليـأكلوا من ثمر هــذا الشــجر ، والحــال أنه لم تعمله أيــديهم ، ولم يكن فى قــدرتهم أن يخرجــوا

شــجرة منه ، أو أن يصــنعوا ثمــرة من هــذا الشجر."

وقوله مِنْ ثَمَــــرِهِ عائد إلى ما ذكر قبل ذلك ، وقــال الــرازي : المشــهور أنه عائد إلى اللّــه.

وقوله : وَما عَمِلَتْــهُ أَيْــدِيهِمْ يشــمل في رأي الرازي الزراعة والتجارة.

ولما أمــرهم تعــالى بالشــكر ، وشــكر اللّه بالعبادة ، نبّه إلى أنهم لم يقتنعوا بــالترك ، بل عبدوا غيره ، وأتوا بالشرك ، فقــال: «سُـبْحانَ الَّذِي خَلَــقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ »

" هو تسبيح بحمد اللّه ، وتنزيه له عن الشريك والولد ، وتمجيد لجلاله وقدرته .. وهذا التسبيح والحمد ، بلسان الوجـود كلـه. وأنه إذا خرست ألسـنة الضـالين والمكـذبين أن يسـبحوا بحمد اللّه ، وأن ينزهوه ويمجدوه ، فإن الوجــود كلّه لســــان تســــبيح ، وتنزيه ، وتمجيد للّه رب العالمين : « الَّذِي خَلَـقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِــــهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُــــونَ » فالمخلوقــــات كلها من أزواج ، هى الــــذكر والأنـثى .. كما فى عـالم الأحيـاء من حيـوان ، ونبات ، وهى الشـيء ومقابله ، كما فى عـالم المعاني. كالصدق والكـذب ، والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والضلال والهدى ... "

والخلاصة : أن خــالق هــذا الخلق العظيم من إنسان وحيوان ونبـات وخـالق أشـياء لا نعلمها مــنزه عن الشــريك والنظــير ، قــادر على كل

شـــــيء ، وفي الآية الأمر بالتنزيه عما لا يليق باللّه تعــــالى ، كــــالأمر بالشــــكر في الآية المتقدمة.

وبعد الاســتدلال على إمكــان البعث والحشر بأحوال الأرض المكانية ، ذكر تعالى أدلة أربعة من أحوال الأزمنة ، فقال :

1 -« وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهـارَ فَـإِذا هُمْ مُظْلِمُـونَ » وسـلخ النهـار من الليل ، كشـطه عنه ، وإزالة القشـرة النورانية الـتي تكسـوه ، كما يكسو الجلد الحيوان .. فـإذا سـلخت هـذه القشرة النورانية عن كيـان الكائنـات ، سـادها الظلام ..وفى قوله تعالى : « نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ » ـ إشـارة إلى حركة انسـحاب النـور ، بحركة الأرض ، ودورانها حــول الشــمس ، فينســلخ النور شيئا فشيئا عن الأماكن الـتي تطلع عليها الشمس ،وذلك كما يسلخ الجلد عن الحيوان ، شيئا فشيئا . لا دفعة واحدة .."

أي ومن أدلة قدرته تعــالى العظيمة : خلق الليل والنهـار ،وتعـاقب الليل والنهـار دائـبين ، فينزع النهـار من الليل فيـأتي بالضـوء وتـذهب الظلمة ، ويــنزع الليل من النهــار ، فيصــبح الخلق في ظلمة ويــذهب الضــوء ، وهكــذا يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هـذا ، كما قـال تعـالى : يُغْشِـي اللَّيْـلَ النَّهـارَ يَطْلُبُـهُ حَثِيثـاً [الأعـراف 7/ـ 54] نتيجة لـدوران الأرض حـول محورها من الغـرب إلى الشرق ، فتشـرق الشـمس على نصف الكـرة

الأرضــية ، وتغيب عن النصف الآخر ، وفي كل من الظلمة والنـــور نفع وخـــير ، ففي الظلام ترك العمل وسكون النفس والراحة من العناء ، وفي النور متعة ولذة وحركة وعمل من أجل كسب الرزق.

وقوله فَـــإِذا هُمْ مُظْلِمُـــونَ أي داخلـــون في الظلام ، وإذا للمفاجـأة ، أي فهم داخلـون في الظلمة مفاجأة وبغتة ، لا يد لهم بعدئذ ، ولا بد من الدخول فيه.

"وفيه إشـارة إلى أن كل إنسـان يكتسـي من النور حلة ، فإذا سلخت عنه صار جسما معتما مظلما ، وأصبح قطعة من هذا الظلام ، تجتمع قطعه بعضها إلى بعض ، فإذا هى الليل .."

2 - «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِـكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ »

" فهذه الشمس تسـير في مـدار محـدود لها ، وتتحــرك فى فلك لا تتعــداه ولا تخــرج عنه .. وذلك بتقدير « العزيز » ذي العزة والســلطان « العليم » الذي تجرى أحكامه ومقاديره بعلم نافذ إلى كل شـــيء ، متمكن من كل كبـــيرة وصغيرة فى هذا الوجود.وجريان الشمس ، هو حركتها فى فلكها المرســوم لهــا. وهى تقطع دورة هذا الفلك فى سنة كاملة ، وفى ســرعة مذهلة."

أي وآية مســـتقلة دالة على قدرته تعـــالى : دوران الشـمس في فلكها إلى نهاية مـدارها ، وذلك الـدوران تقـدير من اللّه القـاهر الغـالب

كل شـيء ، المحيط علمه بكل شـيء. وهنـاك قولان للمفسرين في تفسير المستقر :
الأول - أن المــراد مســتقرها المكــاني وهو تحت العرش مما يلي الأرض من ذلك الجـانب ، وهي أينما كــانت فهي وجميع المخلوقــات تحت العرش.
والثاني - أن المـراد مسـتقرها الزمـاني وهو منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة[70].
وقد أثبت علمــاء الفلك أنه زيــادة على دوران الشمس الظاهري وسط النجوم بسبب دوران الأرض حــول الشــمس مــرة في الســنة ، للشمس حركتان أخريـان: دورة حـول محورها مــــرة في كل ست وعشـــرين يوما تقريبا ، ودورة مع توابعها من الكواكب السـيارة حـول مركز النظــام النجــومي بســرعة تقــدر بنحو مــائتي ميل في الثانيــة. والمســتقر في رأي العلماء في الحالة الأولى : هو المحور الثابت ، وفي الثانية : هو مركز النظـــام النجـــومي بأسره.
3 - « وَالْقَمَـــرَ قَـــدَّرْناهُ مَنـــازِلَ حَتَّى عـــادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ »
" أي أن القمر يأخذ كل ليلة مــنزلا من الأرض ، على مدى شـهر قمـرى ، ففى أوسط منازله يبدو قمرا منيرا ، يغمر نور الشمس وجهه كله المواجه للأرض ، المتوســـــــطة بينه وبين الشــمس ، فــيرى بــدرا كــاملا ، ثم يرجع إلى

---

[70] - تفسير ابن كثير : 3/ 571 وما بعدها.

الـوراء منزلة كل ليلة ، وذلك لبطء دورانه عن دوران الأرض ، فيقـــلّ مع كل ليلة أو منزلة ، الوجه المقابل منه للشـمس ، ويظل يتنـاقص شـيئا فشـيئا مـدة نصف شـهر قمـرى ، حـتى يكـــون وجهه المواجه للأرض متوســطا بين الأرض والشـمس ، وهنا يكـون وجهه المواجه للشـمس مضـيئا بضـوئها ، على حين يكـون وجهه المواجه للأرض معتما ، فإذا نـزل منزلته فى آخر ليلة لم ير من وجهه شـىء ، وسـمى محاقا ، لأن نوره الذي كان يبـدو منه قد محق .. ثم يبـدأ يولد من جديد .. فـإذا كـانت الليلة الأولى أو المنزلة الأولى لمولـــده ، لم ير منه إلا قوس صغير ، أشبه بقلامة الظّفر ، ويسمى هلالا ، غـــائرا فى الشـــفق ، فيختلط الضـــوء القليل الذي يبدو منه بحمرة الشـفق ، فيكـون له تلك الصورة التي صورها له القرآن الكـريم أدق تصـوير وأروعه ، حين شـبهه بـالعرجون القديم ..

والعرجـون ، هو عـذق النخلة ، الـذي يحمل التمر ، ومنه تتدلى عناقيد التمر ، ولونه أصـفر ، فإذا جفّ ، وطال عليه الزمن تقـوس شـكله وصار لونه ضاربا إلى الحمرة الداكنة .. وهـذه التحركـات والتغـيرات الـتي تظهر على وجه القمر ليلة بعد ليلة ، جـــديرة بـــأن تســتثير التفكـير والتأمل ، وأن تـدعو العقل إلى النظر فيما وراء هـذه المنظر الظـاهر للقمر ، إلى وضعه فى المجموعة الشمسـية ، وإلى صـلته

بالأرض ، وإلى إمكان الوصــول إليه ، ولو على سـبيل الفـرض أولا ، ثم اتخـاذ الأسـباب الـتي يمكن تحقيق هــذا الفــرض بها .. إن الملاحظة للشـــىء ، هى الطريق الطــبيعي للكشف عن حقيقته .. وليس مثل هذا العرض الذي عرضه القــــرآن الكــــريم للقمر داعية إلى الملاحظة والتأمل ، لو أن ذلك وجد همما متطلعة ، وعزائم جادة ..!!"

أي جعل اللّه للقمر منـازل يسـير فيها سـيرا آخر ، وهي ثمانية وعشـــرون مـــنزلا ذكرناها ، ينزل كل ليلة في واحد منها بمعــدل 13 درجة في اليــوم ، ثم يسـتتر ليلـتين إن كـان الشـهر ثلاثين يوما ، وليلة واحـــدة إن كـــان تســـعة وعشرين يوما ، فإذا صار القمر في آخرها دق وصغر واصفر وتقوس ، وعاد إلى أولها ، حـتى صــار كــالعرجون القــديم : وهو الغصن الــذي عليه طلع النخلة ، وهو أصـفر عـريض يعـوجّ ، ويقطع منه الشـــــــماريخ ، يبقى على النخل يابسا.

ويسـتدل بمنـازل القمر على مضي الشـهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهــار ، كما قال عز وجل : يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ، قُلْ : هِيَ مَواقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ [البقرة 2/ 189] وقال تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً ، وَالْقَمَـرَ نُـوراً ، وَقَـدَّرَهُ مَنـازِلَ لِتَعْلَمُـوا عَـدَدَ السِّـنِينَ وَالْحِسابَ [يونس 10/ 5] وقال تبارك وتعالى : وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْـلِ

، وَجَعَلْنا آيَـةَ النَّهـارِ مُبْصِـرَةً لِتَبْتَغُـوا فَضْـلًا مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ، وَكُـلَّ شَـيْءٍ فَصَّـلْناهُ تَفْصِـيلًا [الإسـراء 17/ـ 12].
والشمس تطلع كل يوم ، وتغـرب في آخـره ، ولكن تنتقل في مطالعها ومغاربها صيفا وشتاء ، يطول بسبب ذلك النهـار ، ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهـار. وأما القمر فقـدره منــازل يطلع في أول ليلة من الشــهر ضــئيلا قليل النـور ، ثم يـزداد نـورا في الليلة الثانية ، ويرتفع منزلة ، ثم كلما ارتفع ازداد ضــــــياء مقتبسا من الشمس ، حــتى يتكامل في الليلة الرابعة عشرة ، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشــهر ، حــتى يصــير كــالعرجون القــديم - عرجون النخل.
وعلماء الفلك قسـموا النجـوم الـتي تقع حـول مـدار القمر ثمانيا وعشـرين مجموعة تسـمى منـازل القمـر. وقد كـان العـرب يعرفـون بها الأنواء (أي الأمطار) ، ويقيسـون بالنسـبة إليها مواقع الكواكب السيارة ومنها الشمس.
4 - « لَا الشَّـمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُـدْرِكَ الْقَمَـرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَـكٍ يَسْـبَحُونَ »
" أي أن من قدرة اللّه سـبحانه وتعـالى ، ومن إحكام علمه ، أن أجـرى هـذه العـوالم بعلمه ، وسـخّرها بقدرته ، وأقامها على نظـام محكم ، وأجراها فى مجــار لا تتعــداها .. فلا يصــطدم بعضها ببعض ، ولا يأخذ بعضها من بعض وضـعا

غير الذي أقامه اللّه فيه .. فلا الشــمس ينبغى لها أن تدرك القمر. فهى مع ســرعتها المذهلة ، الــتي تبلغ ألــوف المــرّات بالنســبة لســرعة القمر فإنها لا تدركه ..فهى لها فلك تدور فيه ، كما للقمر فلكه الذي يدور فيه ..

وكما أن الشمس لا تدرك القمر ، كـذلك الليل لا يســـبق النهـــار ، إنهما يجريـــان بحيث يتبع أحـدهما الآخر ، دون أن يسـبقه .. « وَكُـلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » ، .

وجعل الليل وراء النهار ، لأن النهار أسـبق من الليل هى دورة الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشـــرق .. فـــالأرض فى دورانها حـــول نفسـها من الغـرب إلى الشـرق ، إنما تجـرى نحو النـور ، ومن وراء النـور الظلام .. فـالنور دائما أمـــــــام الظلام ، وهما معا فى حركة وجريـــان. فالآية الكريمة تشـــير إلى حركة الأرض وإلى دورانها حـول نفسـها من الغـرب إلى الشرق

واسـتعمل مع هـذه العـوالم ضـمير العقلاء ــ إشارة إلى هذا النظــام المحكم الممسك بها ، والذي يقيمها على طريق مســتقيم ، كما يقيم العقل السليم صـاحبه على طريق مسـتقيم .. "

أي لا يصح ولا يسهل لكل من الشمس والقمر أن يدرك أحدهما الآخر ، لأن لكل منهما مـدارا مســـــــتقلا ، لا يجتمع مع الآخر فيه ، ولأن

الشمس تسير مقدار درجة في اليوم ، والقمر يسير مقدار (13) درجة في اليوم.
ولا تسبق آية الليل وهي القمر آية النهـار وهي الشــمس ، لأن لكل منهما مجــالا وســلطانا ، فسلطان الشمس ومجالها بالنهـار ، وسـلطان القمر بالليل.
وكل من الشمس والقمر والأرض يسبح ويدور في فلكه في السماء ، كما يسبح الســمك في المــاء ، فالشــمس تســير في مــدار لها نصف قطــــره (93) مليـــون ميل ، وتتم دورتها في سنة ، والقمر يدور حـول الأرض كل شـهر في مــدار نصف قطــره (24) ألف ميل ، والأرض تدور حول الشـمس في سـنة ، وحـول نفسـها في يوم وليلة.
وهـــــــــذا دليل على أن اللّه جعل لكل من الشمس والقمر والأرض مـدارا مسـتقلا يـدور فيه ، فلا يحجب أحــدهما ضــوء الآخر إلا نــادرا حينما يحــدث كســوف الشــمس أو خســوف القمر.
وبعد بيـان الـدليل المكـاني وهو الأرض والأدلة الزمنية الأربعة المتقدمة ، أتى تعــالى بــدليل آخر على قدرته ، وهو تســـيير الإنســــان في البحر كما يسـير في الــبر ، كما قـال تعـالى : وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ [الإسـراء 17/ـ 70] وقـــال هنا : « وَآيَـــةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْـــكِ الْمَشْـــحُونِ ». أي ومن دلائل قدرته ورحمته تبارك وتعالى : تسـخيره البحر ليحمل

السـفن ، وركـــوب الذرية ، أي الأولاد في السـفن المملـوءة بالبضـائع الـتي ينقلونها من بلد إلى آخر ، لتوفـير القـوت والمعـاش ،كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْـرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ ، لِيُـرِيَكُمْ مِنْ آياتِـهِ ، إِنَّ فِي ذلِـكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ [لقمان 31/ 31].

وقيل : الذرية : آباؤهم الذين حملوا في سفينة نـوح عليه السـلام ، وهي السـفينة المملـوءة بالأمتعة والحيوانات الـتي أمـره اللّه تعـالى أن يحمل فيها من كل زوجين اثـنين ، حفاظا على أصـول المخلوقـات. والمعـنى : أن اللّه حمل آباء هؤلاء وأجدادهم في سفينة نوح.

"" وفى الإشارة إلى حمل ذريـاتهم دون حمل آبـــائهم إلفـــات إلى ما تحمل الفلك لهم من فلـــذات أكبـــاد ، ونفـــائس أمـــوال وأمتعة ، فتحفظها ، وتصل بها إلى غايتها .. وفى هذا ما يـريهم فضل اللّه عليهم ، وإحسـانه بهم ، فقد لا يـــرى الإنســـان فضل النعمة ، ولا يقـــدرها قدرها إذا هى لبسـته هو ، فـإذا رآها فى غـيره عرف لها قدرها ، وذكر فضلها .."

"قوله تعـــالى : « وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِـــهِ ما يَرْكَبُونَ » معطوف على قوله تعالى : « حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ » أي وآية لهم أنا خلقنا لهم من مثل هـذا الفلك ،مـراكب يركبونها فى الـبر ،وهى الإبل التي تسمى سفائن الصـحراء ، والخيل ، والبغال والحمير ، وغيرها مما يـركب ، ويحمل عليه .."

لكن قال الرازي : الضـمير في مِثْلِـهِ عائد إلى الفلك ، على قول الأكثرين ، فيكون هذا كقوله تعالى : وَآخَرُ مِنْ شَـكْلِهِ أَزْواجٌ [ص 38/ـ 58] وعلى هـذا فـالأظهر أن يكـون المـراد الفلك الآخر الموجـود في زمـانهم ، وليس المـراد الإبل.

ويؤيد هذا قوله تعالى هنا : وَإِنْ نَشَـأْ نُغْـرِقْهُمْ. ولو كان المراد الإبل ، لكان قوله : وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ فاصلا بين متصلين.

ويحتمل أن يعـود الضـمير إلى معلـوم غـير مـذكور تقـديره : من مثل ما ذكرنا من المخلوقات ، مثل قوله تعالى هنا : لِيَـأْكُلُوا مِنْ ثَمَـرِهِ [71] وعلى هـذا ، الآية تشـمل كل وسـائل النقل الحديثة من سـيارات وقطـارات وطـائرات. ونظـير الآية قوله تعـالى : وَالْخَيْـلَ وَالْبِغالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَزِينَةً ، وَيَخْلُـقُ ما لا تَعْلَمُونَ [النحل 16/ 8].

ودليل رحمته ولطفه تعـالى حفظ الركـاب في تلك الوسائط ، فقال : وَإِنْ نَشَـأْ نُغْـرِقْهُمْ ، فَلا صَـرِيخَ لَهُمْ ، وَلا هُمْ يُنْقَـذُونَ " أي أنه إذا كـان من قـدرة اللّه أن سـخّر الفلك لتجـرى فى البحر بـأمره ، فلا يغـرق راكبـوهم فـإن من قدرته سـبحانه أن يغـرق هـذه السـفن ، بمن فيها من أولاد وأموال ، فلا يجـدون من يسـمع لهم صـراخا ، أو يسـتجيب لهم ، أو يقـدر على إنقـاذهم إن سـمع واسـتجاب .. فهم هلكى لا

---

[71] - تفسير الرازي : 26/ 81 ، تفسير الألوسي : 23/ 27

محالة ، إلّا أن تتـــداركهم رحمة اللّه ، وإلا أن تكون لهم بقية من أجل .."

فقوله تعالى : « إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ » استثناء من قوله تعالى : « فَلا صَرِيخَ لَهُمْ » أي لا ينقذهم منقذ أبدا إلا رحمة اللّه ، وما لهم من أجل لم ينته بعد.."

إِلّا هنا : اســـتثناء منقطع ، تقـــديره : ولكن برحمتنا نسـيركم في الـبر والبحر ، ونحفظكم من الغـــرق ، ونســلمكم إلى أجل مســمى ، ونمتعكم بالحيـاة الـدنيا إلى وقت معلـوم عند اللّه عز وجل ، وهو الموت.

ومضات

إنهم يكــذبون الرسل ، ولا يتــدبرون مصــارع المكذبين ، ولا يدركون دلالة كونهم يذهبون ولا يرجعون.

والرسل إنما يــدعونهم إلى اللّــه. وكل ما في الوجـود حـولهم يحـدثهم عن اللّه ، ويـدل عليه ويشــهد بوجــوده. وهــذه هي الأرض القريبة منهم ، يرونها ميتة لا حياة فيها ، ولا ماء ينشئ الحيـــاة ثم يرونها حية تنبت الحب ، وتـــزدان بالجنـــات من نخيل وأعنـــاب ، وتتفجر فيها العيون ، فتجري بالحياة حيث تجري.

والحيـــاة معجـــزة لا تملك يد البشر أن تجريها إنما هي يد اللّه التي تجري المعجـزات ، وتبث روح الحيـــاة في المـــوات. وإن رؤية الـــزرع النـــامي ، والجنـــان الوارفة ، والثمر اليـــانع ، لتفتح العين والقلب على يد اللّه المبدعة ،

وهي تشق التربة عن النبتة المتطلعة للحرية والنـور ، وتنضر العـود المستشـرف للشـمس والضياء ، وتزين الغصن اللدن بـالورق والثمـار ، وتفتح الزهرة وتنضج الثمرة ، وتهيئها للجـني والقطـاف .. «لِيَـأْكُلُوا مِنْ ثَمَـرِهِ وَما عَمِلَتْـهُ أَيْـدِيهِمْ» .. ويد اللّه هي الـتي أقـدرتهم على العمل ، كما أقـدرت الـزرع على الحيـاة والنماء! «أَفَلا يَشْكُرُونَ؟».

ويلتفت عنهم بعد هذه اللمسة الرفيقة ليسـبح اللّه الـذي أطلع لهم النبت والجنـان ، وجعل الـزرع أزواجا ذكرانا وإناثا كالنـاس وكغـيرهم من خلق اللّه الذي لا يعلمه سـواه : «سُـبْحانَ الَّذِي خَلَـقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ» ..

وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها وفي موضعها وترتسم معها حقيقة ضـخمة من حقـائق هـذا الوجود. حقيقة وحدة الخلق .. وحـدة القاعـدة والتكـوين .. فقد خلق اللّه الأحيـاء أزواجـا. النبـات فيها كالإنسـان. ومثل ذلك غيرهما .. «وَمِمَّا لا يَعْلَمُـونَ». وإن هـذه الوحـدة لتشي بوحدة اليد المبدعة. التي توجد قاعدة التكوين مع اختلاف الأشـكال والأحجـام والأنـواع والأجناس ، والخصـائص والسـمات ، في هـذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا اللّه ..

ومن يدري فربما كانت هذه قاعدة الكـون كله حـتى الجمـاد! وقد أصـبح معلوما أن الـذرة - أصـغر ما عـرف من قبل من أجـزاء المـادة -

مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشـــــــــعاع الكهربي ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحــدان! كذلك شـوهدت ألـوف من الثنائيـات النجميـة. تتألف من نجمين مرتبطين يشد بعضـهما بعضا ، ويـدوران في مـدار واحد كأنما يوقعـان على نغمة رتيبـــة! تلك آية الأرض الميتة تنبثق فيها الحيـاة .. ومنها إلى آية السـماء وما يتعلق بها من ظــواهر يراها العبــاد رأي العين ، ويد اللّه تجريها بالخوارق المعجزات : «وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْـلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَها ذلِـكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَـرَ قَـدَّرْناهُ مَنـازِلَ حَتَّى عـادَ كَـالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُـدْرِكَ الْقَمَـرَ وَلَا اللَّيْــلُ ســابِقُ النَّهــارِ ، وَكُــلٌّ فِي فَلَــكٍ يَسْبَحُونَ» ..

ومشـهد قـدوم الليل ، والنـور يختفي والظلمة تغشى .. مشـهد مكـرور يـراه النـاس في كل بقعة في خلال أربع وعشرين ساعة (فيما عـدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهـار كما يـدوم فيها الليل أسابيع وأشـهرا قـرب القطـبين في الشـمال والجنـوب) وهو مع تكـراره اليـومي عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير.

والتعبير القرآني عن هـذه الظـاهرة - في هـذا الموضع - تعبير فريد. فهو يصور النهـار متلبسا بالليل ثم يــنزع اللّه النهـار من الليل فــإذا هم مظلمــون. ولعلنا نــدرك شــيئا من سر هــذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته.

فـالأرض الكروية في دورتها حـول نفسـها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس فـإذا هـذه النقطة نهـار حـتى إذا دارت الأرض وانــزوت تلك النقطة عن الشــمس ، انســلخ منها النهار ولفها الظلام - وهكـذا تتـوالى هـذه الظـاهرة على كل نقطة بانتظـام وكأنما نــور النهار يـنزع أو يسـلخ فيحل محله الظلام. فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير.

«وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها» ..

والشمس تدور حول نفسـها. وكـان المظنـون أنها ثابتة في موضـعها الـذي تـدور فيه حــول نفسها. ولكن عرف أخيرا أنها ليست مسـتقرة في مكانها. إنما هي تجري. تجري فعلا. تجـري في اتجـــاه واحد في الفضـــاء الكـــوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيـون بـاثني عشر ميلا في الثانيـــــة! واللّه - ربها الخبــــير بها وبجريانها وبمصـيرها - يقـول : إنها تجـري لمسـتقر لهـا. هذا المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه. ولا يعلم موعده سواه.

وحين نتصـور أن حجم هـذه الشـمس يبلغ نحو مليـون ضـعف لحجم أرضـنا هـذه. وأن هــذه الكتلة الهائلة تتحـرك وتجـري في الفضـاء ، لا يسندها شي ء ، ندرك طرفا من صفة القــدرة التي تصرف هذا الوجـود عن قـوة وعن علم :

«ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» ..

«وَالْقَمَرَ قَـدَّرْناهُ مَنـازِلَ حَتَّى عـادَ كَـالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ» ..

والعباد يرون القمر في منازله تلك. يولد هلالا. ثم ينمو ليلة بعد ليلة حــتى يســتدير بــدرا. ثم يأخذ في التنــاقص حـــتى يعـــود هلالا مقوسا كالعرجون القديم. والعرجون هو العـذق الـذي يكون فيه البلح من النخلة.

والــذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يــدرك ظل التعبــــير القـــــرآني العجيب : «حَتَّى عــــادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَــدِيمِ» ..وبخاصة ظل ذلك اللفظ «الْقَـــدِيمِ». فـــالقمر في لياليه الأولى هلال. وفي لياليه الأخــــيرة هلال .. ولكنه في الأولى يبــدو وكــأن فيه نضــارة وفتــوة. وفي الأخــيرة يطلع وكأنما يغشاه ســهوم ووجــوم ، ويكســوه شحوب وذبول.

ذبــول العرجــون القــديم! فليست مصــادفة أن يعبر القرآن الكــريم عنه هــذا التعبــير المــوحي العجيب! والحيــاة مع القمر ليلة بعد ليلة تثــير في الحس مشــاعر وخــواطر ندية ثرية موحية عميقة. والقلب البشري الذي يعيش مع القمر دورة كاملة ، لا ينجو من تأثرات واســتجابات ، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال المدبرة للأجرام بذلك النظام. سواء كان يعلم سر هذه المنــازل والأشــكال القمرية المختلفة أو لا يعلم.

فالمشـــــاهدة وحـــــدها كفيلة بتحريك القلب ، واستجاشة الشعور ، وإثارة التدبر والتفكير.

وأخيرا يقــرر دقة النظــام الكــوني الــذي يحكم هذه الأجرام الهائلة ، ويرتب الظواهر الناشــئة

عن نظامها الموحد الـــدقيق : «لَا الشَّـــمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُـدْرِكَ الْقَمَـرَ ، وَلَا اللَّيْـلُ سـابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» ..

ولكل نجم أو كـــــوكب فلك ، أو مـــــدار ، لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه. والمسافات بين النجوم والكواكب مسـافات هائلـة. فالمسـافة بين أرضنا هذه وبين الشـمس تقـدر بنحو ثلاثة وتسـعين مليونا من الأميـال. والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومـائتي ألف من الأميـال. وهذه المسافات على بعدها ليست شيئا يـذكر حين تقـــــــــــاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمســية وأقــرب نجم من نجــوم الســماء الأخــرى إلينــا. وهو يقــدر بنحو أربع ســنوات ضوئية.

وسرعة الضوء تقدر بستة وثمــانين ومائة ألف من الأميال في الثانية الواحدة! (أي إن أقــرب نجم إلينا يبعد عنا بنحو مائة وأربعة مليـــــون مليون ميل!).

وقد قدر اللّٰه خالق هذا الكون الهائل أن تقـوم هـذه المسـافات الهائلة بين مـدارات النجـوم والكـواكب. ووضع تصـميم الكـون على هـذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع - حتى يأتي الأجل المعلوم - فالشـمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر. والليل لا يسبق النهار ، ولا يزحمه في طريقه ، لأن الــدورة الــتي تجيء بالليل والنهـار لا تختل أبـدا فلا يسـبق أحـدهما

الآخر أو يزحمه في الجريان! «وَكُـلٌّ فِي فَلَـكٍ يَسْبَحُونَ» ..

وحركة هذه الأجـرام في الفضـاء الهائل أشـبه بحركة السـفين في الخضم الفسـيح. فهي مع ضـخامتها لا تزيد على أن تكـون نقطا سـابحة في ذلك الفضاء المرهوب.

وإن الإنســان ليتضــاءل ويتضــاءل ، وهو ينظر إلى هـذه الملايين الـتي لا تحصى من النجـوم الدوارة ، والكواكب السيارة. متنـاثرة في ذلك الفضـاء ، سـابحة في ذلك الخضم ، والفضـاء من حولها فسـيح فسـيح وأحجامها الضـخمة تائهة في ذلك الفضاء الفسيح!!!

«وَآيَـــةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْـــكِ الْمَشْحُونِ، وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِـهِ ما يَرْكَبُـونَ ، وَإِنْ نَشَـأْ نُغْـرِقْهُمْ فَلا صَـرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ» ..

إن في السـياق مناسـبة لطيفة بين النجـوم والكـواكب السـابحة في أفلاكها ، والفلك المشحون السابح في المـاء يحمل ذرية بـني آدم! مناسـبة في الشـكل ، ومناسـبة في الحركة ، ومناسبة في تسخير هـذا وذلك بـأمر اللّه ، وحفظه بقدرته في السـماوات والأرض سواء.

وهـذه آية كتلك يراها العبـاد ولا يتـدبرونها. بل هذه أقرب إليهم وأيسر تدبرا لو فتحوا قلوبهم للآيات.

ولعل الفلك المشــحون المــذكور هنا هو فلك نـــوح أبي البشر الثــاني الــذي حمل فيه ذرية آدم. ثم جعل اللّه لهم من مثله هــذه الســفن التي تمخر بهم العباب. وهؤلاء وهـؤلاء حملتهم قـــــدرة اللّه ونواميسه الـــــتي تحكم الكـــــون وتصرفه وتجعل الفلك يعوم على وجه المــاء ، بحكم خواص الفلك ، وخواص الماء ، وخــواص الـــــريح أو البخـــــار ، أو الطاقة المنطلقة من الذرة ، أو غيرها من القوى. وكلها من أمر اللّه وخلقه وتقديره.

«وَإِنْ نَشَـــأْ نُغْـــرِقْهُمْ فَلا صَـــرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَــذُونَ. إِلَّا رَحْمَــةً مِنَّا وَمَتاعــاً إِلى حِينٍ» .. والسفينة في الخضم كالريشة في مهب الريح ، مهما ثقلت وضـــــخمت وأتقن صـــــنعها. وإلا تدركها رحمة اللّه فهي هالكة هالكة في لحظة من ليل أو نهـار. والـذين ركبـوا البحـار سـواء عبروها في قـــارب ذي شـــراع أو في عـــابرة ضخمة للمحيط ، يدركون هــول البحر المخيف وضــآلة العصــمة من خطــره الهائل وغضــبه الجبار. ويحسون معنى رحمة اللّه وأنها وحدها العاصم بين العواصف والتيـــــارات في هـــــذا الخلق الهائل الـــــذي تمسك يد الرحمة الإلهية عنانه الجامح ، ولا تمسكه يد ســواها في أرض أو ســماء. وذلك حــتى يقضي الكتــاب أجله ، ويحل الموعد المقـــــــدور في حينه ، وفق ما قدره الحكيم الخبير : «وَمَتاعاً إِلى حِينٍ» ..[72]

[72] - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2967

وقـال دروزة : " والآيـات اسـتمرار للسـياق أيضـا. وجملة وَآيَـةٌ لَهُمُ موصـلة بين الفصل الأول السابق للقصة وبين هـذا الفصل كما هو المتبـادر. وقد احتـوت تنبيها إلى مشـاهد كـون اللّه ونواميسه ونعمه على خلقه ، وتنديـدا بالـذين لا يشـكرون ولا يرتـدعون عن مواقف المكابرة.

وعبارتها واضـحة لا تحتـاج إلى أداء آخـر. وقد جاءت كما يلهمه أسلوبها وفحواها في معـرض البرهنة على قـدرة اللّه على ما يعـدُ النـاس ويتوعـدهم والتنبيه على أفضـال اللّه عليهم ورحمته بهم ، في الأرض والسـماء والبحـار ، والتنديد بالـذين لا يشـكرونه ولا يرتـدعون عن مواقف المكـابرة والجحـود ، وإنـذارهم بأنه لو شاء لأهلكهم ومنع عنهم خيره وبرّه فلا يجدون لهم مغيثا ولا ناصرا ، وبأنه إذا لم يفعل ذلك فلا يكـون إلّا من قبيل الإمهـال إلى حين كأنما يهيب بهم إلى اغتنـام الفرصة السـانحة قبل نفاد صبره وإنزال عذابه فيهم.

والآيات قوية نافذة. موجهة إلى القلب والعقل بسبيل ما جاءت من أجله من التـذكير والعظة والبرهنة والإنذار.

ومع وجـوب الإيمـان بحقيقة ما احتوته الآيـات من تقريـرات متنوعة فـإن أسـلوبها وفحواها وجملة وَآيَـةٌ لَهُمُ الـتي بـدأت بها وتكـررت في مقاطعها قد يفيد أن السامعين كـانوا يعرفـون ويحسـون ويتصـورون ما احتوته من مشـاهد

كونية وأرضــية وســماوية وفق ما ذكر فيهــا. وبهــذا تبــدو الحكمة في ذلك وتكــون الحجة القرآنية مستحكمة في السامعين.

وقال : "لقد علّقنا في سـياق تفسـير سـورة القيامة على ربط بعضهم بين الآية بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَــوِّيَ بَنانَــهُ (4) وبين فنّ بصــمات الأصابع الحديث. ونعـود إلى التعليق مـرة ثانية بمناسـبة الآيـات الـتي نحن في صـددها والـتي يقف بعضــهم عنــدها وعند أمثالها لاســتنباط قواعد فنية كونية منها أو تطـــبيق نظريـــات علمية عليها وبخاصة في صــــدد حركــــات الشــمس والقمر وتعــاقب الليل والنهــار ، والإدلاء بــــآراء متنوعة هي أدخل في نطـــاق التكلّف والتزيد بل والغلوّ أكثر منها في نطــاق الحقيقة في حين أن الآيــــــات في مجموعها وأسلوبها وروحها تحمل الدليل على أن القصد منها هو لفت نظر النــــاس جميعا بأســــلوب يفهمونه إلى ما يشــاهدونه من مظــاهر قــدرة اللّه وكونه بقطع النظر عما أقام اللّه ســبحانه الكون عليه من نواميس ونسب وقواعد دقيقة محكمة النظام مطردة السير والجريان. ونحن نرى في مثل هـذه المحـاولات إخراجا للقـرآن الكريم عن هدفه الوعظي والتذكيري وتعريضا له للتعـديل والجـرح اللــذين يرافقــان عــادة الأبحاث العلمية على غير طائل ولا ضرورة.

ولقد جـاء في سـورة يـونس في صـدد منـازل القمر آية تفيد أن اللّه قدّر القمر منـازل ليعلم

الناس عدد السنين والحساب وهي : هُــوَ الَّذِي جَعَـلَ الشَّـمْسَ ضِـياءً وَ الْقَمَـرَ نُـوراً وَقَـدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَـقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) فـــإذا لحظنا أن منـــازل القمر أو دوراته اليومية الـــتي تتبـــدّل بها صـــوره كـــانت هي الوسـيلة الممكنة المشـاهدة لمعرفة حسـاب الأيـام والأشـهر والسـنين بالنسـبة للسـامعين رغم كونها ليست دقيقة تـــــبين لنا أن حكمة التنزيل إنما اقتضت أن يكـــون الخطـــاب كما جاء بسبيل تنبيه السامعين إلى نـواميس كـون اللّه وإثبات وجوده وقدرته على ما هو ملمـــوح بقـــوة من فحـــوى السلســـلة الـــتي نحن في صـــددها وسـياق آية سـورة يـونس المـذكورة وأمثالها لأنه كـــــان هو المفهــــوم من قبل السامعين بمداه ومعناه. وتبين لنا مدى ما في تجـاوز هـذا النطـاق إلى اسـتخراج النظريـات الفنية من القـــرآن أو تطبيقها على الآيـــات القرآنية من تجوّز وتمحّل وخروج بـالقرآن عن نطاق حكمة تنزيله.

ونعود إلى التنبيه مرة أخرى في هذه المناسبة إلى أن ما قلنـاه لا يعـني حظر دراسة أسـرار الكـــون على المســلمين بمختلف الوســائل وعلى مختلف المستويات.

فهذا شيء وذاك شيء آخر. بل إن إيــذان اللّه تعـالى للبشر ومن جملتهم المسـلمين أن اللّه ســخّر لهم ما في الســموات وما في الأرض

ليوجب عليهم ذلك لأن الانتفاع بما سخّره لهم اللّه لا يتمّ إلّا به. واللّه تعالى أعلم.
وقـال : " وبمناسـبة ورود تعبـير ذلِـكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيـزِ الْعَلِيمِ نقـول إن كثـيرا من المسـلمين يســوقون هــذا التعبــير في معــرض عقيــدة القضاء والقدر وكمستند لها به في حين أنه قد جــاء في معــرض بيــان أن حركة الشــمس والقمر وتعـاقب الليل والنهـار كل ذلك يجـري ضمن حساب رباني مقدّر على أحسن أسلوب وأدقّ ترتيب.
وبكلمة أخــرى إن كلمة «تقــدير» هنا تعــني الحساب الدقيق وليس لها صلة بعقيـدة القـدر ولا يصحّ سوقها في معرض ذلك."[73]

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :
1 - من الأدلة الدالة على وجـود اللّه وتوحيـده وكمال قدرته على البعث وإحياء الموتى وغـير ذلك : إحيـاء الأرض الهامـدة بالنبـات الأخضر ، وإخــراج الحب منه ، الــذي هو قــوام الحيــاة وأساس القوت والمعاش.
2 - ومن الأدلة أيضا خلق بســاتين في الأرض من نخيل وأعنــــاب ، وتفجــــير الينـــــابيع في البســاتين للأكل من ثمر مــاء العيــون ، أو من ثمر المــذكور وهو ثمر الجنـات والنخيل ، ومن الــذي عملته أيــدي النــاس من الثمــار ، ومن

[73] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 29)

أصناف الحلاوات والأطعمة ، ومما اتخــذوا من الحبوب كالخبز وأنواع الحلويات.
وخصص النخيل والأعناب بالـذكر ، لأنهما أعلى الثمار ، كما تقدم.
3 - تستوجب هذه النعم شـكر الخـالق المنعم المتفضل ، وشــــكره بعبادته ، والإذعـــــان لسلطانه وإرادته.
4 - يجب تنزيه الخـالق عما لا يليق به ، والبعد عن صنيع الكفار الذين عبدوا غـير اللّه ، مع ما رأوا من نعمه وآثار قدرته.
5 - إن آثـار قـدرة اللّه ومظاهرها في العـالم كثـيرة ، منها خلق النباتـات والثمـار المختلفة والألوان والطعوم والأشـكال والأحجـام صـغرا وكـبرا. ومنها خلق الأولاد والأزواج أي ذكـورا وإناثا ، ومنها خلق أصـــناف أخـــرى لا يعلمها البشر في البر والبحر والسماء والأرض.
وإذا كان اللّه قد انفـرد بـالخلق ، فلا ينبغي أن يشرك به.
6 - ومن العلامات الدالة أيضا على توحيد اللّه وقدرته ووجوب ألوهيته : تعاقب الليل والنهـار وما يتبعهما من ظلمة وضـوء لتحقيق مصـالح العبـاد ، وضـبط السـنين والحسـاب ، وجريـان الشـــمس لمســـتقرّ لها هو محورها أو نهاية سـيرها يـوم القيامة ، وتقـدير القمر ذا منـازل هي ثمانية وعشـرون مـنزلا ، يـنزل القمر كل ليلة بمـنزل منها ، فـإذا صـار في آخرها ، عـاد إلى أوّلها ، فيقطع الفلك في ثمـان وعشـرين

ليلة ، ثم يســتتر ، ثم يطلع هلالا ، فيعــود في قطع الفلك على المنازل ، وهي منقسمة على البروج ، لكل برج منزلان وثلث.
ومنها جعل مدار مستقل وسلطان منفـرد لكل من الشمس والقمر والأرض ، فلا يدخل أحدها على الآخر ، وإنما كل من الشــــمس والقمر والنجوم يجري في فلك خاص به.
7 - ومن دلائل قدرة اللّه ورحمته : حمل ذرية القــرون الماضــية والحاضــرة والمقبلة في الســفن المملــوءة بالســلع والأمتعة ، وخلق وسـائط أخـرى للركـوب مماثلة للسـفن وهي الإبل سفائن البراري ، ووســائل النقل الحديثة في الــــبر والجو من ســـيارات وقطـــارات وطائرات ومناطيد (أو مطاود) ونحوها.
واللّه قــادر على إغــراق ركــاب الســفن في البحــار ، فيصــبحون دون مغيث ولا مجــير ولا منقذ مما ألم بهم ، ولكن رحمته تعــــــالى اقتضت إبقــاءهم وإنقــاذهم ليتمتعــوا بمتــاع الحيــاة الدنيوية إلى آجــالهم المرســومة ، وأعمــارهم المحــدودة ، والتمتع إلى حين هو الموت.وقد عجّل اللّه عـذاب الأمم السـالفة ، وأخّر عـذاب أمة محمد ، وإن كـذبوه ، إلى يوم القيامة ، تكريما لهذا الرسول .

8- حول سجود الشمس تحت العرش :

عَنْ أَبِى ذَرٍّ - رضى الله عنه - قَــالَ كُنْتُ مَــعَ النَّبِىِّ - - فِى الْمَسْجِدِ عِنْدَ غُـرُوبِ الشَّـمْسِ فَقَالَ « يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِى أَيْنَ تَغْرُبُ الشَّمْسُ » .

قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ . قَـالَ « فَإِنَّهَا تَـذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) » صحيح البخارى.[74]

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ ، أَنّ النَّبِيَّ قَالَ : أَتَـدْرُونَ أَيْنَ تَـذْهَبُ هَـذِهِ الشَّـمْسُ ؟ قَـالُوا : اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ ، قَـالَ : إِنَّهَا تَجْـرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَهَا تَحْتَ الْعَـرْشِ فَتَخِـرُّ سَـاجِدَةً فَلا تَـزَالُ كَـذَلِكَ حَتَّى يُقَـالَ لَهَا : ارْتَفِعِي فَـارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ ، فَتُصْـبِحُ طَالِعَـةً فِي مَطْلِعِهَا فَتَجْـرِي لا يُنْكِـرُ النَّاسُ مِنْهَا شَـيْئًا ، فَيُقَـالُ لَهَا : اطْلُعِي مِنْ مَغْرِبِـكِ ، قَـالَ : فَتُصْـبِحُ طَالِعَـةً مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَتَدْرُونَ أَيَّ يَوْمٍ ذَلِـكَ ؟ قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ ، قَـالَ : ذَاكَ يَـوْمَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ .

وفي رواية عَنْ أَبِي ذَرٍّ ، قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ حِينَ وَجَبَتِ الشَّـمْسُ ، فَقَـالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، أَيْنَ تَـذْهَبُ الشَّـمْسُ ؟ قُلْتُ : اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ بَيْنَ يَـدَيْ رَبِّهَا فَتَسْـتَأْذِنُ فِي الرُّجُـوعِ فَيُـؤْذَنَ لَهَا ، وَكَأَنَّهَا قَـدْ قِيـلَ لَهَا : ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ فَتَرْجِـعُ إِلَى مَطْلِعِهَا فَـذَلِكَ مُسْـتَقَرُّهَا ، ثُمَّ قَـرَأَ : {وَالشَّمْسُ تَجْـرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَهَـا}[سـورة يس آية 38][75]

---

[74] - صحيح البخارى (4802)

[75] - مسند أبي عوانة (238 و239) صحيح

وَذَكَــرَ أَبُو سُــلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ رَحِمَــهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ : وَالشَّـمْسُ تَجْـرِي لِمُسْـتَقَرٍّ لَهَا أَنَّ أَهْـلَ التَّفْسِيرِ وَأَصْحَابَ الْمَعَانِي قَـالُوا فِيـهِ قَـوْلَيْنِ ؛ قَــالَ بَعْضُــهُمْ : مَعْنَـاهُ أَنَّ الشَّــمْسَ تَجْــرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، أَيْ : لِأَجَـلٍ أُجِّلَ لَهَا ، وَقَـدَرٍ قُـدِّرَ لَهَا ، يَعْنِي انْقِطَـاعَ مُـدَّةِ بَقَـاءِ الْعَـالَمِ ، وَقَـالَ بَعْضُـهُمْ : مُسْـتَقَرُّهَا غَايَــةُ مَا تَنْتَهِي إِلَيْــهِ فِي صُـــعُودِهَا وَارْتِفَاعِهَا لِأَطْـــوَلِ يَـــوْمٍ فِي أَيَّامِ الصَّـيْفِ ، ثُمَّ تَأْخُـذُ فِي النُّزُولِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى أَقْصَى مَشَارِقِ الشِّتَاءِ لِأَقْصَرِ يَوْمٍ فِي السَّنَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ " مُسْتَقَرُّهَا تَحْتَ الْعَرْشِ " فَلَا يُنْكِـرُ أَنْ يَكُــونَ لَهَا اسْــتِقْرَارٌ مَا تَحْتَ الْعَــرشِ مِنْ حَيْثِ لَا نُدْرِكُــهُ وَلَا نُشَــاهِدُهُ ، وَإِنَّمَا أَخْبَـرَ عَنْ غَيْبٍ فَلَا نُكَــذِّبُ بِــهِ وَلَا نُكَيِّفُــهُ ، لِأَنَّ عِلْمَنَا لَا يُحِيطُ بِهِ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُـونَ الْمَعْنَى : أَنَّ عَلِمَ مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ مُسْتَقَرِّهَا تَحْتَ الْعَــرْشِ فِي كِتَابٍ كُتِبَ فِيهِ مَبَـادِئُ أُمُـورِ الْعَـالَمِ وَنِهَايَاتُهَا ، وَالْــوَقْتُ الَّذِي تَنْتَهِي إِلَيْــهِ مُــدَّتُهَا ، فَيَنْقَطِــعُ دَوَرَانُ الشَّــمْسِ وَتَسْـتَقِرُّ عِنْـدَ ذَلِـكَ فَيَبْطُـلُ فِعْلُهَا ، وَهُــوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُـوظُ ، الَّذِي بُيِّنَ فِيــهِ أَحْوَالُ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ وَآجَالُهُمْ وَمَآلُ أُمُــورِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِذَلِكَ .

قَـالَ الشَّـيْخُ أَبُو سُـلَيْمَانَ : وَفِي هَـذَا ــ يَعْنِي الْحَـدِيثَ الْأَوَّلَ ــ إِخْبَـارٌ عَنْ سُـجُودِ الشَّـمْسِ تَحْتَ الْعَـرْشِ فَلَا يُنْكَـرُ أَنْ يَكُـونَ ذَلِـكَ عِنْـدَ مُحَاذَاتِهَا الْعَــرْشَ فِي مَسِــيرِهَا ، وَالْخَبَــرُ عَنْ سُجُودِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَـلَّ قَـدْ جَـاءَ

فِي الْكِتَــابِ ، وَلَيْسَ فِي سُــجُودِهَا لِرَبِّهَا تَحْتَ الْعَـــرْشِ مَا يَعُوقُهَا عَنِ الـــدَّأْبِ فِي سَـــيْرِهَا وَالتَّصَـرُّفِ لِمَا سُخِّرَتْ لَـهُ . قَـالَ : فَأَمَّا قَـوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَـلَّ : حَتَّى إِذَا بَلَـغَ مَغْـرِبَ الشَّـمْسِ وَجَــــدَهَا تَغْـــــرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُخَـــالِفٍ لَمَّا جَــاءَ فِي هَـــذَا الْخَبَـــرِ مِنْ أَنَّ الشَّمْسَ تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ ، لِأَنَّ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ نِهَايَـةُ مُـدْرِكِ الْبَصَـرِ إِيَّاهَا حَـالَ الْغُـرُوبِ ، وَمَصِـيرُهَا تَحْتَ الْعَـرْشِ لِلسُّـجُودِ إِنَّمَا هُــوَ بَعْـدَ غُرُوبِهَا فِيمَا دَلَّ عَلَيْــهِ لَفْــظُ الْخَبَــرِ ، فَلَيْسَ بَيْنَهُمَا تَعَــارُضٌ وَلَيْسَ . مَعْنَى قَوْلِـهِ تَغْـرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ أَنَّهَا تَسْـقُطُ فِي تِلْــكَ الْعَيْنِ فَتَغْمُرُهَا ، وَإِنَّمَا هُــوَ خَبَـرٌ عَنِ الْغَايَةِ الَّتِي بَلَغَهَا ذُو الْقَـرْنَيْنِ فِي مَسِـيرِهِ حَتَّى لَمْ يَجِدْ وَرَاءَهَا مَسْلَكًا فَوَجَـدَ الشَّـمْسَ تَتَـدَلَّى عِنْدَ غُرُوبِهَا فَـوْقَ هَـذِهِ الْعَيْنِ ، أَوْ عَلَى سَـمْتِ هَذِهِ الْعَيْنِ ، وَكَـذَلِكَ يَتَـرَاءَى غُـرُوبُ الشَّـمْسِ لِمَنْ كَانَ فِي الْبَحْرِ وَهُوَ لَا يَرَى السَّاحِلَ ، يَرَى الشَّمْسَ كَأَنَّهَا تَغِيبُ فِي الْبَحْرِ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي الْحَقِيقَــةِ تَغِيبُ وَرَاءَ الْبَحْــرِ ، وَفِي هَهُنَا بِمَعْنَى فَوْقَ ، أَوْ بِمَعْنَى عَلَى ، وَحُرُوفُ الصِّفَاتِ تُبَدَّلُ بَعْضُهَا مَكَانَ بَعْضٍ[76]

وقال دروزة :

" وما جــاء في الحـــديث أمر مغيّب فيجب الوقـوف عنـده إذا صـحّ [77] مع وجـوب الإيمـان بأنه لا بـدّ من أن يكـون لصـدوره من النـبي

[76] - الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ لِلْبَيْهَقِيِّ(804 و805)

حكمة كشأن حكمة اللّه في الآيات. ولعـلّ من هــــذه الحكمة قصد التنبيه على إحاطة اللّه تعـــالى وتصـــرفه المطلق في الكـــون وفي الشمس التي هي من أعظم مظاهر ومشـاهد هذا الكون. واللّه تعالى أعلم."[78]

وفي فتاوى الشبكة الإسلامية :

" من المعلوم بدلالة المشاهدة علما قطعيا لا شـبهة فيه أن الشـمس طالعة في كل وقت لا تغيب عن مكـان إلا ظهـرت في مكـان آخـر، وهذا لا ينـافي سـجودها تحت العـرش، كما أن ســجودها لا يعوقها عن الــدأب في مســيرها والتصــرف لما ســخرت لــه، لأن الشــمس خاضــعة لمشــيئة الله مثل كل المخلوقــات، فتكــون في دورانها خاضــعة في جميع أحوالها سـاجدة تحت العـرش. قـال الحافظ ابن حجر في الفتح: ويحتمل أن يكـون المـراد بالسـجود ســـجود من هو موكل بها من الملائكـــة، أو تسجد بصورة الحال فيكون عبارة عن الزيـادة في الانقيـاد والخضـوع في ذلك الحين. وقـال الحافظ ابن حجر في موضع آخـــر: قــــال الخطابي: يحتمل أن يكون المـراد باسـتقرارها

[77] - وطلوع الشمس من مغربها كعلامة من علامات السـاعة مماثل لما ذكرته آيــات عديــدة في ســور المزمل والتكــوير والقيامة والمرسـلات من تبـدّل مشـاهد الكـون عند ما تـأزفّ الســاعة وتخــرب الــدنيا. وكل هــذا مغيّب يجب الإيمــان به والوقوف عنـده وإيكـال حكمته إلى اللّه تعـالى. وليس معرفة كنهه والمماراة فيه من ضروريات الدين. واللّه تعالى أعلم.

[78] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 30)

تحت العــرش أنها تســتقر تحته اســتقرارا لا نحيط به نحن.. وليس في ســـجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق عن دورانها في سيرها . اهـ.

وقـال الشـيخ رشـيد رضا : الشـمس يصـدق عليها أنها ساجدة تحت العرش بـالمعنى الـذي أثبت القرآن فيه سجود كل شيء لله عز وجل من الكـواكب والشـجر والنبـات وغـير ذلـك، وذكرنا توجيها آخر لســـجودها وهو أنه تمثيل لخضــوعها في طلوعها وغروبها لمشــيئة الله تعالى . اهـ."[79]

وقال المنجد :

" أثبت سبحانه وتعالى السـجود لكل الكائنـات وبين كيفية ســجود بعضــها وهو بفيء ظلالها ذات اليمين والشــمال ، ولا يلــزم أن يكــون ســجودها على ســبعة أعضــاء إذ هــذا خــاص بالمسـلمين أما سـجود بقية الكائنـات فهو في كل مخلوق بحسبه ، يؤكد أن هذا السجود يراد به حقيقة السجود أنه ظاهر النص أولا فـإذا لم يــرد مــانع صــحيح من حمل الآية على هــذا الظــاهر وجب الأخذ به ، يؤكــده كــذلك أن عطف ســجود الشــمس والقمر والنجــوم

[79] - انظر : الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي - (1 / 132) (190) وسـئل نفع الله به : إذا غـابت الشـمس أين تـذهب ؟ وفتاوى الأزهر - (7 / 382) -سـجود الشـمس تحت العـرش وفتاوى الشـبكة الإسـلامية معدلة - (9 / 941) رقم الفتـوى 61100 سجود الشمس ونزول الله جل جلاله تاريخ الفتـوى : 05 ربيع الأول 1426

والشجر والدواب على سجود الملائكة والبشر يدل على حقيقة هذا السجود للكائنات كلها .
يقــول شــيخ الإســلام ابن تيمية رحمه الله : (والسـجود من جنس القنـوت فـإن السـجود الشامل لجميع المخلوقات هو المتضـمن لغاية الخضــوع والــذل وكل مخلــوق فقد تواضع لعظمته وذل لعزته واستسـلم لقدرته ولا يجب أن يكون سجود كل شيء مثل سجود الإنسان على سبعة أعضاء ووضع جبهة في رأس مدور على الـتراب فـإن هـذا سـجود مخصـوص من الإنسـان ومن الأمم من يركع ولا يسـجد وذلك سـجودها كما قـال تعـالى : (ادخلـوا البـاب سـجدا وقولـوا حطة) وإنما قيل ادخلـوه ركعا ومنهم من يسجد على جنب كاليهود فالسـجود اسم جنس ولكن لما شــاع ســجود الآدمــيين المسلمين صار كثـير من النـاس يظن أن هـذا هو سجود كل أحد كما في لفظ القنوت) [80] .
ويقــول رحمه الله : (ومعلــوم أن ســجود كل شـيء بحسـبه ليس سـجود هـذه المخلوقـات وضع جباهها على الأرض)[81] ،فمما يــدخل في هذا السجود كمال خضوع هذه المخلوقـات لله وانقيادها له ســـبحانه وذلها لربوبيته وعـــزه وسـلطانه،يقـول الإمـام ابن القيم رحمه اللـه: (وهو سجود الـذل والقهر والخضـوع فكل أحد

[80] - جامع الرسائل 1/27.
[81] - مجموع الفتاوى 21/284

خاضع لربوبيته ذليل لعزته مقهــــــــــور تحت سلطانه تعالى)[82].

كما أن سجود هذه المخلوقات ســجود حقيقي يليق بهــذه المخلوقــات كل بحســبه فســجود الإنســـــان لائق به وهو ما كــــــان على الهيئة المعروفة وعلى الأعضـــاء الســـبعة وســـجود الشـــمس يليق بها كما صح في الحـــديث عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِـــــــي اللَّه عَنْه (والآنف الـــــــذكر)..فسـجودها سـجود حقيقي يناسب الشـمس لكن كيف تسجد لله تحت العرش ؟

الله ســبحانه هو الأعلم بكيفية هــذا الســجود وظاهر الحديث يأبى أن يكون معـنى السـجود مجــرد خضــوعها لأمر الله ســبحانه وانقيادها لطاعته بل هو خضــوع وذلة وانكســار وانقيــاد بسجود حقيقي لا نعلم كيفيته ، وكذا يقــال في القمر والشجر والدواب وسائر الكائنات كل له ســـجود يناســـبه ويليق به ، فـــالواجب على المــؤمن أن لا يجعل من جهله بكيفية ســجود بعض الكائنــات مانعا من التصــديق والإيمــان بهذا السجود بل الواجب عليه الإيمان بما أخبر الله به من سـجود الكائنـات له سـبحانه .والله أعلم "[83]

قلت :

---

[82] - مدارج السالكين 1/107

[83] - فتاوى الإسلام سؤال وجواب - (1 / 2939) سؤال رقم 27036- سجود ما في الكون لله تعالى ورد في ســورة الحج أية (18) سجود الدوآب فما هي كيفية هذا السجود ؟.

" أجمع العلمــاء على أن قطعي الــوحي لا يتعـارض أبـداً مع قطعي العقـل، قـال شـيخ الإســــــلام ابن تيمية رحمه الله في درء التعارض: كل ما قام عليه دليل قطعي سمعي يمتنع أن يعارضه قطعي عقلي، ومثل هــذا الغلط يقع فيه كثير من الناس. انتهى[84]

وبين شـيخ الإسـلام رحمه الله أنه إن تعـارض ظني العقل وظني النقل فالمقـدم هو الـراجح منهما مطلقـاً، وإن كـان أحـدهما ظنيـاً والآخر قطعياً فالقطعي هو المقدم مطلقاً.

وقـال شـيخ الإسـلام رحمه اللـه: فما أخـبر به الصــادق المصــدوق هو ثــابت في نفس الأمر، سواء علمنا صدقه أو لم نعلمه.[85]

وقال : لا يجـوز أن يتعـارض دليلان قطعيـان لا عقليــان ولا ســمعيان ولا ســمعي ولا عقلي، ولكن قد ظن من لم يفهم حقيقة القــولين تعارضهما لعدم فهمه لفساد أحدهما.[86]

ولذا.. فلا يمكن أن يحـدث تعـارض بين حقيقة علمية وخــبر شــرعي قطعي، وإنما عبرنا بالحقيقة العلمية لتخــرج النظرية العلمية والفرضــية العلميــة، فالنظرية العلمية قابلة للصـواب وللخطأ وكـذا الفرضـية، أما الحقيقة العلمية فلا تقبل التشـكيك، وكثـير من النـاس يـأتي إلى بعض النظريـات الـتي مـازالت تحت

---

[84] - درء التعارض 1/80

[85] - 1/88 من نفس المرجع

[86] - نفسه 1/174

الدراسة ولم يمط عنها اللثـــــــام ويجعل بينها وبين نصوص الوحي إشكالات ومعارضات."[87]

---

[87] - انظر فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (4 / 6720) رقم الفتـوى 26538 لا تعـارض بين قطعي الـوحي وقطعي العقل تاريخ الفتوى : 16 شوال 1423

موقف الكفار من تقوى اللّه وآيات اللّه والشفقة على خلق اللّه

قال تعالى :

ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ
ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ
ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

45 ... اتَّقُـوا مَا بَيْنَ أَيْـدِيكُمْ ... أي من عـذاب الدنيا بالإيمان والاستقامة

45 ... وَمَا خَلْفَكُمْ ... من عـــذاب الآخـــرة إذا بقيتم على الكفر

46 ... مُعْرِضِينَ ... لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها

المناسبة :

بعد بيان الآيـات الدالة يقينا وقطعا على وجـود اللّه وتوحيده وقدرته التامة ، أخـبر اللّه تعـالى أن الكفار مع هذا الدليل القاطع يعرضـون عن آيـات ربهم ، ولا يعـترفون بها ، وشـأن العاقل الاقتنــاع بها ، ولكن هــؤلاء لا يتقــون اللّه ، ولا يحذرون بأن يصيبهم مثل هلاك الأمم الغابرة ، ولا يفكرون في آيات اللّه ، وليس في قلــوبهم رحمة أو شفقة على عبــاد اللّه ، فهم في غاية الجهل ونهاية الغفلة ، وليســـوا مثل العلمـــاء الذين يتبعـون البرهـان ، ولا مثل العامة الـذين يبنون الأمر على الأحوط.

التفسير والبيان :

يخــبر اللّه تعــالى عن تمــادي المشــركين في غيهم وضـــلالهم ، وعـــدم اكـــتراثهم بـــذنوبهم الماضــية ، ولا بما يســتقبلون بين أيــديهم يــوم القيامة ، فيقـول : وَإِذا قِيـلَ لَهُمُ : « وَإِذا قِيـلَ لَهُمُ اتَّقُـــوا ما بَيْنَ أَيْـــدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ».

" لا تـزال الآيـات الكريمة ، تلقى المشـركين بالوعيد والتهديد ، بعد أن عرضت عليهم من مشـــاهد قـــدرة اللّه ما فيه عـــبرة لمعتـــبر ، ولكنهم ذوو أعين لا تبصر ، وآذان لا تســـمع ، وقلـوب لا تلين ..فـإذا دعـوا إلى أن يتقـوا اللّه فيما بين أيديهم من نعم ، يسـتقبلونها من اللّه ، وما خلفهم من نعم أفاضـــــها اللّه عليهم ، لعلهم ينالون رحمة اللّه ، ويـدخلون فى عبـاده المتقين ــ إذا قيل لهم هـذا القـول ، لم يقفـوا عنـده ، ولم يلتفتـوا إليه ، ومضـوا على ما هم عليه من كفر بنعم اللّه ومحادّة له ..

وجاء القول بصيغة البناء للمجهـول « قِيـلَ » ، للإشارة إلى أنهم لا يقبلـون هـذا القـول الـذي يدعوهم إلى تقـوى اللّه ، لا لأن رسـول اللّه هو الـذي يـدعوهم إليه ، وإنما لأن طـبيعتهم لا تقبله ، من أية جهة تأتهم به ، ومن أي إنســان يدعوهم إليه ..

وحـذف جـواب الشـرط « إذا » لدلالة حـالهم عليه .. فهم على إعـراض أبـدا عن كل خـير ، وحق ، وإحسان .. "

وليس إعراضــهم مقتصــرا على ذلك ، بل هم عن كل آية معرضون ، كما قال تعالى : « وَما تَـأْتِيهِمْ مِنْ آيَــةٍ مِنْ آيــاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كــانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ ».

" هو مما يشـير إلى جـواب الشـرط فى الآية السـابقة .. فهو حكم عليهم بــأنهم لا يلتقــون بآية من آيات ربهم ، إلا أعرضوا عنها ، مكذبين بها ، ساخرين منها .."

أي وما تجيء هؤلاء المشـركين آية من آيـات اللّه على التوحيد وصـــدق الرسل إلا شـــأنهم الإعـراض عنها ، وعـدم الالتفـات إليها ، وتـرك التأمل بها ، وعدم الانتفــاع بها ، لتعطيل طاقة الفكر والنظر المرشد إلى الإيمـــان وتصـــديق الرسول .

وفضلا عن ســوء الاعتقــاد باللّه ورســوله ، تركوا الشفقة على خلق اللّه ، كما قال تعـالى : « وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُـوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قـالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَـوْ يَشـاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ».

وهـذه آية من آيـات اللّه ، تـدعوهم إلى خـير ، وإلى بر وإحسان ، بأن ينفقـوا مما رزقهم اللّه ــ فمـاذا كـان جـوابهم على هـذه الـدعوة من صاحب الأمر ، وصاحب الرزق ؟ . كان جوابهم هو : ـ « قالَ الَّذِينَ كَفَـرُوا لِلَّذِينَ آمَنُـوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَـــوْ يَشـــاءُ اللَّهُ أَطْعَمَـــهُ ؟ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ »..

وهــذا جــواب خــبيث مــاكر ، يكشف عن كفر غليظ ..إنهم فى ســـــــبيل الغلب بالمماحكة والجدل ، يؤمنون باللّه ، ويؤمنون بمشيئته فى خلقه ، وبتصــــــــــريفه المطلق لكل أمر .. فيقولــون ردّا على قــول اللّه أو الرســول أو المؤمنين لهم : « أَنْفِقُــوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » ــ يقولون : « أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَــهُ ؟ » إن تلك هى مشــيئة اللّه فى هــؤلاء الجيــاع الذين ندعى إلى إطعامهم ..

إن اللّه أراد لهم أن يجوعــــــوا ، ولو أراد أن يطعمهم لأطعمهم .. فإنه قــــادر ، وخزائنه لا تنفـد!! فلم يـدعوننا نحن إلى إطعـامهم ، وهو القــادر ، ونحن العــاجزون ، وهو الغـنى ونحن الفقـــراء ؟ إن أنتم أيها المؤمنـــون « إِلَّا فِي ضَــلالٍ مُبِينٍ » ! لا تعرفــون اللّه ، ولا تقدرونه قدره!!.

وهــذا الــرد من المشــركين ، هو ردّ من خذله اللّه ، وأضــله على علم .. فهم إذ يــدعون إلى الإيمان باللّه ، لا يسمعون ، ولا يعقلون .. وهم إذا دعـــوا إلى ما تقتضـــيه دواعى المـــروءة الإنسانية ، من الإحسان إلى إخوانهم الفقراء ، يقيمــــــون من اللّه ، ومن علمه وقدرته حجة كيدية ، يبطلون بها الـدعوة الـتي يـدعون إليها ..ولو أنهم كـــانوا مؤمـــنين باللّه ، معـــترفين بمشــيئته فى خلقه ، لاســتجابوا لما يــدعوهم اللّه إليه ، من الإنفــاق فى ســبيل اللّه ..وفى الإظهار بدل الإضمار فى قوله تعـالى : « قـالَ

الَّذِينَ كَفَــرُوا » بــدلا من قــالوا ـــ كشف عن الوصف الذي هو ملتصق بهم ، وهو الكفر .."
أي وإذا طلب منهم الصدقة ، وأمـروا بالإنفـاق مما رزقهم اللّه على الفقـــــراء والمحـــــاويج ،أجابوا المؤمنين استهزاء بهم ، وتهكما بقولهم : هــؤلاء الــذين أمرتمونا بالإنفــاق عليهم : لو شـــــاء اللّه لأغنـــــاهم ، ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة اللّه تعالى فيهم.
وكان هذا الاحتجـاج بـاطلا ، لأن اللّه تعـالى إذا ملّك عبدا مالا ، ثم أوجب عليه فيه حقا ،فكأنه انـتزع ذلك القـدر منه ، فلا معـنى للاعـتراض. وقد صدقوا في قولهم : لو شــاء اللّه أطعمهم ، ولكن كذبوا في الاحتجاج بذلك.
وقوله : مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ تـرغيب في الإنفـاق ، فـإن اللّه رزقكم ، فـإذا أنفقتم فهو يخلف لكم الـــــــرزق ثانيا كما رزقكم أولا ، وهو أيضا ذم على البخل الـــذي هو في غاية القبح ، فــــإن أبخل البخلاء من يبخل بمال الغـير ، وفي هـذا ذم لهم على ترك الشفقة على خلق اللّه.
ومع هــذا كله ، عــابوا الآمــرين لهم بالإنفــاق واتهموهم بالضلال ، فقــالوا تتمة لكلامهم : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَـلالٍ مُبِينٍ أي ما أنتم في أمـركم لنا بالإنفـاق إلا في خطأ واضح ، وانحـراف عن جادة الهدى والرشاد.
وقوله إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا .. يفيد الحصـــر. وهـــذا فهم خطأ من المشـــركين ، لأن حكمة اللّه اقتضت تفاوت النـاس في الـرزق ، فهو يقبض الـرزق

عمن يشاء ، ويبسطه لمن يشـاء ، وَلَـوْ بَسَـطَ اللَّهُ الــرِّزْقَ لِعِبــادِهِ لَبَغَــوْا فِي الْأَرْضِ ، وَلكِنْ يُنَـزِّلُ بِقَـدَرٍ ما يَشـاءُ ، إِنَّهُ بِعِبـادِهِ خَبِـيرٌ بَصِـيرٌ [الشـورى 42/ـ 27] فقد أغـنى قوما ، وأفقر آخرين ، وأمر الفقـراء بالصـبر ، وأمر الأغنيـاء بالعطـــاء والشـــكر : فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْـنى ، فَسَنُيَسِّـرُهُ لِلْيُسْـرى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِـــلَ وَاسْـــتَغْنى ، وَكَـــذَّبَ بِالْحُسْـــنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى [الليل 92/ 5 - 10].

وقال الطـبري : " يَقُـولُ تَعَـالَى ذِكْـرُهُ : وَإِذَا قِيلَ لِهَؤُلَاءِ الْمُشْـرِكِينَ بِاللَّهِ : أَنْفِقُـوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ الَّذِي رَزَقَكُمْ ، فَـأَدُّوا مِنْـهُ مَا فَـرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِيـهِ لِأَهْـلِ حَـاجَتِكُمْ وَمَسْـكَنَتِكُمْ ، قَـالَ الَّذِينَ أَنْكَـرُوا وَحْدَانِيَّةَ اللَّهِ وَعَبَـدُوا مِنْ دُونِـهِ لِلَّذِينَ آمَنُـــوا بِاللَّهِ وَرَسُـــولِهِ : أَنُطْعِمُ أَمْوَالَنَا وَطَعَامَنَا مَنْ لَو يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ؟

وَفِي قَوْلِهِ : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ مِنْ قِيلِ الْكُفَّارِ لِلْمُـؤْمِنِينَ ، فَيَكُونُ تَأْوِيلُ الْكَلَامِ حِينَئِذٍ : مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْقَـوْمُ فِي قِيلِكُمْ لَنَا : أَنْفِقُـــــوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ عَلَى مَسَـاكِينِكُمْ ، إِلَّا فِي ذَهَـابٍ عَنِ الْحَـقِّ ، وَجَـوْرٍ عَنِ الرُّشْـدِ مُبِينٍ لِمَنْ تَأَمَّلَـهُ وَتَـدَبَّرَهُ ، أَنَّهُ فِي ضَـلَالٍ ؛ وَهَـذَا أَوْلَى وَجْهَيْـهِ بِتَأْوِيلِـهِ . وَالْوَجْـهُ الْآخَرُ : أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ قِيلِ اللَّهِ لِلْمُشْـرِكِينَ ، فَيَكُـونُ تَأْوِيلُـهُ حِينَئِذٍ : مَا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْكَـافِرُونَ فِي قِيلِكُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ : أَنُطْعِمُ مَنْ لَو يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَـــهُ ، إِلَّا فِي ضَـــلَالٍ مُبِينٍ ، عَنْ أَنَّ قِيلَكُمْ

ذَلِكَ لَهُمْ ضَلَالٌ " قال ابن كثير : " وفي هـذا نظر. "[88]

ومضات

إن تلك الآيات بذاتها لا تثير في قلـوبهم التطلع والتــدبر والحساســية والتقــوى. وهي بــذاتها كافية أن تثير في القلب المفتوح هزة ورعشة وانتفاضة وأن تخلطه بهذا الوجود. هذا الكتـاب المفتوح الـذي تشـير كل صـفحة من صـفحاته إلى عظمة الخالق ، ولطيف تـدبيره وتقـديره. ولكن هؤلاء المطموسـين لا يرونهـا. وإذا رأوها لا يتدبرونها. واللّه - لعظيم رحمته - لا يــتركهم مع هذا بلا رسول ينذرهم ويــوجههم ويــدعوهم إلى رب هذا الكون وبارئ هـذا الوجـود. ويثـير في قلــوبهم الحساســية والخــوف والتقــوى ويحــذرهم موجبــات الغضب والعــذاب ، وهي محيطة بهم ، من بين أيـديهم ومن خلفهم ، إلا ينتبهـــوا لها يقعـــوا فيها في كل خطـــوة من خطواتهم. وتتـوالى عليهم الآيـات مضـافة إلى الآيــــات الكونية الــــتي تحيط بهم في حيثما يتجهون. ولكنهم مع هـذا يظلـون في عمـايتهم سادرين : «وَإِذا قِيلَ لَهُمُ : اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَـةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ» ..

وإذا دعوا إلى إنفاق شيء من مـالهم لإطعـام الفقراء : قالوا ساخرين متعنتين : «أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ؟» ..

---

[88] - تفسير ابن كثير - (6 / 580)

وتطاولوا على من يدعونهم إلى الـبر والإنفـاق قـــــائلين : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَــــلالٍ مُبِينٍ»! وتصـــورهم للأمر على هـــذا النحو الآلي يشي بعدم إدراكهم لسنن اللّه في حياة العباد. فاللّه هو مطعم الجميع ، وهو رازق الجميـع. وكل ما في الأرض من أرزاق ينالها العبـــــــاد هي من خلقه ، فلم يخلقــوا هم لأنفســهم منها شــيئا ، وما هم بقادرين على خلق شــيء أصــلا. ولكن مشيئة اللّه في عمارة هـذه الأرض اقتضت أن تكـــون للنـــاس حاجـــات لا ينالونها إلا بالعمل والكد وفلاحة هـــذه الأرض وصـــناعة خاماتها ونقل خيراتها من مكــان إلى مكــان ، وتــداول هـذه الخـيرات وما يقابلها من سـلعة أو نقد أو قيم تختلف بـــاختلاف الزمـــان والمكـــان. كما اقتضت أن يتفـــاوت النـــاس في المـــواهب والاســـتعدادات وفق حاجـــات الخلافة الكاملة في هـــذه الأرض. وهـــذه الخلافة الكاملة في هـــذه الأرض. وهـــذه الخلافة لا تحتـــاج إلى المواهب والاسـتعدادات المتعلقة بجمع المـال والأرزاق وحـــدها ، إنما تحتـــاج إلى مـــواهب واســـتعدادات أخـــرى قد تحقق ضـــرورات أساسية لخلافة الجنس الإنسـاني في الأرض ، بينما يفوتها جمع المـــال والأرزاق ويعوزهـــا! وفي خلال هذا الخضم الواسع لحاجات الخلافة ومطالبها ، والمــواهب والاســتعدادات اللازمة لها ، وما يــترتب على هــذه وتلك من تــداول للمنـــافع والأرزاق ، وتصـــارع وتضـــارب في

الأنصــبة والحظــوظ .. في خلال هــذا الخضم الواسع المترابط الحلقـــات لا في جيل واحد ، بل في أجيـال متعـددة قريبة وبعيـدة ، ماضـية وحاضرة ومستقبلة.

في خلال هذا الخضم تتفاوت الأرزاق في أيدي العبـــاد .. ولكي لا ينتهي هـــذا التفـــاوت إلى إفسـاد الحيـاة والمجتمع ، بينما هو ناشئ أصلا من حركة الحيــاة لتحقيق خلافة الإنســان في الأرض ، يعـــالج الإســـلام الحـــالات الفردية الضرورية بخروج أصحاب الـثراء عن قـدر من مــالهم يعــود على الفقــراء ويكفل طعــامهم وضرورياتهم. وبهذا القدر تصلح نفـوس كثـيرة من الفقراء والأغنياء سواء. فقد جعله الإسـلام زكاة. وجعل في الزكاة معنى الطهارة.

وجعلها كــذلك عبــادة. وألف بها بين الفقــراء والأغنيــاء في مجتمعه الفاضل الــذي ينشــئه على غير مثال.

فقولة أولئك المحجوبين عن إدراك حكمة اللّه في الحيـــاة : «أَنُطْعِمُ مَنْ لَـــوْ يَشـــاءُ اللَّهُ أَطْعَمَـــهُ؟» .. وتطـــاولهم على الــداعين إلى الإنفاق بقولهم : «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» .. إن هو إلا الضلال المبين الحقيقي عن إدراك طبيعة ســـنن اللّه ، وإدراك حركة الحيـــاة ، وضـخامة هـذه الحركة ، وعظمة الغاية الـتي تتنــوع من أجلها المــواهب والاســتعدادات ، وتتوزع بسببها الأموال والأرزاق.

والإسـلام يضع النظـام الـذي يضـمن الفـرص العادلة لكل فـرد ، ثم يـدع النشـاط الإنسـاني المتنـــــوع اللازم للخلافة في الأرض يجـــــري مجراه النظيف. ثم يعالج الآثار السيئة بوسائله الواقية.[89]

وقـــال دروزة : " الآيـــات متصـــلة بالســـياق واستمرار له كما هو المتبادر. وفي ضـمير لَهُمُ هنا دلالة على هــذا الاتصــال والترابط كما هو كـذلك في الآيـات السـابقة. وعبارتها واضـحة. وقد احتوت الآيـات الأربع الأولى تقريـرات عن واقع أمر الكفــار ومبلغ مكــابرتهم وجحــودهم وغلظ قلوبهم. فهم يؤمرون باتقــاء غضب اللّه في الدنيا والآخرة فلا يبالون. وتأتيهم آيات اللّه فيعرضون عنها. ويقال لهم أنفقــوا مما رزقكم اللّه فيجيبــون ســاخرين : إن اللّه لو شــاء أن يـــــرزق الفقـــــراء ويطعمهم لما قتّر عليهم وحرمهم ، وإنكم في طلبكم هذا منّا في ضلال مبين ثم يتسـاءلون تسـاؤل السـاخر المتحـدي عن موعد العـذاب الـذي يوعـدون به إن كـان ذلك صدقا وحقا.

والآيــــات قوية التقرير والتنديد والإنــــذار. وقد احتـــوت صــــورا متنوعة لمواقف الكفـــار من دعــــوة اللّه وآياته ونبيــــه. والآية [47] بخاصة تــدلّ على أنه كــان يقع جــدل بين المؤمــنين والكفّــار في صــدد المبــادئ الــتي بشّــرت بها الــدعوة وآمن بها المؤمنـون وأن هـؤلاء كـانوا

[89] - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2970

يـــــدعون أولئك في جملة ما يـــــدعونهم إليه ويحاجونهم فيه إلى الـبرّ بـالفقراء ويـذكرونهم بـأن ما في أيـديهم من مـال إنما هو من رزق اللّه فلا يجوز أن يضنّوا به على المحتاجين من عبـاده وأن الكفـار كـانوا يجيبـونهم على هـذا بخاصة بجــــواب حجــــاجي ســــاخر وطريف يتهربون به مما يطلب منهم. وفي هـذا صـورة لما كـان من تـأثر المؤمـنين بالـدعوة ومبادئها وخاصة الــبرّ بـالفقراء والمعـوزين والجهد في نشـرها والـدعوة إليها ثم صـورة لما كـان من تـأثير ذلك في أغنيـاء الكفـار ، وقد كـان هـذا الموضـــوع من أبكر ما بشّـــر به القـــرآن ومن أبكر ما أثـار حقد الأغنيـاء والزعمـاء وحفّـزهم إلى التكتل والمعارضة وظـــلّ كـــذلك قويا إلى أن أدخله القـــرآن في نظـــام الدولة وميزانيتها على ما تلهم آيات أخرى بالإضافة إلى تكـراره وتوكيده في مختلف المناسبات والأساليب.

غير أننا نرى هنا أن ننوّه بالمعنى الجليل الـذي انطوى في تعبير أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ

وننبه على أن هـــذا قد تكـــرر كثـــيرا في ســـور مكية ومدنية بأســــاليب متنوعــــة. وجــــاء في بعضها بقوة وصراحة أكـثر حيث يبـدو من هـذا حكمة التنزيل في التوكيد عليه لإقـــــــراره في الأذهــــان. من ذلك آية ســــورة الرعد هــــذه :

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّـلاةَ وَأَنْفَقُـوا مِمَّا رَزَقْنـاهُمْ سِـرًّا وَعَلانِيَـةً وَيَـدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّـيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الـدَّارِ (22)

وآية سورة إبراهيم هذه : قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (31) وآية سورة البقرة هذه : الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وآية سورة آل عمران هذه : وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ ما بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ .. [180] وآية سورة النساء هذه : الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ عَذاباً مُهِيناً (37) وآية سورة النور هذه : وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مالِ اللَّهِ الَّذِي آتاكُمْ .. [33] وآية سورة الحديد هذه : آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (7)."[90]

ما ترشد إليه الآيات

دلت الآيات على أمور ثلاثة هي :

أولا - إن المشركين قوم تمادوا في الغي والضلال والعناد والكبر ، ولم يتأملوا في أحداث الماضي ، ووقائع الزمان ، وأحوال الأمم التي أهلكهم اللّه بتكذيبهم رسلهم ، ولم ينظروا في مستقبل الحياة الآخرة ، فتراهم إذا قيل لهم : اتقوا اللّه ، لا يتقون.

[90] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 33)

ثانيا - وهم أيضا شأنهم وديدنهم الإعــراض عن آيات اللّه ، والتكذيب لها ، وعدم الانتفــاع بها ، لـــتركهم النظر المـــؤدي إلى الإيمـــان باللّه وتصديق الرسول .

ثالثا - كما أنهم أخلّوا بتعظيم الخـالق ، حرمـوا العطف والشـفقة على الإنسـانية ، وانعـدمت عنــدهم عاطفة الرحمة بالمخلوقـات ، إذ قيل لهم : أنفقوا مما رزقكم اللّه ، فبخلوا وتهكموا ، وهو شأن البخلاء في كل عصر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَـالَ: قَـالَ رَسُـولُ اللـهِ : " السَّـــخِيُّ قَــرِيبٌ مِنَ اللـــهِ قَــرِيبٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ وبَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيـدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَــرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَلَفَــاجِرٌ سَــخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللـــهِ مِنْ عَابِدٍ بِخَيْلٍ، وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ "[91]

وقد بين الله تعـالى طبيعة الكفـار أيضـاً في موضع آخر حيث قـــال : {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَـــذِّبُ بِالـــدِّينِ (1) فَـــذَلِكَ الَّذِي يَـــدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3) } [الماعون : 1 - 3]

والإشارة مشاربها إلى هذا الذي يكذب بالـدين .. إنه ذلك الــذي « يَـدُعُّ الْيَتِيمَ » أي يقهــره ، ويذله ، ويـنزع عنه لبـاس الأمن والطمأنينة إذا وقع ليده ، وعاش فى ظله .. إن اليتيم ضعيف ، عـاجز ، أشـبه بـالطير المقصـوص الجنـاح ،

[91] - شعب الإيمان - (13 / 293)(10356) وسنن الترمذى(2088) ضعيف

يحتاج إلى اللطف ، والرعاية ، والحنان .. فـإذا وقع ليد إنســــــان قد خلا قلبه من الرحمة ، وجفت عواطفه من الحنــان والعطف ــ كــان أشــبه بفــرخ الطــير وقع تحت مخــالب نسر كاسر ، فيمــوت فزعا وخوفا ، قبل أن يمــوت تمزيقا ونهشا ..
وقوله تعــــــالى : « وَلا يَحُضُّ عَلى طَعــــــامِ الْمِسْكِينِ ». أي لا يدعو إلى إطعام المســكين ، ولا يجعل من رســالته فى النــاس إطعــام الجيــاع .. فــإن من لا يحمل همّ الجيــاع ، ولا يدعو النـاس إلى إطعـامهم ، لا يجد من نفسه الدافع الذي يدفعه إلى إطعامهم من ذات يـده .. ذلك أن الــذي يعــرف عنه فى النــاس أنه يحضّ على هــذه المكرمة وينــادى بها فيهم ــ يســتحى أن يــدعو إلى فعل ولا يفعله .. وإنك لن تجد بخيلا أبــدا يــدعو إلى الإحســان ، لأن كلمة الإحسان تفزعه ، حــتى لو نطق بها زورا وبهتانا .. فإذا دعا داع إلى الإحسان كان معنى هذا أنه يمكن أن يكون فى المحســنين يوما ما .. وهـذا هو السـرّ فى احتفـاء القـرآن الكـريم بــالحضّ على فعل المكــارم ، فمن حضّ على مكرمة ، وجعلها دعــوة له ، كــان قمينا بــأن يكـون من أهلها عملا ، بعد أن كـان من دعاتها قولا ..[92]

---

[92] - التفســير القــرآني للقـرآن ــ موافقا للمطبـوع - (15 / 1685)

" إن الذي يكذب بالدين هو الذي يـدفع اليـتيم دفعا بعنف - أي الـــذي يهين اليـــتيم ويؤذيـــه. والـــذي لا يحض على طعـــام المســـكين ولا يوصي برعايتــه. فلو صــدّق بالــدين حقا ، ولو اســتقرت حقيقة التصــديق في قلبه ما كــان ليـدع اليـتيم ، وما كـان ليقعد عن الحض على طعام المسكين.

إن حقيقة التصـديق بالـدين ليست كلمة تقـال باللسـان إنما هي تحـول في القلب يدفعه إلى الخير والـبر بإخوانه في البشـرية ، المحتـاجين إلى الرعاية والحماية. واللّه لا يريد من النـاس كلمـات. إنما يريد منهم معها أعمـالا تصـدقها ، وإلا فهي هباء ، لا وزن لها عنده ولا اعتبار.

وليس أصرح من هذه الآيـات الثلاث في تقرير هــذه الحقيقة الــتي تمثل روح هــذه العقيــدة وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل."[93]

وقال تعالى عن طبيعة الكفار أيضاً { إِنَّهُ كَـانَ لَا يُـــــؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (33) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْـكِينِ (34) }[الحاقة : 33 ، 34] فهناكَ تلازم حتمي بينهما .[94]

---

[93] - فى ظلال القرآن ـ موافقا للمطبوع - (6 / 3985)

[94] - انظر تفسيرها فى ظلال القرآن ـ موافقا للمطبوع - (6 / 3683)

إنكار الكفار يوم البعث وبيان أنه حق لا شك فيه

قال تعالى :

ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ
ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ
ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ
ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

48 ... مَتَى هَذَا الوَعْدُ ... استبعاد الكفار لقيام الساعة

49 ... صَـيْحَةً وَاحِـدَةً ... نفخة الصـعق الـتي يموتون فيها

49 ... و هُمْ يَخِصِّـمُونَ ... أي يتخاصـمون في البيع والشراء

51 ... و نُفِخَ فِي الصُّـــورِ ... هي نفخة البعث والنشور

51 ... الأَجْدَاثِ ... القبور

51 ... يَنْسِلُونَ ... يسرعون في الخروج

52 ... مِنْ مَرْقَـدِنَا ... يموتـون بين النفخـتين الصعق والبعث

53 ... صَيْحَةً وَاحِدَةً ... نفخة البعث

53 ... مُحْضَـرُونَ ... مجموعـون محشـورون للحساب والجزاء

المناسبة :

بعد بيـــان إعـــراض الكفـــار عن التقـــوى ، وامتناعهم من الإنفاق ، أبان اللّه تعـالى سـبب

ذلك وهو إنكــارهم للبعث ، واســتعجالهم له ، اســـتهزاء به ، ثم أوضح أنه حق لا مرية فيه ، وأنه سيأتيهم المـوت بغتة ، وهم في غفلة عنه ، وأن البعث أمر ســهل على اللّه لا يحتــاج إلا إلى نفخة واحدة في الصور.

التفسير والبيان :

يخـبر اللّه تعـالى عن اسـتبعاد الكفـرة لقيـام السـاعة في قـولهم : وَيَقُولُـونَ : « وَيَقُولُـونَ مَتى هذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ »." الوعد : هو يـوم القيامة ، الـذي يعـدهم الرسـول به ، ويـــدعوهم إلى الاســـتعداد للقائـــه.وســـؤال المشـــركين عن موعد هـــذا اليـــوم ، هو على سبيل التكذيب به ،والإنكار له .. لا سؤال الذي جهل ، ويريد أن يعـرف .. ولهـذا فهم يعقبـون على هذا السؤال بقولهم : « إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ».. وقولهم هذا للنبى والمؤمنين معه .. هو قول الشاك فى صدق من يسأله ، بل هو قول من يتهم وينكر."

أي ويقـــول المشـــركون اســـتعجالا للبعث اسـتهزاء وسـخرية وتهكما بـالمؤمنين : مـتى يـــأتي هـــذا الوعد بـــالبعث الـــذي وعـــدتمونا به،وتهددونا به ،إن كنتم صـادقين فيما تقولـون وتعدون؟!

والخطـــاب للرســـول والمؤمـــنين الـــذين دعـــوهم إلى الإيمـــان باللّه وبـــاليوم الآخر ، فأجـابهم اللّه تعـالى :« ما يَنْظُـرُونَ إِلَّا صَـيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ »

" أي ما ينظر هـؤلاء المشـركون المكـذبون بيـوم القيامة ، إلّا صـيحة واحـدة تطلع عليهم من حيث لا يحتسبون ، فتأخذهم وهم في هـذا الجـدل والاختصـام فيما يشـغلهم من أمـور دنياهم ، وفيما يختصمون فيه مع المؤمنين فى أمر هذا اليوم "

أي ما ينتظـرون للعـذاب والقيامة إلا نفخة واحـدة في الصـور ، هي نفخة الفـزع الـتي يمـوت بها جميع أهل الأرض فجـأة ، وهم يختصـمون فيما بينهم في الـبيع والشـراء ونحوهما من أمـور الـدنيا أي وهم متشـاغلون في شؤون الحياة من معاملة وحـديث وطعـام وشـراب وغـير ذلك ، كما قـال تعـالى : فَأَخَذْناهُمْ بَغْتَةً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ [الأعراف 7/ 95] وقال سبحانه : هَـلْ يَنْظُـرُونَ إِلَّا السَّـاعَةَ أَنْ تَـأْتِيَهُمْ بَغْتَـةً ، وَهُمْ لا يَشْـعُرُونَ [الزخـرف 43/ 66].

وقوله جل وعز : إِلَّا صَـيْحَةً واحِـدَةً هي النفخة الأولى في الصور ، كما قـال عكرمة ، ويؤيـده ما رواه ابن جرير عَنْ عَبْـدِ اللَّهِ بْنِ عَمْـرٍو ، قَـالَ : " لَيَنْفُخَنَّ فِي الصُّـورِ ، وَالنَّاسُ فِي طُـرُقِهِمْ وَأَسْـوَاقِهِمْ وَمَجَالِسِـهِمْ ، حَتَّى إِنَّ الثَّوْبَ لَيَكُـونَ بَيْنَ الـرَّجُلَيْنِ يَتَسَـاوَمَانِ ، فَمَا يُرْسِلُهُ أَحَدُهُمَا مِنْ يَدِهِ حَتَّى يُنْفَخَ فِي الصُّـورِ ، وَحَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ فَلَا يَرْجِـعُ حَتَّى يَنْفُخَ فِي الصُّـورِ ، وَهِيَ الَّتِي قَـالَ اللَّهُ : مَا

يَنْظُــرُونَ إِلَّا صَــيْحَةً وَاحِــدَةً تَأْخُــذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً . . الْآيَةَ "[95].

وأخرج البخاري عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - قَـالَ « لاَ تَقُـومُ السَّـاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّـمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَـإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُـوا أَجْمَعُـونَ ، فَـذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ، لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَـبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْـرًا ، وَلَتَقُـومَنَّ السَّـاعَةُ وَقَـدْ نَشَـرَ الـرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلاَ يَتَبَايَعَانِـهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّـاعَةُ وَقَـدِ انْصَـرَفَ الرَّجُــلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِــهِ فَلاَ يَطْعَمُــهُ ، وَلَتَقُــومَنَّ السَّـاعَةُ وَهْـوَ يَلِيـطُ حَوْضَـهُ فَلاَ يَسْـقِى فِيـهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَـعَ أُكْلَتَـهُ إِلَى فِيـهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا »[96]

وعَنْ أَبِى هُرَيْـرَةَ أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ - ﷺ - قَـالَ « لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَقْتَتِلَ فِئَتَـانِ عَظِيمَتَـانِ ، يَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَـةٌ ، دَعْوَتُهُمَا وَاحِـدَةٌ ، وَحَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ ، قَرِيبٌ مِنْ ثَلاَثِينَ ، كُلُّهُمْ يَــزْعُمُ أَنَّهُ رَسُــولُ اللَّهِ ، وَحَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ ، وَتَكْثُــرَ الــزَّلاَزِلُ ، وَيَتَقَــارَبَ الزَّمَــانُ ، وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ ، وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهْوَ الْقَتْلُ ، وَحَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمُ الْمَالُ فَيَفِيضَ ، حَتَّى يُهِمَّ رَبَّ الْمَالِ مَنْ يَقْبَلُ صَدَقَتَهُ ، وَحَتَّى يَعْرِضَـهُ فَيَقُـولَ الَّذِى يَعْرِضُـهُ عَلَيْـهِ لاَ أَرَبَ لِى بِـهِ . وَحَتَّى يَتَطَـاوَلَ

[95] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (26808) صحيح لغيره

[96] - صــحيح البخــارى (6506) -اللقحة : الناقة ذات اللبن قريبة العهد بالولادة -يليط : يطين ويصلح

النَّاسُ فِى الْبُنْيَـانِ ، وَحَتَّى يَمُـرَّ الرَّجُـلُ بِقَبْـرِ الرَّجُـلِ فَيَقُـولُ يَا لَيْتَنِى مَكَانَـهُ . وَحَتَّى تَطْلُـعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ، فَإِذَا طَلَعَتْ وَرَآهَا النَّاسُ - يَعْنِى - آمَنُـوا أَجْمَعُـونَ ، فَـذَلِكَ حِينَ لاَ يَنْفَـعُ نَفْسًـــا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْـــلُ ، أَوْ كَسَـبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْـرًا ، وَلَتَقُـومَنَّ السَّـاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الـرَّجُلاَنِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا ، فَلاَ يَتَبَايَعَانِـهِ وَلاَ يَطْوِيَانِهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّـاعَةُ وَقَـدِ انْصَـرَفَ الرَّجُـلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِـهِ فَلاَ يَطْعَمُـهُ ، وَلَتَقُـومَنَّ السَّـاعَةُ وَهْـوَ يُلِيـطُ حَوْضَـهُ فَلاَ يَسْـقِى فِيـهِ ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَـعَ أُكْلَتَـهُ إِلَى فِيـهِ فَلاَ يَطْعَمُهَا » .[97]

ثم أبان تعالى سرعة حـدوث المـوت العـام أو الصـيحة ، فقـال:« فَلا يَسْـتَطِيعُونَ تَوْصِـيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ».

" أي أن هـذه الصـيحة الـتي تـنزل بهم ، إنما تـــأتيهم بغتة ، فلا تـــدع لهم ســـبيلا إلى أن يتصـــرفوا فى شـــيء مما فى أيـــديهم ، أو أن يوصوا بشيء منه إلى من يودون إيثاره بشيء مما كـــانوا يحرصـــون عليه ، وقد أوشك أن يفلت من أيـــــديهم ، كما لا يســــتطيعون أن يرجعـوا إلى أهلهم وأمـوالهم بعد مـوتهم .. أو أنهم لا يســتطيعون أن يرجعــوا إلى أمــوالهم وأهليهم ، إذا جـاءهم المـوت ، وهم فى مكـان بعيد عنهم .. إن المـــوت لا ينتظـــرهم لحظة واحدة ، إذا جاء أجلهم .."

---

[97] - صحيح البخارى(7121)

ثم أخــبر اللّه تعــالى عن نفخة ثانية هي نفخة البعث والنشور من القبور،فقـال : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ».".
وإذا كان هـؤلاء المقبـورون من المشـركين ،لا يرجعون إلى أهليهم،فإنهم سيرجعون إلى اللّه ، وســيلقون جــزاء ما كــانوا يعملــون .. فكما ماتوا بصـيحة واحـدة ، فـإنهم سـيبعثون كـذلك بنفخة واحدة."
أي ونفخ في الصـــــور نفخة ثانية للبعث والنشــور من القبــور ،فــإذا جميع المخلــوقين يخرجــون من القبــور ،يســرعون المشي إلى لقـــاء ربهم للحســـاب والجـــزاء ،كما قـــال تعالى:يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً،كَأَنَّهُمْ إِلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ [المعارج 70/ 43].
ثم ذكر ما يطرأ عليهم بعد البعث من الأهــوال والمخـاوف فقـال تعـالى : « قـالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَـــــدِنا ؟ ». " وتأخذ المفاجـــــأة المشركين والكافرين ، لأنهم كانوا لا يتوقعـون نشورا ، فيفزعهم هذا البعث ، ويتنادون بالويل .. لأنهم لا يدرون ماذا يراد بهم فى هذا العـالم الجديد الذي أخذوا إليه ؟ ويأخذهم العجب من تلك اليقظة الــتي أخــرجتهم من هــذا النــوم الطويل .. « مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا » ؟ ويجيئهم الجــواب : « هــذا ما وَعَــدَ الــرَّحْمنُ وَصَــدَقَ الْمُرْسَلُونَ ».. هذا ما كنتم به تكذبون!"

أي قــال المبعوثــون : يا هلاكنا من الــذي بعثنا من قبورنا بعد موتنا؟ وهي قبورهم التي كـانوا يعتقــدون في دار الــدنيا أنهم لا يبعثــون منها ، وظنوا لما شاهدوا من الأهوال وما اســتبد بهم من الفــزع ، أنهم كــانوا نيامــا.وهــذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشـدة كالرقـاد. « هـذا ما وَعَـدَ الـرَّحْمنُ وَصَـدَقَ الْمُرْسَـلُونَ ». أي هـذا ما وعد به اللّه وصـدق في الإخبـار عنه الأنبيـاء المرسـلون ، فهم رجعوا إلى أنفسهم ، فاعترفوا أنهم بعثـوا من المـوت ، وأقـروا بصـدق الرسل ، يـوم لا ينفع التصديق. فهـذا الكلام من قـول الكفـار ، وهو رأي عبد الـــــرحمن بن زيد ، واختـــــاره الشوكاني وغيره.

واختــار ابن جرير وابن كثــير أن هــذا جــواب الملائكة أو جــواب المؤمــنين ، كقوله تبــارك وتعالى : وَقالُوا : يا وَيْلَنا هذا يَـوْمُ الـدِّينِ. هـذا يَوْمُ الْفَصْـلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِـهِ تُكَـذِّبُونَ [الصـافات 37/ 20 - 21].

ثم أوضح اللّه تعـالى سـرعة البعث ، فقـال « إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيـعٌ لَـدَيْنا مُحْضَرُونَ ».

" «صيحة » خبر كان منصوب ، واسمها ضمير يعـــود على الصـــيحة فى قوله تعـــالى : « ما يَنْظُـــرُونَ إِلَّا صَـــيْحَةً واحِـــدَةً تَأْخُـــذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّـمُونَ ».. أي ما كـانت الصـيحة إلا صـيحة

واحــدة ، أخــرجتهم من قبــورهم ، ثم جمعتهم فى المحشر بين يدي اللّه .."
أي ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة ، فإذا هم أحيــاء مجموعــون لــدينا بســرعة للحســاب والجــزاء ، كما قــال تعــالى : فَإِنَّما هِيَ زَجْـرَةٌ واحِدَةٌ ، فَإِذا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [النازعات 79/ 13 -ـ 14] وقــال عز وجل : وَما أَمْـرُ السَّـاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ، أَوْ هُوَ أَقْرَبُ [النحل 16/ 77].
وأردف بعدئذ ما يكـــــون في ذلك من القضـــــاء العــادل ، فقــال تعــالى : « فَـالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَـيْئاً وَلا تُجْـزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُـونَ » "أي ففي هذا اليــوم ، يلقى كل إنســان جــزاء ما عمل ، فلا تظلم نفس شيئا ، فالمســيء لا يلقى من الجــزاء إلا بقدر إساءته ، والمحسن لا يبخس من إحسانه شيء ، بل يوفّاه مضاعفا ..."

ومضات

وأخيرا يجيء شكهم في الوعد ، واســتهزاؤهم بالوعيد : «وَيَقُولُونَ مَـتى هـذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟» ..ووعد اللّه لا يســتقدم لاســتعجال البشر ولا يســتأخر لرجــائهم في تــأخيره. فكل شيء عند اللّه بمقدار. وكل أمر مرهون بوقته المرسوم. إنما تقع الأمــور في مواعيــدها وفق حكمة اللّه الأزلية الـــتي تضع كل شـــيء في مكانه ، وكل حـــــادث في إبانه ، وتمضي في تصــريف هــذا الكــون وما فيه ومن فيه وفق النظام المقدر المرسوم في إمام مبين.

أما الرد على هـذا السـؤال المنكر فيجيء في مشـــهد من مشـــاهد القيامة يـــرون فيه كيف يكون ، لا متى يكون ..

«ما يَنْظُـرُونَ إِلَّا صَـيْحَةً واحِـدَةً تَأْخُـذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّـــمُونَ. فَلا يَسْـــتَطِيعُونَ تَوْصِـــيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ. وَنُفِخَ فِي الصُّـورِ فَـإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْـداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِـلُونَ. قـالُوا : يا وَيْلَنـا! مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَـدِنا؟ هـذا ما وَعَـدَ الـرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ. إِنْ كانَتْ إِلَّا صَـيْحَةً واحِـدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ» ..

يسأل المكـذبون : «مَـتى هـذَا الْوَعْـدُ إِنْ كُنْتُمْ صـادِقِينَ» .. فيكـون الجـواب مشـهداً خاطفا سـريعا .. صـيحة تصـعق كل حي ، وتنتهي بها الحياة والأحياء : «ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِـيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ» ..

فهي تأخذهم بغتة وهم في جدالهم وخصـامهم في معـترك الحيـاة ، لا يتوقعونها ولا يحسـبون لها حســابا. فــإذا هم منتهــون. كل على حاله الـتي هو عليهـا. لا يملك أن يوصي بمن بعـده. ولا يملك أن يرجع إلى أهله فيقـــول لهم كلمة .. وأين هم؟ إنهم مثله في أمــاكنهم منتهــون! ثم ينفخ في الصـــور فـــإذا هم ينتفضـــون من القبـــور. ويمضـــون ســـراعا ، وهم في دهش وذعر يتساءلون : «مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا؟». ثم تزول عنهم الدهشة قليلا ، فيدركون ويعرفـون : «هذا ما وَعَدَ الـرَّحْمنُ وَصَـدَقَ الْمُرْسَـلُونَ»!

ثم إذا الصيحة الأخيرة. صيحة واحدة. فإذا هذا الشتيت الحائر المـذهول المسـارع في خطـاه المدهوش.

يثـوب : «فَـإِذا هُمْ جَمِيـعٌ لَـدَيْنا مُحْضَـرُونَ» .. وتنتظم الصفوف ، ويتهيأ الاسـتعراض في مثل لمح البصر ورجع الصـدى. وإذا القـرار العلـوي في طبيعة الموقف ، وطبيعة الحساب والجزاء يعلن على الجميع : «فَــــالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» ..

وفي هذه السـرعة الخاطفة الـتي تتم بها تلك المشـــاهد الثلاثة تناسق في الـــرد على أولئك الشاكين المرتابين في يوم الوعد المبين![98]

وقـــال دروزة : " فالموعد آت لا ريب فيـــه. وســـتأتيهم الصـــيحة بغتة وهم لاهـــون في أشـغالهم وخصـوماتهم فيهلكـون حيث هم فلا يرجعون إلى أهلهم ولا يجدون الفرصة لوصـية يوصون بها.

الآيـــات اســـتمرار للســـياق الســـابق كما هو المتبادر حيث جاءت لتصـوير الحالة في اليـوم الموعـود الـذي حكت الآيـات السـابقة سـؤال الكفـــار عنه وردّت عليهم مؤكـــدة منـــذرة ، وعبارتها واضـحة لا تحتـاج إلى أداء آخـر. وقد احتوت صـورة للبعث الأخـروي وما يكـون فيه من مصير المؤمـنين والكفـار جـزاء لما كسـبه كل منهم في الحياة الدنيا ، وما سـوف يشـعر الكفّار به من حقيقة ما وعـدوا وصـدق الرسل

---

[98] - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2971

الــذين أنــذروا به وما ســوف يخــاطب اللّه به المجرمين من خطاب فيه تنديد وتبكيت.
وأســلوب الآيــات قــوي أخّــاذ كســابقاتها ، من شأنه إثارة الخوف والــرعب في الكفــار وبعث الطمأنينة والرضى في المؤمـــــــنين وهو مما استهدفته من دون ريب."[99]

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :
1 - كــان الــرد الحاسم على اســتعجال الكفــار قيــام الســاعة اســتهزاء أنها تــأتي فجــأة كلمح البصر أو هي أقــرب ، وتحــدث بنفخة واحــدة هي نفخة إســـرافيل في وقت يختصم النـــاس في أمور دنياهم ، فيموتون في مكانهم. وهــذه نفخة الصّعق.
2 - من آثار الموت المفاجئ بتلك النفخة أنهم لا يتمكنــون من العــودة إلى ديــارهم إذا كــانوا خـــارجين منها ، ولا يســـتطيعون الإيصـــاء إلى غــيرهم بما لهم وما عليهم. وقيل : لا يســتطيع أن يوصي بعضـــهم بعضا بالتوبة ، بل يموتـــون في أسواقهم ومواضعهم.
3 - ثم تـــــأتي النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور من القبــور ، فهما نفختــان ، لا ثلاث ، بدليل هــذه الآية : وَنُفِخَ فِي الصُّــورِ ، فَــإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ.
عن أبي هُرَيْـــرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ قَـــالَ : " بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ " قَالُوا : يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُــونَ

[99] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 36)

يَوْمًا ، قَالَ : أَبَيْتُ ، قَالَ : أَرْبَعُونَ سَنَةً ، قَالَ : أَبَيْتُ ، قَـالَ : أَرْبَعُـونَ شَـهْرًا ، قَـالَ : " أَبَيْتُ وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ ، إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِـهِ ، فِيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ "[100]

وعَنْ قَتَادَةَ ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْـرَى فَـإِذَا هُمْ قِيَـامٌ يَنْظُرُونَ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ : " بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ " قَـالَ أَصْـحَابُهُ : فَمَا سَـأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِـكَ ، وَلَا زَادَنَا عَلَى ذَلِـكَ ، غَيْـرَ أَنَّهُمْ كَـانُوا يَـرَوْنَ مِنْ رَأْيِهِمْ أَنَّهَا أَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُبْعَثُ فِي تِلْكَ الْأَرْبَعِينَ مَطَرٌ يُقَالُ لَهُ مَطَرُ الْحَيَـاةِ ، حَتَّى تَطِيبُ الْأَرْضُ وَتَهْتَـــزُّ ، وَتَنْبُتُ أَجْسَـــادُ النَّاسِ نَبَاتَ الْبَقْلِ ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الثَّانِيَةَ فَـإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ ، سَأَلَ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ : كَيْـــفَ يُبْعَثُ الْمُؤْمِنُـــونَ يَـــوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ قَالَ : " يُبْعَثُونَ جُـرْدًا مُـرْدًا مُكَحَّلِينَ بَنِي ثَلَاثِينَ سَنَةً "[101]

وقَـالَ الْبَلْخِيُّ بْنُ إِيَـاسٍ : سَـمِعْتُ عِكْرِمَــةَ ، يَقُولُ فِي قَوْلِهِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ الْآيَــةَ ، قَــالَ : الْأُولَى مِنَ الــدُّنْيَا ، وَالْأَخِيرَةُ مِنَ الْآخِرَةِ "[102]

4 - يتعجب أهل البعث ويذهلون ويفزعون مما يـرون من شـدائد الأهـوال ، فيتسـاءلون عمن أخرجهم من قبورهم ، مفضلين عذاب القــبر ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد.

---

[100] - صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (4814)
[101] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (27853)
[102] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (27852)

5 - النفخة الثانية أيضا وهي نفخة البعث والنشور سريعة جدا ، فإذا حدثت تجمّع الناس جميعا وحضـــروا مســـرعين إلى لقـــاء ربهم للحساب والجزاء ، كما قـال تعـالى : مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ [القمر 54/ 8].

6 - الحساب حق وعـدل ، والجـزاء قـائم على العـدل المطلق ، فلا ينقص من ثـواب العمل أي شيء مهما قل ، ولا يجـزى النـاس إلا على وفق ما عملوا من خير أو شر.

جزاء المحسنين

قال تعالى :

ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ
ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

55 ... شُغُلٍ ... هم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم

55 ... فَاكِهُونَ ... متلذذون معجبون

56 ... الأَرَائِكِ ... هي السـرر تحت الحجـال (الغرف المزخرفة)

57 ... وَلَهُمْ مَّا يَـدَّعُونَ ... ما يتمنـون وما يطلبون

58 ... سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَّبٍّ رَّحِيمٍ ... يسلم الله سبحانه عليهم

المناسبة :

بعد أن بيّن اللّه تعالى حدوث البعث لا شك فيه ، وما يكون في يوم القيامة من الجزاء العادل ، بيّن هنا ما أعده للمحسنين ، ثم أعقبه في الآيات التالية بما أعده للمسيئين ، ترغيبا في العمل الصالح ، وترهيبا من سوء الأعمال.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعالى عن حال أهل الجنة فيقول : « إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فـاكِهُونَ » " هـذا ما يلقّـاه المؤمنـون فى هـذا اليـوم الـذي يسـاق فيه المشـركون إلى موقف الحسـاب

والجـزاء .. وهـذا الخـبر هو تشـويق للمؤمـنين إلى هـذا الجـزاء الكـريم الـذي وعـدوا به من ربّهم .. ثم هو فى الـــــوقت نفسه عـــــزل للكافرين عن هذا المقام ، ومضاعفة للحسـرة فى قلــوبهم .. وســمي أهل الجنة أصــحابها ، تمكينا لهم منها ، وإطلاقا لأيـــديهم بالتصـــرف فى كل شــيء فيها ، شــأنهم فى هــذا شــأن المالك فيما ملك .. فضلا من اللّه وإحسانا.

وشغل أصحاب الجنة فى الجنة ، هو ما يلقّـون من ألوان النعيم ، حيث يشـغل هـذا النعيم كل لحظة من حياتهم ، إذ يجـيئهم ألوانا وصـنوفا ، فـإذا هم في أحــوال متغـايرة متشـابهة معا .. تغـــايرة فى صـــورها وآثارها ، متشــــابهة فى إسعاد النفـوس ونعيمها .. وهـذا ما يشـير إليه قوله تعــالى : «كُلَّما رُزِقُــوا مِنْها مِنْ ثَمَــرَةٍ رِزْقاً قالُوا هـذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْـلُ وَأُتُـوا بِـهِ مُتَشــــابِهاً » (25 : البقـــرة) وفــــاكهون : أي منعّمــون بما يســاق إليهم من ألــوان النعيم ، وأصــــله من الفاكهة ، إذ كـــانت من طيبـــات المطــاعم .. ومنه الفكاهة ، وهي التخــير من طرف الكلام وملحه."

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللـهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَــلَّمَ: " يَقُــولُ اللــهُ عَــزَّ وَجَــلَّ: أَعْـدَدْتُ لِعِبَـادِي الصَّـالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ قَرَأَ: { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـــرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [السـجدة: 17] وَفِي

رِوَايَةِ أَبِي مُعَاوِيَةَ " مِنْ قُـرَّاتِ أَعْيُنٍ جَـزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِ[103]

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، وَهُـوَ يَصِـفُ الْجَنَّةَ حَتَّى انْتَهَى ثُمَّ قَـالَ فِيهَـا: " مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَـرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: { تَتَجَافَى جُنُـوبُهُمْ عَنِ الْمَضَـاجِعِ } [السـجدة: 16] " الْآيَتَيْنِ قَـالَ أَبُو صَخْرٍ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلْقُرَظِيِّ فقَالَ: إِنَّهُمْ أَخْفَوْا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَمَلًا وَأَخْفَى لَهُمْ ثَوَابًا قَدِمُوا عَلَى اللـهِ عَـزَّ وَجَـلَّ فَـأَقَرَّ تِلْـكَ الْأَعْيُنَ . "أَخْرَجَـهُ مُسْلِمٌ[104]

وعن الشَّـعْبِيِّ ، قـالَ : سَـمِعْتُ الْمُغِـيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ ، يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَـرِ ، عَنِ النَّبِيِّ : إِنَّ مُوسَى سَأَلَ رَبَّهُ : أَيُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَدْنَى مَنْزِلَةً ؟ قَـالَ : رَجُـلٌ يَجِيءُ بَعْـدَمَا يَـدْخُلُ - يَعْنِي أَهْـلَ الْجَنَّةِ - الْجَنَّةَ فَيُقَـالُ : ادْخُـلِ الْجَنَّةَ ، فَيَقُـولُ : كَيْـفَ أَدْخُـلُ الْجَنَّةَ وَقَـدْ نَـزَلَ النَّاسُ مَنَـازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ ؟ فَيَقُولُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَـكَ مِنَ الْجَنَّةِ مِثْـلُ مَا كَـانَ لِمَلِـكٍ مِنْ مُلُـوكِ الدُّنْيَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ أَيْ رَبِّ. فَيُقَالُ : لَكَ هَـذَا وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، رَضِيتُ ، فَيُقَالُ لَهُ : إِنَّ لَكَ هَذَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهِ ، فَيَقُـولُ : أَيْ رَبِّ ، رَضِيتُ. فَيُقَالُ لَهُ : لَـكَ مَـعَ هَـذَا مَا

103 - شعب الإيمان - (1 / 589) (377) وصحيح البخارى (3244) ومسلم (7310)

104 - شعب الإيمان - (9 / 198)(6514) ومسلم (7313)

اشْتَهَتْ نَفْسُـكَ وَلَـذَّتْ عَيْنُـكَ. وَسَأَلَ رَبَّهُ : أَيُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَرْفَعُ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : سَـأُحَدِّثُكَ عَنْهُمْ ، غَرَسْتُ كَـرَامَتَهُمْ بِيَـدِي ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا ، فَلاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَـمِعَتْ ، وَلاَ خَطَـرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَمِصْدَاقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى : {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـــــرَّةِ أَعْيُنٍ} الآيَةَ.[105]

وعَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيْسٍ ، عَنْ أَبِيــهِ ، عَنِ النَّبِيِّ ، قَالَ : جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا ، وَمَا فِيهِمَا وَجَنَّتَـــــانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا ، وَمَا فِيهِمَا وَمَا بَيْنَ الْقَــــوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُـــرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلاَّ رِدَاءُ الْكِبْـــــرِ عَلَى وَجْهِـــــهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ."[106]

وقَالَ أَبُو الْمُدِلَّةِ عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْـدِ اللـهِ مَـوْلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْـرَةَ ، يَقُـولُ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبَنَا ، وَكُنَّا مِنْ أَهْــلِ الآخِـرَةِ ، وَإِذَا فَارَقْنَـاكَ أَعْجَبَتْنَا الـدُّنْيَا ، وَشَـمَمْنَا النِّسَـاءَ وَالأَوْلاَدَ ، فَقَـالَ : لَـوْ تَكُونُـونَ عَلَى كُـلِّ حَـالٍ عَلَى الْحَـالِ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَـةُ بِـأَكُفِّكُمْ ، وَلَـوْ أَتَّكُمْ فِي بُيُــوتِكُمْ ، وَلَــوْ لَمْ تُــذْنِبُوا لَجَــاءَ اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُـذْنِبُونَ كَيْ يَغْفِـرَ لَهُمْ ، قَـالَ : قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ مَا بِنَاؤُهَا ؟ قَالَ : لَبِنَــةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، وَلَبِنَــةٌ مِنْ فِضَّــةٍ وَمِلاَطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ أَوِ الْيَـاقُوتُ ،

---

[105] - صحيح ابن حبان - (14 / 99) (6216) صحيح

[106] - صحيح ابن حبان - (16 / 395) (7386) صحيح

وَتُرَابُهَا الزَّعْفَـــرَانُ ، مَنْ يَـــدْخُلْهَا يَنْعَمْ ، فَلاَ يَبْـؤُسُ ، وَيَخْلُـدْ لاَ يَمُـوتُ لاَ تَبْلَى ثِيَابُـهُ ، وَلاَ يَفْنَى شَـبَابُهُ ، ثَلاَثَـةٌ لاَ تُـرَدُّ دَعْـوَتُهُمُ : الإِمَـامُ الْعَـادِلُ ، وَالصَّـائِمُ حِينَ يُفْطِـرُ ، وَدَعْـوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَـامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْـوَابُ السَّمَاوَاتِ ، وَيَقُولُ الـرَّبُّ : وَعِـزَّتِي لأَنْصُـرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ."[107]

وقوله تعالى : « هُمْ وَأَزْواجُهُمْ ».. إشـارة إلى أن أهل الجنة يجـدون نعيما خاصا ، فى صـور من الحيـاة الـتي كـانوا يحيونها فى دنيـاهم ، ومن هذه الصـور ، هـذا الإلف الـذي يجمع بين الـــزوج وزوجه ، وبين الوالـــدين وأولادهم .. فهـذه رغيبة من رغـائب النـاس فى الحيـاة ، يســعد بها من وجـــدها فى زوجه وولــده ، ويشـــتهيها من حرمها ، فلم يجد الــــزوج الموافقة ، ولا الولد الــذي يســعد به .. فــإذا كانت الآخرة ، كـان من مطـالب أهل الجنة أن يستعيدوا ما كانوا يجيدون من نعيم فى دنياهم ، وأن ينالوا ما كانوا يشتهونه ولا يجدون سـبيلا إليه .. وهذا ــ كما قلنا غـير مـرة ــ هو التأويل لهـذا النعيم الحسى ، ولهـذه الصـور الدنيوية من ذلك النعيم ، الــذي يــدخل على أصــحاب الجنة مع نعيم الجنة ..وهذا مثل قوله تعـالى : « وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمـانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » (21 : الطور) فـالمراد بـالأزواج هنا ، الزوجات المؤمنـات اللاتي أدخلن الجنة ،

[107] - صحيح ابن حبان - (16 / 396) (7387) صحيح

فيكون من تمـام النعمة عليهن وعلى أزواجهن ، أن يجتمع بعضهم إلى بعض.
وليس التمتع وحــــــــدهم وإنما هم في أنس وســــرور مع أزواجهم ، فقــــال تعــــالى : هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ ، عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِـؤُنَ أي إنهم وحلائلهم في الجنة في ظلال الأشــــجار التي لا تصيبها الشـمس ، لأنه لا شـمس فيها ، وهم فيها متكئــون على الســرر المســتورة بالخيام والحجـال (المظلة السـاترة). والأرائك كما بينا : الأسـرّة الـتي في الحجـال. وهـذه المتعة في الظلال ، وعلى الأسـرّة والفــرش الوثـــيرة الناعمة هي حلم الإنســـان وغاية ما يطمح إليه.
والمتعة ليست روحية وإنما هي مادية ، فقــال تعـالى : لَهُمْ فِيها فاكِهَـةٌ ، وَلَهُمْ ما يَـدَّعُونَ أي تقـــــدم لهم الفواكه من جميع أنواعها ، ولهم غــير ذلك كل ما يتمنــون ويشــتهون ، فمهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذّ." أي لهم ما يشاءون ، وما يطلبون ، غير ما يقـدّم إليهم من غير طلب .."
" وأطلقت الفاكهة من غـير تحديد ، لتشـمل كل فاكهة ، فيتخـيرون منها ما يشـاءون ، كما يقول سبحانه : « وَفاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ » (2 : الواقعة)"
وقوله : لَهُمْ فِيها فاكِهَـــةٌ ولم يقل «يــأكلون» إشارة إلى اختيارهم وملكهم وقدرتهم.

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ قَالَ رَسُــولُ اللَّهِ - ﷺ - « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ . يَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ . فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَــى وَقَـدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْــطِ أَحَــدًا مِنْ خَلْقِــكَ . فَيَقُــولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . قَالُوا يَا رَبِّ وَأَىُّ شَىْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِــكَ فَيَقُــولُ أُحِــلُّ عَلَيْكُمْ رِضْــوَانِى فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » البخارى .[108]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إِذَا أُدْخِـلَ أَهْـلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، قَـالَ اللَّهُ : أَتَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدَكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا ، وَمَا فَوْقَ مَا أَعْطَيْتَنَا ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : بَلَى ، رِضَـايَ أَكْثَرُ.[109]

وعَنْ صُهَيْبٍ ، قَالَ : تَلاَ رَسُـولُ اللــهِ ﷺ هَـذِهِ الآيَــةَ : {لِلَّذِينَ أَحْسَــنُوا الْحُسْــنَى وَزِيَــادَةٌ} [يــونس] قَــالَ : إِذَا دَخَـلَ أَهْــلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْـلُ النَّارِ النَّارَ نَـادَى مُنَـادٍ يَا أَهْـلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْـدَ اللــهِ مَوْعِــدًا يُحِبُّ أَنْ يُنْجِزَكُمُــوهُ ، فَيَقُولُـــونَ : وَمَا هُـــوَ ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللَّهُ مَوَازِينَنَا وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُـــدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَـالَ : فَيُكْشَــفُ الْحِجَـابُ ، فَيَنْظُـرُونَ إِلَيْـهِ فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَــاهُمُ اللَّهُ شَــيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ.[110]

---

[108] - صحيح البخارى(6549) ومسلم (7318)

[109] - صحيح ابن حبان - (16 / 469) (7439) صحيح

[110] - صحيح ابن حبان - (16 / 471) (7441) صحيح
قَالَ أَبُو حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : هَذِهِ الأَخْبَارُ فِي الرُّؤْيَـةِ يَـدْفَعُهَا مَنْ لَيْسَ الْعِلْمُ صِـنَاعَتَهُ ، وَغَيْـرُ مُسْـتَحِيلٍ أَنَّ اللَّهَ جَــلَّ وَعَلاَ

والنعمة الأســمى من كل ما يجــدون : ســلامٍ اللّه عليهم ، فقال تعالى : سَلامٌ قَــوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ أي إن ما يتمنونه هو تحية اللّه لهم بالسلام أي الأمان من كل مكروه ، يقــول لهم : ســـلام عليكم يا أهل الجنة ،" فيقـــول جل جلاله لأصحاب الجنة « سَـلامٌ عليكم ».. وهـذا هو غاية نعيم أصـــحاب الجنة وأطيب طعومها الطيبة عندهم .." كما قال تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ : سَلامٌ [الأحزاب 33/ 44] أو بوساطة الملائكة ، كما قال تعالى : وَالْمَلائِكَـةُ يَـدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ : سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الــدَّارِ [الرعد 13/ــ 23 -ــ 24] والمعـــنى أن اللّه يســـلم عليهم بوســـاطة الملائكة ، أو بغـــــير وســـــاطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك متمناهم.

عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ حُمَيْـدٍ ، قَـالَ : سَـمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ ، يُحَدِّثُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيـزِ قَـالَ : " إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْـلِ النَّارِ ، أَقْبَـلَ

يُمَكِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُخْتَـارِينَ مِنْ عِبَـادِهِ مِنَ النَّظَـرِ إِلَى رُؤْيَتِـهِ ، جَعَلَنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ حَتَّى يَكُونَ فَرْقًا بَيْنَ الْكُفَّارِ وَالْمُـؤْمِنِينَ وَالْكِتَابُ يَنْطِقُ بِمِثْلِ السُّنَنِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا سَوَاءً قَوْلَهُ جَلَّ وَعَلاَ : {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُــونَ} [المطففين] ، فَلَمَّا أَثْبَتَ الْحِجَــابَ عَنْـهُ لِلْكُفَّارِ دَلَّ ذَلِـكَ عَلَى أَنَّ غَيْـرَ الْكُفَّارِ لاَ يُحْجَبُونَ عَنْهُ ، فَأَمَّا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَـإِنَّ اللَّهَ جَـلَّ وَعَلاَ خَلَـقَ الْخَلْقَ فِيهَا لِلْفَنَاءِ فَمُسْـتَحِيلٌ أَنْ يَـرَى بِـالْعَيْنِ الْفَانِيَـةِ الشَّـيْءَ الْبَاقِي ، فَإِذَا أَنْشَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ، وَبَعَثَهُمْ مِنْ قُبُورِهِمْ لِلْبَقَاءِ فِي إِحْدَى الدَّارَيْنِ غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ حِينَئِذٍ أَنْ يَرَى بِـالْعَيْنِ الَّتِي خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ فِي الدَّارِ الْبَاقِيَةِ الشَّـيْءَ الْبَـاقِي لاَ يُنْكِـرُ هَـذَا الأَمْـرَ إِلاَّ مَنْ جَهِـلَ صِـنَاعَةَ الْعِلْمِ ، وَمَنَـعَ بِـالرَّأْيِ الْمَنْكُـوسِ وَالْقِيَـاسِ الْمَنْحُوسِ.صحيح ابن حبان - (16 / 477)

يَمْشِي فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةِ ، فَيَقِفُ عَلَى أَوَّلِ أَهْلِ دَرَجَةً ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ ، فَيَـرُدُّونَ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ : سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ فَيَقُـــولُ : سَـــلُوا ، فَيَقُولُـــونَ : مَا نَسْأَلُكَ وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِـكَ ، لَـوْ أَنَّكَ قَسَـمْتَ بَيْنَنَا أَرْزَاقَ الثَّقَلَيْنِ لَأَطْعَمْنَـــــــاهُمْ وَسَـــــــقَيْنَاهُمْ وَكَسَـــوْنَاهُمْ ، فَيَقُـــولُ : سَـــلُوا ، فَيَقُولُـــونَ : نَسْـأَلُكَ رِضَـاكَ ، فَيَقُـولُ : رِضَـائِي أَحَلَّكُمْ دَارَ كَـرَامَتِي ، فَيَفْعَـلُ ذَلِـكَ بِأَهْـلِ كُـلِّ دَرَجَـةٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ ، قَالَ : وَلَـوْ أَنَّ امْـرَأَةً مِنَ الْحُـورِ الْعَيْنِ طَلَعَتْ لَأَطْفَأَ ضَوْءُ سِوَارَيْهَا الشَّمْسَ وَالْقَمَـرَ ، فَكَيْفَ بِالْمُسَوَّرَةِ " وفي رواية قَالَ : إِذَا فَــرَغَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، أَقْبَلَ فِي ظُلَـلٍ مِنَ الْغَمَـامِ وَالْمَلَائِكَـةِ ، قَـالَ : فَيُسَـلِّمُ عَلَى أَهْـلِ الْجَنَّةِ ، فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، قَـالَ الْقُـرَظِيُّ : وَهَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ : سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ فَيَقُولُ : سَلُونِي ، فَيَقُولُونَ : مَاذَا نَسْـأَلُكَ ، أَيْ رَبِّ ؟ قَالَ : بَـلْ سَـلُونِي ، قَـالُوا : نَسْـأَلُكَ أَيْ رَبِّ رِضَاكَ ، قَالَ : رِضَائِي أَحَلَّكُمْ دَارَ كَـرَامَتِي ، قَــالُوا : يَا رَبِّ وَمَا الَّذِي نَسْــأَلُكَ فَوَعِزَّتِــكَ وَجَلَالِكَ وَارْتِفَاعِ مَكَانِكَ ، لَوْ قَسَمْتَ عَلَيْنَا رِزْقَ الثَّقَلَيْنِ لَأَطْعَمْنَاهُمْ ، وَلَأَسْقَيْنَاهُمْ ، وَلَأَلْبَسْـنَاهُمْ وَلَأَخْدَمْنَاهُمْ ، لَا يُنْقِصْنَا ذَلِـكَ شَـيْئًا ، قَـالَ : إِنَّ لَدَيَّ مَزِيـدًا ، قَـالَ : فَيَفْعَـلُ اللَّهُ ذَلِـكَ بِهِمْ فِي دَرَجِهِمْ حَتَّى يَسْـتَوِيَ فِي مَجْلِسِــهِ ، قَـالَ : ثُمَّ تَأْتِيهِمُ التُّحَفُ مِنَ اللَّهِ تَحْمِلُهَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ."

وفي رواية قَالَ : إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ أَهْـلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ ، أَقْبَلَ يَمْشِي فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَيَقِـفُ ، قَـالَ : ثُمَّ ذَكَـرَ نَحْـوَهُ ، إِلَّا أَنَّهُ قَـالَ : فَيَقُولُـونَ : فَمَـاذَا نَسْـأَلُكَ يَا رَبِّ ، فَوَعِزَّتِـكَ وَجَلَالِكَ وَارْتِفَاعِ مَكَانِكَ ، لَـوْ أَنَّكَ قَسَـمْتَ عَلَيْنَا أَرْزَاقَ الثَّقَلَيْنِ ، الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، لَأَطْعَمْنَـاهُمْ ، وَلَسَـقَيْنَاهُمْ ، وَلَأَخْـدَمْنَاهُمْ مِنْ غَيْـرِ أَنْ يَنْتَقِصَ ذَلِـكَ شَـيْئًا مِمَّا عِنْـدَنَا ، قَـالَ : بَلَى فَسَـلُونِي ، قَالُوا : نَسْـأَلُكَ رِضَـاكَ ، قَـالَ : رِضَـائِي أَحَلَّكُمْ دَارَ كَـرَامَتِي ، فَيَفْعَـلُ هَـذَا بِأَهْـلِ كُـلِّ دَرَجَـةٍ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى مَجْلِسِهِ . وَسَائِرُ الْحَدِيثِ مِثْلُـهُ فَهَـذَا الْقَـوْلُ الَّذِي قَالَـهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ ، يُنْبِئُ عَنْ أَنَّ " سَـلَامٌ " بَيَـانٌ عَنْ قَوْلِـهِ : مَا يَـدَّعُونَ وَأَنَّ الْقَـوْلَ خَـارِجٌ مِنَ السَّـلَامِ . وَقَوْلُـهُ : مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ يَعْنِي : رَحِيمٌ بِهِمْ إِذْ لَمْ يُعَـاقِبْهُمْ بِمَا سَلَفَ لَهُمْ مِنْ جُرْمٍ فِي الدُّنْيَا "[111]

ومضات

إنهم مشـــــــــغولون بما هم فيه من النعيم ، ملتذون متفكهون. وإنهم لفي ظلال مسـتطابة يستروحون نسيمها ..وعلى أرائك متكـئين في راحة ونعيم هم وأزواجهم. لهم فيها فاكهة ولهم كل ما يشـــــاءون وهم ملاك محقق لهم فيها كل ما يـدعون. ولهم فـوق اللذائذ التأهيل

---

[111] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ(26844) صحيح مقطوع

والتكـــــريم : «سَـــلامٌ» .. يتلقونه من ربهم الكريم : «قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» ..[112]

ما ترشد إليه الآيات

يفهم من الآيات ما يلي :

1 - إن أصحاب الجنة يتمتعون فيها متعة مادية وليست روحية فقط ، فهم في شـــغل بما هم فيه من اللـــذات والنعيم عن الاهتمـــام بأهل المعاصي في النـــــار ، وما هم فيه من أليم العذاب ، وإن كان فيهم أقرباؤهم وأهلوهم.

2 - يتمتع أهل الجنة بنعيمها هم وأزواجهم ، تحت ستور تظللهم ، وعلى الأرائك (أي السّرر في الحجال ، كالناموسيات) متكئون.

3 - لهم أنـــواع من الفاكهة لا تعد ولا تحصى ، ولهم كل ما يتمنـون ويشـتهون ، فمهما طلبـوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ.

4 - ولهم أكمل الأشياء وآخرها الـذي لا شـيء فوقه وهو السلام من اللّه الـرب الـرحيم ، إما بوسـاطة الملائكة ، أو بغـير وسـاطة ، مبالغة في تعظيمهم ، وذلك أقصى ما يتمنونه.

---

[112] - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2972

جزاء المجرمين

قال تعالى :

ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ
ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ
ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ □ □ □ □ □
□ □ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ □ □ □ □ □ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ
□ ﯝ ﯞ □ □ □ □ □ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ □

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

59 ... وَامْتَــــازُوا ... تمـــيزوا وانفــــردوا عن المؤمنين

60 ... أَلَمْ أَعْهَـدْ ... ألم أوصـكم بـترك طاعة الشيطان

60 ... أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّـيْطَانَ ... أن لا تطيعـوا الشيطان

61 ... وَأَنِ اعْبُدُونِي ... أن تعبدوني وحدي

61 ... هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ... عبـادة الـرحمن ومعصية الشيطان

62 ... جِبِلاًّ ... خلقا كثيرا

64 ... اصْلَوْهَا ... ادخلوها أو قاسوا حرها

66 ... لَطَمَسْنَا ... لصيرناها ممسوحة لا يــرى لها شق

67 ... لَمَسَــــخْنَاهُمْ عَلَى مَكَــــانَتِهِمْ ... لغيرنا خلقهم في مكان معصيتهم

67 ... فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا ... لا يتقـدمون ولا يتأخرون

68 ... وَمَن نُّعَمِّرْهُ ... الذي نطيل عمره

68 ... نُنَكِّسْهُ فِي الْخُلْقِ ... نرده إلى الضعف بعد القوة

المناسبة :

بعد بيـان حـال المحسـنين في الآخـرة ، أعقبه تعالى ببيان حال المجرمين في الدنيا والآخــرة ، ففي الآخرة يميزون عن المؤمنين ، ويصلون نــار جهنم خالــدين فيها أبــدا بســبب كفــرهم واتبــاع وســاوس الشــيطان ، وفي الــدنيا لم يعــــــاجلهم بالعقوبة رحمة منه ، فلم يشأ أن يـذهب أبصـارهم ، أو يمسخ صـورهم ويجعلهم كالقردة والخنازير ، وأعطـاهم الفرصة الكافية من العمر في الـــــدنيا ليتمكنـــــوا من النظر والاهتـــداء ، قبل أن يضـــعفوا ويعجـــزوا عن البحث والإدراك ، وذلك تحذير واضح لهم.

التفسير والبيان :

يخبر اللّه تعـالى عن حـال الكفـار يـوم القيامة بتمييزهم عن المؤمنين في موقفهم ، فيقول : « وَامْتـازُوا الْيَـوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُـونَ » أي يقـال للمجرمين الكـافرين في الآخـرة : تمـيزوا في موقفكم عن المؤمنين ،كما قال تعالى في آية أخــرى : وَيَــوْمَ نَحْشُــرُهُمْ جَمِيعــاً ، ثُمَّ نَقُــولُ لِلَّذِينَ أَشْــرَكُوا : مَكــانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُــرَكاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ [يونس 10/ـ 28] وقال سـبحانه : وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ [الروم 30/ 14] يَوْمَئِذٍ يَصَّــدَّعُونَ [الــروم 30/ــ 43] أي يصيرون صدعين فرقتين.

أو المراد : يمتاز المجرمون بعضـهم عن بعض ، فاليهود فرقة ، والنصارى فرقة ، والمجـوس فرقة ، والصابئون فرقة ، وعبدة الأوثـان فرقة ، والماديون والملحدون فرقة ، وهكذا.

وهـذا زجر للكـافرين ، وردع لهم أن يكونـوا بمحضر من هـذا المقـام الكـريم الـذي ينزله أصحاب الجنة ، أو أن يروه بأعينهم ..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ كَذَا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ الْأُسْتَاذُ : وَذَكَـرَ الْحَـدِيثَ ، فَلَمْ يَـأْذَنْ فِي قِـرَاءَةِ الْمَتْنِ ، فَكَتَبَ الْمَتْنَ مِنْ كِتَابِـهِ ، وَكَانَ فِيـهِ : " إِنَّ اللَّهَ عَـزَّ وَجَـلَّ لَمَّا فَـرَغَ مِنْ خَلْـقِ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ خَلَـقَ الصُّـورَ ، فَأَعْطَـاهُ إِسْـرَافِيلَ ، فَهُـوَ وَاضِـعُهُ عَلَى فِيـهِ شَـاخِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى الْعَرْشِ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ " ، قَـالَ : قُلْتُ : يَا رَسُـولَ اللَّهِ ، مَا الصُّـورُ ؟ قَـالَ : " الْقَـرْنُ " ، قَـالَ : قُلْتُ : كَيْـفَ هُـوَ ؟ قَـالَ : " عَظِيمٌ ، وَالَّذِي بَعَثَنِي بِـالْحَقِّ ، إِنَّ عِظَمَ دَائِرَةٍ فِيهِ كَعَرْضِ السَّـمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَيَنْفُخُ فِيـهِ ثَلَاثَ نَفْخَـاتٍ : الْأُولَى نَفْخَـةُ الْفَـزَعِ ، وَالثَّانِيَـةُ نَفْخَـةُ الصَّعْقِ ، وَالثَّالِثَةُ نَفْخَةُ الْقِيَامِ لِرَبِّ الْعَـالَمِينَ ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَـلَّ إِسْـرَافِيلَ بِالنَّفْخَـةِ الْأُولَى فَيَقُولُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الْفَزَعِ ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الْفَـزَعِ ، فَيَفْـزَعُ أَهْـلُ السَّـمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَـاءَ اللَّهُ ، فَيَأْمُرُهُ فَيَمُدُّهَا وَيُطِيلُهَا ، وَلَا يَفْتُرُ ، وَهُـوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَـلَّ : مَا يَنْظُـرُ هَـؤُلَاءِ إِلَّا صَـيْحَةً وَاحِـدَةً مَا لَهَا مِنْ فَـوَاقٍ ، فَيُسَـيِّرُ اللَّهُ الْجِبَالَ ، فَتَمُرُّ مَـرَّ السَّـحَابِ ، فَتَكُـونُ سَـرَابًا ،

فَتَـرُجُّ الْأَرْضَ بِأَهْلِهَا رَجًّا ، فَتَكُـونُ كَالسَّـفِينَةِ الْمُـوقِرَةِ فِي الْبَحْـرِ تَضْـرِبُهَا الرِّيَـاحُ وَتَكْفِيهَا الرِّيَاحُ ، أَوْ كَالْقِنْـدِيلِ الْمُعَلَّقِ بِـالْعَرْشِ تُرَجِّحُـهُ الْأَرْوَاحُ ، وَهِيَ الَّتِي يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَـلَّ : يَـوْمَ تَرْجُـفُ الرَّاجِفَـةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَـةُ قُلُـوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَـةٌ ، فَتَمْتَـدُّ الْأَرْضُ بِالنَّاسِ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَتَـذْهَلُ الْمَرَاضِـعُ ، وَتَضَـعُ الْحَوَامِـلُ ، وَيَشِـيبُ الْوِلْدَانُ ، وَتَطِيرُ الشَّيَاطِينُ هَارِبَـةً مِنَ الْفَـزَعِ ، حَتَّى تَـأْتِيَ الْأَقْطَـارَ ، فَتَلْقَاهَا الْمَلَائِكَـةُ تَضْـرِبُ وُجُوهَهَا ، فَتَرْجِعُ فَتُوَلِّي النَّاسَ مُـدْبِرِينَ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، يُنَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ عَـزَّ وَجَـلَّ : يَـوْمَ التَّنَـادِ ، بَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ تَصَدَّعَتِ الْأَرْضُ ، فَانْصَدَعَتْ مِنْ قُطْـرٍ إِلَى قُطْـرٍ ، فَـرَأَوْا أَمْـرًا عَظِيمًا لَمْ يَـرَوْا مِثْلَهُ ، وَأَخَذَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْكَرْبُ وَالْهَوْلُ مَا اللَّهُ بِـهِ عَلِيمٌ ، ثُمَّ نَظَـرُوا إِلَى السَّـمَاءِ فَـإِذَا هِيَ كَالْمُهْـلِ ، ثُمَّ انْشَـقَّتْ فَـانْتَثَرَتْ نُجُومُهَا ، فَانْخَسَـفَتْ شَمْسُـهَا وَقَمَرُهَا " ، قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ : " وَالْأَمْوَاتُ يَوْمَئِذٍ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ " ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فَمَنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ عَزَّ وَجَـلَّ حَيْثُ قَـالَ : فَفَـزِعَ مَنْ فِي السَّـمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَـاءَ اللَّهُ ، قَـالَ : " أُولَئِكَ هُمُ الشُّـهَدَاءُ ، فَإِنَّمَا يَصِـلُ الْفَـزَعُ إِلَى الْأَحْيَاءِ ، وَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، وَقَاهُمُ اللَّهُ فَزَعَ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَأَمَّنَهُمْ ، وَهُوَ عَذَابٌ يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى شِـرَارِ خَلْقِـهِ ، وَالَّذِي يَقُـولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَـةَ السَّـاعَةِ شَـيْءٌ

عَظِيمٌ ، إِلَى قَوْلِهِ : وَلَكِنَّ عَـذَابَ اللَّهِ شَـدِيدٌ ، فَيَمْكُثُــونَ فِي ذَلِــكَ الْبَلَاءِ مَا شَــاءَ اللَّهُ إِلَّا أَنَّهُ يُطَوَّلُ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ يَـأْمُرُ اللَّهُ إِسْـرَافِيلَ ، فَيَنْفُخُ نَفْخَةَ الصَّعْقِ ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَإِذَا خَمَـدُوا جَـاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى الْجَبَّارِ فَيَقُولُ : قَدْ مَاتَ أَهْــلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شِئْتَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَـزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ : مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا تَمُوتُ ، وَبَقِيَتْ حَمَلَــةُ الْعَرْشِ ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيــلُ ، وَبَقِيَتُ أَنَا ، فَيَقُولُ جَلَّ وَعَـزَّ : فَيَمُـوتُ جِبْرِيـلُ وَمِيكَائِيـلُ ، فَيُنْطِقُ اللَّهُ الْعَرْشَ ، فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ ، يَمُوتُ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَيَقُولُ : اسْكُتْ ، إِنِّي كَتَبْتُ الْمَوْتَ عَلَى كُلِّ مَنْ تَحْتَ عَرْشِي ، فَيَمُوتَـانِ ، ثُمَّ يَـأْتِي مَلَـكُ الْمَـوْتِ إِلَى الْجَبَّارِ فَيَقُـولُ : أَيْ رَبِّ ، قَدْ مَاتَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيـلُ ، فَيَقُـولُ وَهُـوَ أَعْلَمُ : فَمَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُـــولُ : بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَبَقِيَتْ حَمَلَةُ عَرْشِــكَ ، وَبَقِيَتُ أَنَا، فَيَقُولُ : لِيَمُتْ حَمَلَـةُ عَرْشِـي ، فَيَمُوتُـوا ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْعَرْشَ فَيَقْبِضُ الصُّورَ مِنْ إِسْرَافِيلَ ، ثُمَّ يَقُولُ : لِيَمُتْ إِسْرَافِيلُ ، فَيَمُوتُ ، ثُمَّ يَـأْتِي مَلَـكُ الْمَـوْتِ فَيَقُـولُ : يَا رَبِّ ، قَـدْ مَاتَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ ، فَيَقُـولُ وَهُـوَ أَعْلَمُ : فَمَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُولُ : بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَبَقِيَتُ أَنَا ، فَيَقُــولُ : أَنْتَ خَلْــقٌ مِنْ خَلْقِي ، خَلَقْتُكَ لِمَا رَأَيْتَ فَمُتْ ، فَيَمُوتُ ، فَإِذَا لَمْ يَبْـقَ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهَ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ الصَّـمَدَ الَّذِي لَمْ يَلِـدْ

وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ، فَكَانَ آخِـرًا كَمَا كَانَ أَوَّلًا ، طَوَى السَّـمَوَاتِ كَطَيِّ السِّـجِلِّ لِلْكِتَـابِ ، ثُمَّ دَحَاهَا ، ثُمَّ تَلَقَّفَهُمَا ثَلَاثَ مَـرَّاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : أَنَا الْجَبَّارُ ، ثُمَّ يَقُولُ عَـزَّ وَجَـلَّ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، ثُمَّ يَقُولُ لِنَفْسِهِ تَبَارَكَ وَتَعَـالَى : لِلَّهِ الْوَاحِـدِ الْقَهَّارِ ، ثُمَّ يَقُـولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَـلَّ : يَـوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَيْـرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ، فَيَبْسُطُهَا بَسْطًا يَمُدُّهَا مَـدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَـــاظِيِّ ، لَا تَـــرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ، ثُمَّ يَزْجُرُ اللَّهُ الْخَلْقَ زَجْـرَةً وَاحِـدَةً ، فَـإِذَا هُمْ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَدَّلَةِ فِي مِثْلِ مَا كَـانُوا مِنْـهُ مِنَ الْأُولَى ، مَنْ كَـانَ فِي بَطْنِهَا كَـانَ فِي بَطْنِهَا ، وَمَنْ كَـانَ عَلَى ظَهْرِهَا كَـانَ عَلَى ظَهْرِهَا ، ثُمَّ يُنْـزِلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَـاءً مِنْ تَحْتِ الْعَـرْشِ كَمَنِيِّ الرِّجَالِ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، حَتَّى يَكُــونَ فَــوْقَهُمُ اثْنَا عَشَــرَ ذِرَاعًا ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْأَجْسَـادَ أَنْ تَنْبُتَ كَنَبَـاتِ الطَّرَاثِيثِ أَوْ كَنَبَاتِ الْبَقْلِ ، حَتَّى إِذَا تَكَامَلَتْ أَجْسَــادُهُمْ ، فَكَانَتْ كَمَا كَانَتْ ، قَـالَ اللَّهُ عَـزَّ وَجَـلَّ : لِيَحْيَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ ، فَيَحْيَوْنَ ، ثُمَّ يَقُـولُ اللَّهُ : لِيَحْيَا جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ فَيَحْيَوْنَ ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ إِسْرَافِيلَ ، فَيَأْخُذُ الصُّـورَ ، فَيَضَـعُهُ عَلَى فِيـهِ ، ثُمَّ يَـدْعُو اللَّهُ بِالْأَرْوَاحِ فَيُؤْتَى بِهَا يَتَـوَهَّجُ أَرْوَاحُ الْمُـؤْمِنِينَ نُـورًا ، وَالْأُخْـرَى ظُلْمَـةً ، فَيَقْبِضُـهَا جَمِيعًا ، ثُمَّ يُلْقِيهَا فِي الصُّـورِ ، ثُمَّ يَـأْمُرُ اللَّهُ إِسْـرَافِيلَ أَنْ يَنْفُخَ نَفْخَةَ الْبَعْثِ ، فَتَخْرُجُ الْأَرْوَاحُ كَأَنَّهَا النَّحْـلُ قَدْ مَلَأَتْ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَيَقُـولُ اللَّهُ

: وَعِـــزَّتِي وَجَلَالِي ، لَيَـــرْجِعَنَّ كُـــلُّ رُوحٍ إِلَى جَسَــدِهِ ، فَتَـدْخُلُ الْأَرْوَاحُ فِي الْخَيَاشِــيمِ ، ثُمَّ تَمْشِي فِي الْأَجْسَـادِ مَشْـيَ السُّـمِّ فِي اللَّدِيغِ ، ثُمَّ تَنْشَــقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِــرَاعًا ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْـهُ الْأَرْضُ ، فَتَخْرُجُـونَ مِنْهَا إِلَى رَبِّكُمْ تَنْسِــــلُونَ مُهْطِعِينَ إِلَى الــــدَّاعِي ، فَيَقُــــولُ الْكَـافِرُونَ : هَـذَا يَـوْمٌ عَسِـرٌ ، حُفَـاةً ، عُـرَاةً ، غُرْلًا ، ثُمَّ يَقِفُـونَ مَوْقِفًا وَاحِـدًا مِقْـدَارَ سَـبْعِينَ عَامًا لَا يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ ، وَلَا يَقْضِي بَيْنَكُمْ ، فَتَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ، ثُمَّ تَـدْمَعُونَ دَمًا تَعْرِقُـونَ ، حَتَّى يَبْلُــغَ ذَلِــكَ مِنْكُمْ أَنْ يُلْجِمَكُمْ أَوْ يَبْلُــغَ الْأَذْقَانَ ، فَتُصْـبِحُونَ فَتَقُولُـونَ : مَنْ يَشْـفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا ، فَيَقْضِي بَيْنَنَا فَيَقُـولُ : مَنْ أَحَـقُّ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَكَلَّمَـــهُ قِبَلًا ، فَتَــأْتُونَ آدَمَ عَلَيْــهِ السَّــلَامُ ، فَتَطْلُبُـونَ ذَلِـكَ إِلَيْـهِ ، فَيَـأْبَى وَيَقُـولُ : مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِكَ " ، فَيَـأْتُونَ الْأَنْبِيَـاءَ نَبِيًّا نَبِيًّا ، كُلَّمَا جَاءُوا نَبِيًّا يَأْبَى عَلَيْهِمْ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " حَتَّى يَــأْتُونِي فَــأَنْطَلِقُ مَعَهُمْ ، فَــآتِي الْفَحْصَ فَـأَخِرُّ سَـاجِدًا " ، قَـالَ أَبُو هُرَيْـرَةَ : يَا رَسُـولَ اللَّهِ ، مَا الْفَحْصُ ؟ قَـالَ : " قُــدَّامُ الْعَــرْشِ ، حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ مَلَكًا فَيَأْخُذُ بِعَضُدِي فَيَقُـولُ لِي : يَا مُحَمَّدُ ، فَـأَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ ، فَيَقُـولُ : مَا شَأْنُكَ ؟ " ، وَهُوَ أَعْلَمُ قَالَ : " فَــأَقُولُ : يَا رَبِّ ، وَعَـدْتَنِي الشَّـفَاعَةَ ، وَشَـفَّعْتَنِي فِي خَلْقِـكَ ، فَــاقْضِ بَيْنَهُمْ ، فَيَقُــولُ اللَّهُ : قَــدْ شَـفَّعْتُكَ أَنَا آتِيهِمْ فَأَقْضِي بَيْنَهُمْ " ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : "

فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ مَـعَ النَّاسِ ، فَبَيْنَا نَحْنُ وُقُـوفٌ إِذْ سَمِعْنَا حَسًّا مِنَ السَّمَاءِ شَـدِيدًا ، فَهَـالَ فَنَـزَلَ أَهْـلُ السَّـمَاءِ الـدُّنْيَا بِمِثْلَيْ مَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، حَتَّى إِذَا دَنَـــــــوْا مِنَ الْأَرْضِ أَشْرَقَتْ بِنُورِهِمْ ، وَأَخَذُوا مَصَافَّهُمْ ، قَالَ : قُلْنَا لَهُمْ : دُونَكُمُ اللَّهُ ، قَـالُوا : لَا ، ثُمَّ تَنْـزِلُ أَهْـلُ السَّـمَاءِ الثَّانِيَـةِ بِمِثْلَيْ مَنْ نَـزَلَ مِنَ الْمَلَائِكَـةِ ، وَمِثْلَيْ مِنْ فِيهَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، حَتَّى إِذَا دَنَــوْا مِنَ الْأَرْضِ أَشْــرَقَتْ بِنُــورِهِمْ وَأَخَــذُوا مَصَافَّهُمْ ، ثُمَّ ذَكَرُوا نُزُولَ أَهْلِ كُلِّ سَـمَاءٍ عَلَى قَـدْرِ ذَلِـكَ مِنَ التَّضْـعِيفِ ، ثُمَّ يَنْـزِلُ الْجَبَّارُ فِي ظُلَـلٍ مِنَ الْغَمَـامِ وَالْمَلَائِكَـةِ ، وَيَحْمِـلُ عَـرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ، وَهُـوَ الْيَـوْمُ ، أَرْبَعَـةُ أَقْدَامِهِمْ عَلَى نُجُومِ الْأَرْضِ السُّـفْلَى ، وَالْأَرْضُ إِلَى حُجَـزِهِمْ ، وَالْعَـرْشُ عَلَى مَنَـاكِبِهِمْ ، لَهُمْ زَجَلٌ بِالتَّسْـبِيحِ ، يَقُولُـونَ سُـبْحَانَ ذِي الْعَـرْشِ وَالْجَبَـرُوتِ ، سُـبْحَانَ ذِي الْمُلْـكِ وَالْمَلَكُـوتِ ، سُـبْحَانَ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُــوتُ ، سُـبْحَانَ الَّذِي يُمِيتُ الْخَلَائِقَ وَلَا يَمُــوتُ ، سُــبُّوحٌ قُــدُّوسٌ ، سُــبْحَانَ رَبِّنَا الْأَعْلَى رَبِّ الْمَلَائِكَــةِ وَالــرُّوحِ ، الَّذِي يُمِيتُ الْخَلْــقَ وَلَا يَمُــوتُ . فَيَضَــعُ اللَّهُ كُرْسِيَّهُ حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَرْضِهِ ، ثُمَّ يَهْتِـفُ تَبَـارَكَ وَتَعَالَى قَائِلًا : يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، إِنِّي قَدْ أَنْصَتُّ لَكُمْ مُذْ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا ، أَسْمَعُ قَــوْلَكُمْ ، وَأُبْصِــرُ أَعْمَــالَكُمْ ، فَاسْـمَعُوا إِلَيَّ ، فَإِنَّمَا هِيَ أَعْمَــالُكُمْ وَصُــحُفُكُمْ تُقْــرَأُ عَلَيْكُمْ ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْـرًا فَلْيَحْمَـدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَـدَ غَيْـرَ

ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ ، ثُمَّ يَـأْمُرُ اللَّهُ جَهَنَّمَ ، فَيَخْـرُجُ مِنْهَا عُنُـقٌ سَـاطِعٌ مُظْلِمٌ ، ثُمَّ يَقُـولُ : أَلَمْ أَعْهَـــــدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُـــــدُوا الشَّـــيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَـــدُوٌّ مُبِينٌ ، إِلَى قَوْلِـــهِ : وَامْتَـازُوا الْيَـوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُـونَ ، فَيُمَيِّزُ اللَّهُ النَّاسَ ، وَتَجْثُـوا الْأُمَمُ ، وَيَقُـولُ اللَّهُ تَعَـالَى : وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا ، فَيَقْضِـــي اللَّهُ بَيْنَ خَلْقِـــهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ ، فَيَقْضِي بَيْنَ الْـوَحْشِ وَالْبَهَـائِمِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيُقِيـدُ لِلْجَمَّاءِ مِنْ ذَاتِ الْقَـرْنِ ، فَـإِذَا فَـرَغَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَبْقَ تَبَعَةٌ عِنْدَ وَاحِـدَةٍ لِلْأُخْـرَى ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : كُونِي تُرَابًا ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُـولُ الْكَـــافِرُ : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ، فَيَقْضِـــي اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ الْعِبَـادِ ، فَيَكُـونُ أَوَّلَ مَا يَقْضِـي فِيـهِ الدِّمَاءُ ، فَيَأْتِي كُلُّ قَتِيلٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، يَـأْمُرُ اللَّهُ كُلَّ قَتِيلٍ فَيُحْمَلُ رَأْسَهُ ، وَأَوْدَاجُهُ تَشْـخَبُ دَمًا ، فَيَقُـولُ : يَا رَبِّ ، سَـلْ هَـذَا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ فَيَقُولُ وَهُوَ أَعْلَمُ : لِمَ قَتَلْتَهُ ؟ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ ، قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ : صَدَقْتَ ، فَيَجْعَـلُ اللَّهُ وَجْهَـهُ مِثْـلَ نُـورِ الشَّـمْسِ ، ثُمَّ تُشَـيِّعُهُ الْمَلَائِكَـةُ إِلَى الْجَنَّةِ ، ثُمَّ يَـأْمُرُ اللَّهُ كُـلَّ قَتِيلٍ قُتِلَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ ، فَيَأْتِي يَحْمِلُ رَأْسَهُ ، وَيَشْـخَبُ أَوْدَاجُـهُ دَمًا ، وَيَقُـولُ : يَا رَبِّ ، سَـلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي ؟ فَيَقُولُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ : لِمَ قَتَلْتَـهُ ؟ فَيَقُـولُ : يَا رَبِّ ، قَتَلْتُـهُ لِتَكُـونَ الْعِـزَّةُ لِي ، فَيَقُولُ اللَّهُ : تَعِسْـتَ ، ثُمَّ لَا يَبْقَى بَشَـرَةٌ قَتَلَهَا إِلَّا قُتِلَ بِهَا ، وَلَا مَظْلَمَةٌ ظَلَمَهَا إِلَّا أُخِذَ بِهَا ، ثُمَّ

يَصِيرُ فِيمَا بَقِيَ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ شَـاءَ عَذَّبَـهُ ، وَإِنْ شَـاءَ رَحِمَـهُ ، ثُمَّ يَقْضِـي بَيْنَ مَنْ بَقِيَ مِنْ خَلْقِهِ ، حَتَّى لَا يُبْقِي مَظْلَمَةً عِنْدَ أَحَـدٍ إِلَّا أَخَـذَهَا الْمَظْلُـومُ مِنَ الظَّالِمِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَـوْ كُلِّفَ شَائِبُ اللَّبَنِ بِالْمَاءِ أَنْ يُقَلِّبَـهُ حَتَّى يُخَلِّصَ اللَّبَنَ مِنَ الْمَاءِ ، فَإِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنْ ذَلِـكَ نَـادَى مُنَـادٍ يُسْـمِعُ الْخَلَائِقَ كُلَّهُمْ فَيَقُـولُ : أَلَا لِيَلْحَـقْ كُلُّ قَوْمٍ بِـآلِهَتِهِمْ ، وَمَا كَـانُوا يَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ عَبَدَ شَـيْئًا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا مُثِّلَتْ لَـهُ آلِهَتُـهُ ، وَيَجْعَـلُ اللَّهُ تَعَـالَى مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى صُورَةِ عُزَيْـرٍ ، وَيَجْعَـلُ اللَّهُ مَلَكًا مِنَ الْمَلَائِكَـةِ عَلَى صُـورَةِ عِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ ، فَيَتَّبِعُ الْيَهُودُ عُزَيْـرًا ، وَيَتَّبِـعُ النَّصَـارَى عِيسَـى ، ثُمَّ تَقُودُهُمْ آلِهَتُهُمْ إِلَى النَّارِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُ اللَّهُ عَـزَّ وَجَـلَّ فِيهِمْ : لَـوْ كَـانَ هَـؤُلَاءِ آلِهَـةً مَا وَرَدُوهَا وَكُـلٌّ فِيهَا خَالِـدُونَ ، وَإِذَا لَمْ يَبْـقَ إِلَّا الْمُؤْمِنُـونَ ، وَفِيهِمُ الْمُنَـافِقُونَ ، جَـاءَهُمُ اللَّهُ فِيمَا شَاءَ مِنْ هَيْئَةٍ ، فَيَقُولُونَ : وَاللَّهِ مَا لَنَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ ، وَمَا كُنَّا نَعْبُدُ غَيْرَهُ ، فَيُكْشَـفُ لَهُمْ عَنْ سَاقٍ وَيَتَجَلَّى لَهُمْ ، وَيُظْهِرُ لَهُمْ مِنْ عَظَمَتِـهِ مَا يَعْرِفُـونَ بِـهِ أَنَّهُ رَبُّهُمْ فَيَخِـرُّونَ سُـجَّدًا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَيَخِرُّ كُلُّ مُنَافِقٍ عَلَى قَفَـاهُ ، وَيَجْعَـلُ اللَّهُ تَعَالَى أَصْلَابَهُمْ كَصَيَاصِيِّ الْبَقَـرِ ، ثُمَّ يَـأْذَنُ لَهُمْ فَيَرْفَعُـونَ رُءُوسَـهُمْ ، وَيَضْـرِبُ اللَّهُ عَـزَّ وَجَـلَّ الصِّـرَاطَ بَيْنَ ظَهْـرَانَيْ جَهَنَّمَ كَعَـدَدِ أَوْ كَعَقْدِ الشَّعْرِ أَوْ كَحَـدِّ السَّـيْفِ ، عَلَيْـهِ كَلَالِيبُ ، وَخَطَاطِيفُ ، وَحَسَكٌ كَحَسَكِ السَّـعْدَانِ ، دُونَـهُ

جِسْرٌ دَحْضٌ مَزِلَّةٌ ، فَيَمُرُّونَ كَطُرُوفِ الْعَيْنِ أَوْ كَلَمْحِ الْبَرْقِ أَوْ كَمَـرِّ الـرِّيحِ أَوْ كَجِيَـادِ الْخَيْـلِ أَوْ كَجِيَادِ الرِّيَاحَاتِ أَوْ كَجِيَادِ الرِّجَالِ ، فَنَاجٍ سَـالِمٌ ، وَمَخْدُوشٌ ، وَمَكْدُوشٌ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَهَنَّمَ ، فَـإِذَا أَفْضَـى أَهْـلُ الْجَنَّةِ إِلَى الْجَنَّةِ قَـالُوا : مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّنَا ، فَنَـدْخُلَ الْجَنَّةَ ، فَيَقُولُـونَ : مَنْ أَحَقُّ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلَقَهُ اللَّهُ بِيَـدِهِ ، وَنَفَخَ فِيـهِ مِنْ رُوحِـهِ ، وَكَلَّمَـهُ قِبَلًا ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتَهُ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّـلَامُ ، فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَيَذْكُرُ ذَنْبًا ، فَيَقُـولُ : مَا أَنَا بِصَـاحِبِ ذَلِـكَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِنُـوحٍ ؛ فَإِنَّهُ أَوَّلُ رُسُلِ اللَّهِ ، فَيُؤْتَى نُوحٌ عَلَيْهِ السَّـلَامُ ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَيَذْكُرُ ذَنْبًا ، فَيَقُولُ : مَا أَنَا بِصَـاحِبِ ذَلِكَ ، عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّـلَامُ ؛ فَـإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَـلَّ اتَّخَـذَهُ خَلِيلًا ، فَيُـؤْتَى ، فَيُطْلَبُ ذَلِـكَ إِلَيْـهِ ، فَيَـذْكُرُ ذَنْبًا ، فَيَقُـولُ : عَلَيْكُمْ بِمُوسَـى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَـزَّ وَجَـلَّ قَرَّبَـهُ نَجِيًّا ، وَكَلَّمَـهُ تَكْلِيمًا ، وَأَنْـزَلَ عَلَيْـهِ التَّوْرَاةَ ، فَيُـؤْتَى مُوسَـى عَلَيْـهِ السَّـلَامُ ، فَيُطْلَبُ ذَلِـكَ إِلَيْـهِ ، فَيَـذْكُرُ ذَنْبًا ، فَيَقُـولُ : مَا أَنَا بِصَـاحِبِ ذَلِـكَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِـرُوحِ اللَّهِ وَكَلِمَتِـهِ عِيسَـى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَيُـؤْتَى عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ ، فَيُطْلَبُ ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَيَقُولُ : مَا أَنَا بِصَاحِبِ ذَلِـكَ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ ، فَيَـأْتُونِي وَلِي عِنْـدَ رَبِّي ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ وَعَدَنِيهُنَّ ، فَأَنْطَلِقُ فَـآتِي الْجَنَّةَ ، فَآخُذُ بِحَلْقَـةِ الْبَـابِ ، ثُمَّ أَسْـتَفْتِحُ ، فَيُفْتَحُ لِي فَأُحَيَّا وَيُـرَحَّبُ بِي ، فَـإِذَا أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ ،

فَنَظَرْتُ إِلَى رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَرَرْتُ سَـاجِدًا ، فَيَـأْذَنُ اللَّهُ لِي مِنْ حَمْـدِهِ وَتَمْجِيـدِهِ شَـيْئًا مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، وَسَـلْ تُعْطَـهْ ، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي ، قَالَ اللَّهُ وَهُـوَ أَعْلَمُ : مَا شَـأْنُكَ ؟ فَـــأَقُولُ : يَا رَبِّ ، وَعَـــدْتَنِي الشَّـــفَاعَةَ ، فَشَـفِّعْنِي فِي أَهْـلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَـدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ، فَيَقُـولُ اللَّهُ عَـزَّ وَجَـلَّ : قَـدْ شَـفَّعْنَاكَ ، وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُـولِ الْجَنَّةِ " ، فَكَـانَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ يَقُـــولُ : " وَالَّذِي بَعَثَنِي بِـــالْحَقِّ ، مَا أَنْتُمْ فِي الدُّنْيَا بِأَعْرَفَ بِـأَزْوَاجِكُمْ وَمَسَـاكِنِكُمْ مِنْ أَهْـلِ الْجَنَّةِ بِأَزْوَاجِهِمْ وَبِمَسَاكِنِهِمْ ، فَيَدْخُلُ كُلُّ رَجُـلٍ مِنْهُمْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَـبْعِينَ زَوْجَـةً مِمَّا يُنْشِـيءُ اللَّهُ عَـزَّ وَجَـلَّ ، وَثِنْتَيْنِ آدَمِيَّتَيْنِ مِنْ وَلَـدِ آدَمَ عَلَيْـهِ السَّـلَامُ ، وَلَهُمْ فَضْـلٌ لِعِبَادَتِهِمَا اللَّهَ فِي الـــدُّنْيَا ، فَيَـــدْخُلُ الْأَوَّلُ مِنْهُمْ فِي غُرْفَـــةٍ مِنْ يَاقُوتَـةٍ عَلَى سَــرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِـاللُّؤْلُؤِ ، وَعَلَيْهَا سَبْعُونَ حُلَّةً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْـتَبْرَقٍ ، ثُمَّ يَضَـعُ يَـدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ، ثُمَّ يَنْظُـرُ إِلَى يَـدِهِ مِنْ صَــدْرِهَا مِنْ وَرَاءِ ثِيَابِهَا وَجِلْـدِهَا وَلَحْمِهَا ، وَإِنَّهُ لَيَنْظُرُ إِلَى مُخِّ سَـاقِهَا ، كَمَا يَنْظُـرُ أَحَـدُكُمْ إِلَى السِّـلْكِ فِي قَصَـبَةِ الْيَـاقُوتِ ، كَبِـدُهَا لَـهُ مَـرْآةٌ وَكَبِدُهُ لَهَا مَرْآةٌ ، فَبَيْنَمَا هُـوَ عِنْـدَهَا لَا يَمَلُّهَا وَلَا تَمَلُّهُ ، مَا يَأْتِيهَا مَرَّةً إِلَّا وَجَدَهَا عَذْرَاءَ ، مَا يَفْتُـرُ ذَكَرُهُ ، وَلَا يَشْـتَكِي قُبُلُهَا ، فَبَيْنَمَا هُـوَ كَـذَلِكَ إِذْ نُودِيَ : إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّكَ لَا تَمَلُّ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا مَنِيَّ وَلَا مَنِيَّةَ ، إِلَّا أَنَّ لَـــكَ أَزْوَاجًا غَيْرَهَا ، فَيَخْـــرُجُ

فَيَأْتِيهِنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، كُلَّمَا جَاءَ وَاحِدَةً قَـالَتْ : وَاللَّهِ مَا أَرَى فِي الْجَنَّةِ شَـيْئًا أَحْسَـنَ مِنْـكَ ، وَمَا فِي الْجَنَّةِ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ ، فَإِذَا رُفِـعَ أَهْـلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ رُفِـعَ فِيهَا خَلْـقٌ مِنْ خَلْـقِ رَبِّكَ قَـدْ أَوْبَقَتْهُمْ أَعْمَـالُهُمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُـذُهُ النَّارُ إِلَى قَدَمَيْــهِ لَا تُجَــاوِزُ ذَلِــكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُــذُهُ النَّارُ إِلَى نِصْــفِ سَــاقَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُـذُهُ إِلَى حِقْوَيْـهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُـذُهُ فِي جَسَـدِهِ كُلِّهِ إِلَّا وَجْهَهُ يُحَرِّمُ اللَّهُ تَعَالَى صُورَتَهُمْ عَلَيْهَا " . قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ : " فَـأَقُولُ : يَا رَبِّ ، مَنْ وَقَـعَ فِي النَّارِ مِنْ أُمَّتِي ، فَيَقُــولُ اللَّهُ عَــزَّ وَجَــلَّ : أَخْرِجُـوا مِنَ النَّارِ مَنْ عَـرَفْتُمْ، فَخَـرَجَ أُولَئِكَ ، حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ ، ثُمَّ يَأْمُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الشَّــفَاعَةِ ، فَلَا يَبْقَى نَبِيٌّ ، وَلَا شَــهِيدٌ ، إِلَّا شَــفِعَ ، فَيَقُــولُ اللَّهُ : أَخْرِجُــوا مِنَ النَّارِ مَنْ وَجَـدْتُمْ فِي قَلْبِـهِ زِنَـةَ الـدِّينَارِ ، فَيَخْـرُجُ أُولَئِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُم أَحَــدٌ ، ثُمَّ يَشْــفَعُ اللَّهُ عَــزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : أَخْرِجُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ ثُلُثَيِ الدِّينَارِ إِيمَانًا ، وَنِصْفَ وَرُبُـعَ دِينَـارٍ ، ثُمَّ يَقُـولُ : قِــيرَاطٌ ، وَيَقُــولُ : حَبَّةٌ مِنْ خَـرْدَلٍ ، فَيَخْــرُجُ أُولَئِكَ حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَــدٌ مِنْهُمْ ، وَحَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ لَهُ شَفَاعَةٌ إِلَّا شَـفَعَ ، حَتَّى إِنَّ إِبْلِيسَ لَعَنَـهُ اللَّهُ لَيَتَطَاوَلُ لِمَا يَرَى مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ رَجَــاءَ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ : بَقِيَتُ أَنَا ، وَأَنَا أَرْحَمُ الـرَّاحِمِينَ ، فَيُخْـرِجُ مِنْهَا مَا لَا يُحْصِـيهِ كَثْـرَةً ، كَـأَنَّهُمُ الْجَمْـرُ يُثَبِّتُهُمُ اللَّهُ عَلَى نَهَـرٍ يُقَـالُ لَـهُ :

الْحَيَـوَانُ ، فَيَنْبُتُـونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيـلِ السَّــيْلِ ، مَا يَلِي الشَّــمْسَ مِنْهَا أُخَيْضِــرُ ، وَمَا يَلِي الظِّلَّ مِنْهَا أُصَــــيْفِرُ ، فَيَنْبُتُــــونَ كَنَبَــــاتِ الطَّرَاثِيثِ ، حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَ الـدُّرِّ مَكْتُوبَـةً فِي رِقَــابِهِمُ الْجَهَنَّمِيُّونَ عُتَقَــاءُ اللَّهِ عَــزَّ وَجَــلَّ ، فَيَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِـذَلِكَ الْكِتَـابِ ، مَا عَمِلُـوا خَيْرًا قَـطُّ ، فَيَمْكُثُـونَ فِي الْجَنَّةِ مَا شَـاءَ اللَّهُ ، وَذَلِكَ الْكِتَابُ فِي رِقَـابِهِمْ ، ثُمَّ يَقُولُـونَ : رَبَّنَا ، امْحُ عَنَّا هَذَا الْكِتَابَ ، فَيَمْحَاهُ عَنْهُمْ "[113]

ثم أبان اللّه تعالى سبب تمييزهم عن غيرهم ، موبخا ومقرعا لهم على كفــرهم ، فقــال : « أَلَمْ أَعْهَــــدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُــــدُوا الشَّيْطانَ .. إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ».

" العهد هنا ، هو ما كــان من اللّه ســبحانه وتعالى من تحذير من الشـيطان وأعوانه ، كما يقــول ســبحانه على يد الرسل « يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْـرَجَ أَبَـوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ » (27 : الأعراف) وكما يقــول جـلّ شـأنه : « إِنَّ الشَّــيْطانَ لَكُمْ عَــدُوٌّ فَاتَّخِــذُوهُ عَــدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَـهُ لِيَكُونُـوا مِنْ أَصْـحابِ السَّـعِيرِ » (6 : فاطر) وعبادة الشـيطان ، هى اتّباعه فيما يدعو إليه ، وهو لا يدعو إلا إلى ضلال ، وشرك ، وكفر ..والاستفهام فى الآية للتقرير .. الــذي يثير مشاعر الندم والحسرة .."

وبعد النهي عن عبــادة غــير اللّه أمر تعــالى بعبادته ، فقـال : « وَأَنِ اعْبُـدُونِي هـذا صِـراطٌ

---

[113] - الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ لِلْبَيْهَقِيِّ (593) ضعيف

مُسْـتَقِيمٌ » هو معطـوف على قوله تعـالى : « أَنْ لا تَعْبُــدُوا الشَّــيْطانَ ».. أي « أَلَمْ أَعْهَــدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُــدُوا الشَّــيْطانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَـــدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُـــدُونِي » ؟ .. فالعهد الـذي أخـذه اللّه على أبنـاء آدم جميعا ، هو أن يتجنبـــوا عبـــادة الشـــيطان ، وأن يحـــذروا الإسـتجابة له فيما يـدعوهم إليه ، وأن يعبـدوا اللّه وحـده .. فهـذا هو الصـراط المسـتقيم .. فمن لم يعبد اللّه ، فقد ضل وهلك ..

ثم أخبر اللّه تعالى عن مساعي الشـيطان في إضلال السابقين ، فقال : : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِـيراً أَفَلَمْ تَكُونُــوا تَعْقِلُــونَ » الجبــلّ ، والجبلة : الخلق والآية تلفت العقول إلى هــذه الآثار السيئة التي تركها الشيطان فيمن عصوا اللّه ، ونقضـــوا العهد ، واتبعـــوا خطـــوات الشـيطان .. لقد ألقى بهم الشـيطان فى بلاء عظيم ، وأوردهم مــوارد الهلاك .. فــإذا لم ير بعض الغــافلين أن يسـتجيبوا لما دعــاهم اللّه إليه من اجتناب الشيطان ، والحذر منه ــ أفلم يكن لهم فيما رأوا من آثـــــــــاره فى أتباعه وأوليائه ، ما يدعوهم إلى اجتنابه ، ومحاذرته ؟ أي لقد أغوى الشيطان خلقا كثيرا ، وزين لهم فعل الســــيئات ، وصـــــدهم عن طاعة اللّه وتوحيده ، أفلم تعقلوا عـداوة الشـيطان لكم ، وتبتعدوا عن مثل ضـلالات السـابقين ، حـتى لا تعذبوا مثلهم.

وفي قوله تعالى : « أَفَلَمْ تَكُونُـوا تَعْقِلُـونَ ؟ » هو عود باللائمة والتوبيخ لهؤلاء الـذين لا تـزال أيـديهم ممسـكة بيد الشـيطان ، وهم يمشـون على أشلاء صرعاه منهم!
ثم بيّن اللّه تعالى مـآل أهل الضـلال قـائلا لهم يوم القيامة تقريعا وتوبيخا : « هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَــدُونَ »..لقد نقض المشــركون عهد اللّه ، وخرجوا عن أمـره .. ولكن اللّه سـبحانه لم ينقض عهــده معهم ، وهو أنهم إذا نقضــوا عهــده ، وخرجــوا عن أمــره ، كــانت النــار موعدهم .. كما يقول سبحانه : « النَّارُ وَعَــدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَــرُوا وَبِئْسَ الْمَصِــيرُ » (72 : الحج).
قوله تعالى : « اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » أي اصـطلوا بها ، وذوقـوا عـذابها ، بسـبب كفركم وضـلالكم ..وفى هـذا الأمر الـذي يلقى إليهم وهم يتقلبـون على جمر جهنم مضـاعفة للعذاب ومزيد منه ، إن كان وراءه مزيد!.
وفي هــذا الكلام إشــارة إلى شــدة نــدامتهم وحسرتهم من وجوه ثلاثة [114] :
1 - قوله تعــــالى : اصْــــلَوْهَا وهو أمر تنكيل وإهانة ، كقوله تعالى لفرعون : ذُقْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ [الدخان 44/ 49].
2 - قوله تعـالى : الْيَـوْمَ الـذي يـدل على أن العـذاب حاضر ، وأن لـذاتهم قد مضت ، وبقي العذاب اليوم.

[114] - تفسير الرازي : 26/ 101

3 - قوله تعالى : بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الـذي ينـبئ عن الكفر بنعمة عظيمة ، وحيــاء الكفــور من المنعم من أشد الآلام ، كما قال بعضهم :

أليس بكاف لذي نعمة حياء المسيء من المحسن

ثم أبـان اللّه تعـالى مـدى مـواجهتهم بـالجرم الذي ارتكبوه دون أن يستطيعوا إنكاره ، فقال : « الْيَـوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْـواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْـدِيهِمْ وَتَشْـهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كـانُوا يَكْسِـبُونَ » أي فى هذا اليوم يختم اللّه على أفـواه أهل الضـلال ، فلا ينطقـــون .. وفى هـــذا زجر لهم ، وكبت للكلمات الـتي كـانت سـتنطلق من أفـواههم ، ليعتـــذروا بها إلى اللّه ، وليتـــبرءوا بها من أنفســهم ، وما جنته أيــديهم ، أو يحــاولوا بها إلقاء التهمة على غيرهم .. وفى كل هذا مجال للتنفس عنهم .. وكلّا ، فإنه لا متنفس لهم ، ولو بالكلمة!!

ومما يضاعف فى إيلامهم وحسرتهم أن يقــوم الشهود عليهم بإثبات جريمتهم ـ من أنفسهم ، فتشـهد عليهم أيـديهم وأرجلهم .. إنهم شـهود أربعة ، تتم بهم الشهادة على مرتكـبى الكبـائر ..

ولا نســأل كيف تتكلم هــذه الجــوارح .. إنها تنطق للخـالق الـذي خلقها ..وفى هـذا يقـول اللّه تعالى : « وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُــونَ حَتَّى إِذا ما جاؤُها شَــهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُـونَ

وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (19 ـــ 21 : فصلت).

فليست الأيدى والأرجل وحدها هى التي تنطق وتشهد على أصحابها ، بل إن كل جارحة فيهم تشهد عليهم بما كان منها ، حتى ألسنتهم تلك التي ختم اللّه عليها .. إنها ستنطق ولكن بعد أن تشهد الجوارح كلها ، فلا يكون لهم حجة تنطق بها الألسنة .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ » (24 : النور).

وجعل الكلام للأيدي والشهادة للأرجل ،لأن أكثر الأفعال تتم بمباشرة الأيدي ، كما قال تعالى : وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ [يس 36/ 35] وقال سبحانه : وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة 2/ـ 195] أي ولا تلقوا بأنفسكم ، والشاهد على العمل ينبغي أن يكون غيره ، فجعل الأرجل والجلود من جملة الشهود ، لتعذر إضافة الأفعال إليها.

روى مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ فَضَحِكَ ، فَقَالَ : هَلْ تَدْرُونَ مِمَّا أَضْحَكُ ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ ، يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ قَالَ : يَقُولُ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي ، فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، فَيُخْتَمُ عَلَى

فِيهِ ، ثُمَّ يُقَالُ لأَرْكَانِهِ : انْطِقِي فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَــهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ ، فَيَقُــولُ : بُعْــدًا لَكُنَّ ، وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ."[115].

ثم أوضح اللّه تعــــالى بعض مظــــاهر قدرته عليهم من إذهــــاب البصر والمسخ وســـلب الحركة ، فقـال : « وَلَـوْ نَشـاءُ لَطَمَسْـنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِـرُونَ » أي لو شــــاء اللّه لطمس على أعين هــــؤلاء المشركين ، وهم فى هذه الـدنيا ، وأنـزل بهم هذا العقـاب الـرادع ، فأسـرعوا إلى الإيمـان ، واستبقوا إليه ، تحت ضغط هذا النـذير ، ولكن اللّه سبحانه لم يشأ هذا بهم ، ولم يلجئهم إلى الإيمان اضطرارا ..فقوله تعـالى : « فَاسْـتَبَقُوا الصِّــراطَ » ســـبب للطمس على أعينهم ، والفـــاء للســـببية ..وقوله تعـــالى : « فَـــأَنَّى يُبْصِرُونَ » أي فكيف يبصرون ، إذا طمس اللّه على عيونهم ؟

إن هذه الإبصار نعمة جليلة من نعم اللّه ، وقد أبقاها اللّه لهم فلم يطمس عليها ..أفلا يرعون هـــذه النعمة المهـــددة بـــالطمس ؟ ثم ألا ينظرون بها ، ويهتدون إلى الإيمان ويســتبقون بها إلى صراط اللّه المستقيم ؟

«وَلَــوْ نَشــاءُ لَمَسَــخْناهُمْ عَلى مَكــانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ»

---

[115] - صحيح ابن حبان - (16 / 358) (7358) وصحيح مسلم (7629)

أي لو شئنا لبدّلنا خلقهم ، وحولنا صورهم إلى صور أخرى أقبح منها كالقردة والخنازير ، وهم في أمكنتهم ومواضعهم التي هم فيها يرتكبون السـيئات ، فلا يتمكنـون من الـذهاب والمضي أمامهم ، ولا الرجوع وراءهم ، بل يلزمون حالا واحدا ، لا يتقدمون ولا يتأخر

" أي لو شــاء اللّه كــذلك ، لمســخهم على مكانتهم التي هم فيها من الضلال والعنـاد ، هو لم يدخل على مشـاعرهم شـيئا من الإيمـان ، ولأمسك بهم على الكفر فما اســـــتطاعوا « مضيّا » أي اتجاها إلى الإيمان ، ولا رجوعا عما هم عليه من طــرق الضــلال ..ولكنه سـبحانه وتعالى ، لم يشأ ذلك فيهم ، وترك لهم مجــال النظر ، والاختيـــار ، والتحـــرك من الكفر إلى الإيمان ، إن شاءوا .. فمشيئتهم مطلقة عاملة ، غــير معطلة ، وبهــذا لا تكــون لهم على اللّه حجة.

وهــذا يعــنى أن الخطــاب هنا ــ وهو لجماعة المشـــــركين ـــــ يشـــــير إلى أن فيهم من سيتحولون من حالهم تلك ، ويخرجون من هذا الظلام ، ويلحقـون بـالمؤمنين ، ويـدخلون فى دين اللّه .. فالفرصة لا تــزال فى أيــديهم ، لن تفلت منهم بعد ..وإن السعيد منهم من سبق ، وأخذ مكانه على طريق الإيمـــــــان ، قبل أن تفلت الفرصة من يده"

ثم حــذرهم مَمِّرْهُ نُنَكِّسْــهُ فِي الْخَلْــقِ ، أَفَلا يَعْقِلُــونَ؟ أي ومن نطل عمـــره ، نـــرده إلى

الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشــاط ، أفلا يـــدركون ويتفكـــرون أنهم كلما تقـــدمت بهم السن ، ضـــعفوا وعجـــزوا عن العمـــل؟ وأننا أعطينـــــاهم الفرصة الكافية من العمر للبحث والنظر والتفكـــير الصـــحيح ، فـــإذا طــــالت أعمــارهم بعدئذ أكــثر من ذلك ، فلن يفيــدهم طــول العمر شــيئا. وفي هــذا قطع لأعــذارهم بأنه لم تتــوافر لــديهم الفرصة المواتية للبحث والنظر.

والآية مثل : اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَــعْفٍ ، ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْـدِ ضَـعْفٍ قُـوَّةً ، ثُمَّ جَعَـلَ مِنْ بَعْـدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ ، وَهُــوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ [الروم 30/ 54].

" « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْــــهُ فِي الْخَلْـــقِ .. أَفَلا يَعْقِلُونَ » مناسبة هـذه الآية لما قبلها ، هى أن الآيتين السابقتين ، حملتا مع هذا التهديد الــذي حملته إلى المشــركين ، دعــوة إلى المبــادرة إلى الإيمــان باللّه ، واســتباق الــزمن قبل أن يفوت الأوان ..

وهنا فى هذه الآية ، دعوة أخرى إلى المبــادرة واستباق الـزمن .. حيث أنه كلما طـال الـزمن بهم لم يزدهم طول الزمن إلا نقصا فى الخلق ، وإلا ضـعفا فى التفكـير ، حيث يأخذ الإنسـان عند مرحلة من مراحل العمر فى العـــودة إلى الوراء ، وفى الانحدار شيئا فشيئا ، حـتى يعـود كما بدأ ، طفلا فى مشاعره ، وخيالاته ، وصور تفكيره ..

فالزمن بالنسبة لهـؤلاء المشـركين ، ليس فى صـــالحهم ، وأنهم وقد بلغـــوا مرحلة الرجولة الكاملة ، لا ينتظـــــرون إلا أن ينقصـــــوا لا أن يـــزدادوا ، وعيا وإدراكا ، وأنهم إذا لم تهـــدهم عقـولهم إلى الإيمـان بهـذا الكتـاب الـذي بين أيديهم فلن يهتدوا بعد هذا أبدا ، بل سيزدادون ضلالا إلى ضلال ، وعمى إلى عمى ..

وفى قوله تعـالى : « أَفَلا يَعْقِلُـونَ » حثّ لهم على اسـتعمال عقـولهم تلك ، الـتي هى معهم الآن ، ثم إذا هى ـــ بعد أن يمتد العمر بهم ـــ وقد تخلت عنهم!

وهذا ما يشـير إليه قوله تعـالى : « وَمِنْكُمْ مَنْ يُـرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُـرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْـدِ عِلْمٍ شَيْئاً » (70 : النحل)."

ومضات

إنهم يتلقـــون التحقـــير والترذيل : «وَامْتــازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُـونَ» .. انعزلـوا هكـذا بعيـدا عن المؤمنين! «أَلَمْ أَعْهَـدْ إِلَيْكُمْ - يا بَنِي آدَمَ - أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ؟» .. ونـــداؤهم هنا «يا بَنِي آدَمَ» .. فيه من التبكيت ما فيه. وقد أخـرج الشـيطان أبـاهم من الجنة ثم هم يعبدونه ، وهو لهم عدو مبين.

«وَأَنِ اعْبُـــــدُونِي» .. «هـــــذا صِـــــراطٌ مُسْتَقِيمٌ» ..واصل إليّ مؤد إلى رضاي.

فلم تحـذروا عـدوكم الـذي أضل منكم أجيـالا كثيرة .. «أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ؟».

وفي نهاية هـذا الموقف العصـيب المهين يعلن الجزاء الأليم ، في تهكم وتأنيب :
«هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. اصْلَوْهَا الْيَـوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»!
ولا يقف المشـهد عند هـذا الموقف المـؤذي ويطويه. بل يستطرد العرض فإذا مشـهد جديد عجيب : «الْيَـوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْـواهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ» ..
وهكـذا يخـذل بعضـهم بعضا ، وتشـهد عليهم جـوارحهم ، وتتفكك شخصـيتهم مزقا وآحـادا يكذب بعضها بعضا. وتعـود كل جارحة إلى ربها مفردة ، ويثوب كل عضو إلى بارئه مستسلما. إنه مشـهد عجيب رهيب تـذهل من تصـوره القلـوب! كـذلك انتهى المشـهد وألسـنتهم معقودة وأيديهم تتكلم ، وأرجلهم تشهد ، على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم وعلى غـير ما كـانوا ينتظـرون. ولو شـاء اللّه لفعل بهم غـير ذلك ، ولأجرى عليهم من البلاء ما يريد ..
ويعرض هنا نوعين من هـذا البلاء لو شـاء اللّه لأخذ بهما من يشاء : «وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْـتَبَقُوا الصِّـراطَ ، فَـأَنَّى يُبْصِـرُونَ ، وَلَـوْ نَشـاءُ لَمَسَـخْناهُمْ عَلى مَكـانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ» ..
وهما مشـهدان فيهما من البلاء قـدر ما فيهما من السخرية والاستهزاء. السخرية بالمكـذبين والاستهزاء بالمستهزئين ، الذين كانوا يقولـون : «مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟» ..

فهم في المشهد الأول عميان مطموسون. ثم هم مع هـــذا العمى يســـتبقون الصـــراط ويــتزاحمون على العبــور ، ويتخبطــون تخبط العميان حين يتسابقون! ويتسـاقطون تسـاقط العميــان حين يســارعون متنافســين! «فَـأَنَّى يُبْصِرُونَ» وهم في المشـهد الثـاني قد جمـدوا فجأة في مكانهم ، واستحالوا تماثيل لا تمضي ولا تعـــود بعد أن كـــانوا منذ لحظة عميانا يســتبقون ويضـــطربون! وإنهم ليبـــدون في المشـهدين كالـدمى واللعب ، في حـال تثـير السخرية والهزء. وقد كانوا من قبل يستخفون بالوعيد ويســــتهزئون! ذلك كله حين يحين الموعد الذي يسـتعجلون .. فأما لو تركـوا في الأرض ، وعمـــروا طـــويلا وأمهلهم الوعد المرسـوم بعض حين فـإنهم صـائرون إلى شر يحمـــدون معه التعجيل .. إنهم صـــائرون إلى شــيخوخة وهــرم ، ثم إلى خــرف ونكسة في الشــعور والتفكــير :«وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْــهُ فِي الْخَلْقِ. أَفَلا يَعْقِلُونَ» ..

والشـيخوخة نكسة إلى الطفولـة. بغـير ملاحة الطفولة وبراءتها المحبوبـة! وما يـزال الشـيخ يـتراجع ، وينسى ما علم ، وتضـعف أعصـابه ، ويضعف فكـره ، ويضـعف احتماله ، حـتى يرتد طفلا. ولكن الطفل محبـــوب اللثغة ، تبسم له القلــوب والوجــوه عند كل حماقــة. والشــيخ مجتوى لا تقـال له عـثرة إلا من عطف ورحمة ، وهو مثــار السـخرية كلما بــدت عليه مخايل

الطفولة وهو عجـــوز. وكلما اســـتحمق وقد قوست ظهــره الســنون! فهــذه العاقبة كتلك تنتظر المكـــذبين ، الـــذين لا يكـــرمهم اللّه بالإيمان الراشد الكريم ..[116]

وقال دروزة " عند قوله تعـالى {الْيَـوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْـواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْـدِيهِمْ وَتَشْـهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ } عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِـكٍ ، قَـالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ ، فَقَالَ : هَلْ تَدْرُونَ مِمَّا أَضْـحَكُ ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ ، يَقُـولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ ؟ قَالَ : يَقُـولُ : بَلَى ، قَـالَ : فَـإِنِّي لاَ أُجِـيزُ عَلَى نَفْسِـي إِلاَّ شَـاهِدًا مِنِّي ، فَيَقُــولُ : كَفَى بِنَفْسِــكَ الْيَــوْمَ عَلَيْــكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ عَلَيْكَ شَـهِيدًا ، فَيُخْتَمُ عَلَى فِيـهِ ، ثُمَّ يُقَـالُ لأَرْكَانِـهِ : انْطِقِي فَتَنْطِـقُ بِأَعْمَالِهِ ، ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلاَمِ ، فَيَقُـولُ : بُعْدًا لَكُنَّ ، وَسُحْقًا فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ."[117]

وفي الحديث تفسـير توضـيحي للصـورة الـتي احتوتها الآية قد يزول به ما يمكن أن يقوم من وهم التنــاقض بينها وبين آيــات أخــرى حكيت فيها أقوال يقولها الكفار يوم القيامة من قبيل الاعتذار مثل آية سورة المؤمنون هـذه : قـالُوا رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَيْنا شِــقْوَتُنا وَكُنَّا قَوْمــاً ضــالِّينَ (106) رَبَّنا أَخْرِجْنا مِنْها فَإِنْ عُدْنا فَإِنَّا ظـالِمُونَ

---

[116] - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2972

[117] - صحيح ابن حبان - (16 / 358) (7358) وصحيح مسلم (7629)

(107). وآية سورة السجدة هذه : وَلَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُــونَ ناكِسُــوا رُؤُسِــهِمْ عِنْــدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَــرْنا وَسَــمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَــلْ صــالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (12).

وليس في الحـديث بعد ما يخـلّ بما قلنـاه من استهداف الآيـات لإثـارة الخـوف والـرعب في الكفّار كما هو واضح."

وقال أيضاً : والآيات على ما هو ظاهر متصــلة بالسياق السابق اتصــال تعقيب وتنديد وتنبيه ، ولعلها انطـــــوت على تســــلية للنــــبي والمؤمنين أيضا. حيث احتـوت تقريـرات ربانية بأن اللّه لو شاء لطمس على أعين الكفــار فلا يســتطيعون أن يبصــروا الصــراط المســتقيم ويسيروا فيه ، أو لو شـاء لمسـخهم فبـدّل من صـــورهم وأفقـــدهم قابلية الحركة والنشـــاط المعتادة وأن في ما يرونه من آثـار قـدرة اللّه وناموسه في تبـــديل خلق الإنســـان وقـــواه وإرجاعه حين شـيخوخته إلى الضـعف وســوء الحال لدليلا على ذلك لو عقلوا.

والمتبــادر لنا أنه أريد بما قررته الآيــات تقرير كون اللّه لم يفعل بهم ذلك إلا ليكـون لهم من مواهبهم وحواسـهم المعتـادة الـتي زودهم بها وســيلة للإدراك والتميــيز والحركة والنشــاط حـــتى لا تضـــيع الفرصة عليهم ويســـتحقوا ما يستحقونه من المصير عدلا وحقا إذ عطلـوا ما زودهم اللّه به وأضــاعوا الفرصة ولم يســيروا في طريق الهدى والحق.

وينطوي في هذا إعذار وإنذار ربانيان للكفـار ، وحكمة ربانية سامية مستمرة الإلهام والتلقين وهي الــدعوة إلى الانتفــاع بــالمواهب الــتي أودعها اللّه في الناس بالاسـتدلال على سـبيل الحق والهــدى والخــير والســير فيها وعــدم تعطيلها." [118]

ما ترشد إليه الآيات

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

1 - إن سياسة العزل للمجـرمين سـتطبق في الآخـرة بنحو تـام وشـامل ، فيمـيز المجرمـون عن المؤمنين ، تحقيرا لهم ، وإعدادا لسـوقهم إلى نـــار جهنم ، وذلك حين يـــؤمر بأهل الجنة إلى الجنة ، فيقال لهم : اخرجوا من جملتهم.

عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ ، قَالَ : ذَكَرَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ عَنْ سَبْعَةِ رَهْطٍ شَهِدُوا بَدْرًا قَالَ وَهْبٌ : وَقَدْ حَـدَّثَنِي عَبْـدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ كُلُّهُمْ رَفَعُـوا الْحَـدِيثَ إِلَى رَسُـولِ اللَّهِ : " إِنَّ اللَّهَ يَـدْعُو نُوحًا وَقَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوَّلَ النَّاسِ ، فَيَقُـولُ : مَاذَا أَجَبْتُمْ نُوحًا ؟ فَيَقُولُونَ : مَا دَعَانَا وَمَا بَلَّغَنَا وَلَا نَصَــحَنَا وَلَا أَمَرَنَا وَلَا نَهَانَا ، فَيَقُــولُ نُــوحٌ : دَعَــــوْتُهُمْ يَا رَبِّ دُعَــــاءً فَاشِــــيًا فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِـرِينَ أُمَّةً بَعْـدَ أُمَّةٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى خَـاتَمِ النَّبِيِّينَ أَحْمَدَ فَانْتَسَخَهُ وَقَرَأَهُ وَآمَنَ بِهِ وَصَـدَّقَهُ فَيَقُـولُ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَـةِ : ادْعُـوا أَحْمَـدَ وَأُمَّتَـهُ ، فَيَأْتِي رَسُولُ اللَّهِ وَأُمَّتُهُ يَسْعَى نُـورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُ نُوحٌ لِمُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ : هَلْ تَعْلَمُـونَ

---

[118] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 37)

أَنِّي بَلَّغْتُ قَـــوْمِي الرِّسَـــالَةَ وَاجْتَهَـــدْتُ لَهُمْ بِالنَّصِـيحَةِ ، وَجَهِـدْتُ أَنْ أَسْـتَنْقِذَهُمْ مِنَ النَّارِ سِرًّا وَجِهَـارًا ، فَلَمْ يَـزِدْهُمْ دُعَـائِي إِلَّا فِـرَارًا ؟ فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ وَأُمَّتُهُ : " فَإِنَّا نَشْـهَدُ بِمَا نَشَدْتَنَا بِهِ أَنَّكَ فِي جَمِيعِ مَا قُلْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ " . فَيَقُولُ قَوْمُ نُوحٍ : وَأَيْنَ عَلِمْتَ هَذَا يَا أَحْمَـدُ أَنْتَ وَأُمَّتُكَ وَنَحْنُ أَوَّلُ الْأُمَمِ وَأَنْتَ وَأُمَّتُكَ آخِـرُ الْأُمَمِ ؟ فَيَقُـولُ رَسُـولُ اللَّهِ : " بِسْـمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَـلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِـهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمُ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَـرَأَ السُّـورَةَ حَتَّى خَتَمَهَا ، فَـإِذَا خَتَمَهَا قَـالَتْ أُمَّتُـهُ نَشْهَدُ أَنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَـصُ الْحَـقُّ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ اللَّهَ لَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيمُ ، فَيَقُـولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْـدَ ذَلِـكَ : " امْتَـازُوا الْيَـوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ فَهُمْ أَوَّلُ مَنْ يَمْتَازُ فِي النَّارِ "[119]

وعَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ ، أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ قَـالَ : " إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَمَرَ اللَّهُ جَهَنَّمَ فَيَخْرُجُ مِنْهَا عُنُقٌ سَاطِعٌ مُظْلِمٌ ، ثُمَّ يَقُولُ : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ . . الْآيَةَ ، إِلَى قَوْلِهِ : هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَـدُونَ وَامْتَـازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . فَيَتَمَيَّزُ النَّاسُ وَيَجْثُونَ ، وَهِيَ قَـوْلُ اللَّهِ : وَتَـرَى كُـلَّ أُمَّةٍ الْآيَـةَ فَتَأْوِيـلُ الْكَلَامِ إِذَنْ :وَتَمَيَّزُوا مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ الْيَـوْمَ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ بِاللَّهِ ، فَإِنَّكُمْ وَارِدُونَ غَيْرَ مَـوْرِدِهِمْ ، دَاخِلُونَ غَيْرَ مَدْخَلِهِمْ "[120]

---

[119] - الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ لِلْحَاكِمِ(3971) حسن

2 - يعــاتب الكفــار ســلفا في الــدنيا قبل أن يعاقبوا في الآخرة ، فيقـال لهم من جهة الحق : ألم أوصــكم وأبلّغكم على ألســنة الرسل ألا تطيعوا الشيطان في معصيتي ، وأن توحدوني وتعبدوني ، فإن عبادتي دين قويم.
3 - يؤكد تعـالى تحـذيره من الشـيطان قـائلا : لقد أغوى الشيطان بوساوسه خلقا كثيرا ، أفلا تعتـــبرون بـــالآخرين ، وألا تعقلـــون عداوته ، وتعلموا أن الواجب طاعة اللّه تعالى.
4 - وتقــول خزنة جهنم للكفــار : هــذه جهنم التي وعدتم ، فكذبتم بها.
عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ ، رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ أَنَّهُ قَـالَ : حَــدَّثَنَا رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ وَهُــوَ فِي طَائِفَــةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ إِسْرَافِيلَ بِالنَّفْخَةِ الْأُولَى فَيَقُولُ لَهُ : انْفُخْ نَفْخَـةَ الْفَـزَعِ ، فَيَنْفُخُ نَفْخَـةَ الْفَـزَعِ ، فَيَفْـزَعُ أَهْـلُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : يَا رَسُــولَ اللَّهِ ، فَمَنِ اسْـتَثْنَى اللَّهُ حِينَ يَقُــولُ : فَفَــزِعَ مَنْ فِي السَّــمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَـاءَ اللَّهُ ؟ فَقَـالَ : أُولَئِكَ الشُّـهَدَاءُ ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ وَقَاهُمُ اللَّهُ فَـزَعَ ذَلِـكَ الْيَوْمِ ، وَأَمَّنَهُمْ مِنْهُ وَهُوَ عَذَابُ اللَّهِ يَبْعَثُـهُ عَلَى شِرَارِ خَلْقِهِ هُوَ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُــوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَــةَ السَّــاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا

---

[120] - جَـامِعُ الْبَيَـانِ فِي تَفْسِـيرِ الْقُـرْآنِ لِلطَّبَـرِيِّ (26846) ضعيف

أَرْضَـعَتْ وَتَضَـعُ كُـلُّ ذَاتِ حَمْـلٍ حَمْلَهَا وَتَـرَى النَّاسَ سُـكَارَى وَمَا هُمْ بِسُـكَارَى وَلَكِنَّ عَـذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ مُمَكَّنُونَ فِي الْبَلَاءِ إِلَّا مَنْ شَــاءَ اللَّهُ يُطَـوِّلُ ذَلِـكَ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ يَـأْمُرُ اللَّهُ إِسْـرَافِيلَ بِنَفْخَةِ الصَّعْقِ فَيَقُولُ لَهُ : انْفُخْ نَفْخَةَ الصَّـعْقِ ، فَيَصْـعَقُ أَهْـلُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَـاءَ اللَّهُ ، فَإِذَا هُمْ خَمِدُوا جَاءَ مَلِكُ الْمَوْتِ ، فَقَـالَ : يَا رَبِّ ، قَدْ مَاتَ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شِئْتَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى : فَمَنْ بَقِيَ ؟ وَهُـــوَ أَعْلَمُ ، فَيَقُـــولُ : يَا رَبِّ ، بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُـوتُ ، وَبَقِيَ حَمَلَـةُ عَرْشِـكَ ، وَبَقِيَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَبَقِيتُ أَنَا ، فَيَقُـولُ اللَّهُ عَـزَّ وَجَـلَّ : لِيَمُتْ جِبْرِيـلُ وَمِيكَائِيـلُ ، فَيَتَكَلَّمُ الْعَرْشُ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ يَمُوتُ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَـلَّ لَـهُ : اسْـكُتْ إِنِّي كَتَبْتُ الْمَــوْتَ عَلَى كُــلِّ مَنْ كَــانَ تَحْتَ عَرْشِــي ، فَيَمُوتَـانِ فَيَـأْتِي مَلَـكُ الْمَـوْتِ إِلَى الْجَبَّارِ عَـزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ قَدْ مَاتَ جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيـلُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ وَهُـوَ أَعْلَمُ : مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُــــولُ : بَقِيتَ أَنْتَ يَا رَبِّ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَبَقِيَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ ، وَبَقِيتُ أَنَا فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيَمُتْ حَمَلَـةُ عَرْشِـي فَيَمُوتُـونَ ، وَيَأْمُرُ اللَّهُ الْعَرْشَ فَيَقْبَلُ الصُّورَ مِنْ إِسْـرَافِيلَ ، ثُمَّ يَـأْتِي مَلَـكُ الْمَـوْتِ فَيَقُـولُ : يَا رَبِّ ، قَـدْ مَاتَ حَمَلَةُ عَرْشِكَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ وَهُوَ أَعْلَمُ : مَنْ بَقِيَ ؟ فَيَقُــــولُ : يَا رَبِّ بَقِيتَ أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَبَقِيتُ أَنَا فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ

: يَا مَلَكَ الْمَوْتِ ، أَنْتَ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِي خَلَقْتُـكَ لِمَا رَأَيْتَ فَمُتْ ثُمَّ لَا تَحْيَ فَإِذَا لَمْ يَبْـقَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الصَّـمَدُ لَيْسَ بِوَالِـدٍ وَلَا وَلَـدٍ كَـانَ آخِرَ مَا كَانَ أَوَّلًا ، قَـالَ اللَّهُ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى : لَا مَـوْتَ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَلَا مَـوْتَ عَلَى أَهْـلِ النَّارِ ، ثُمَّ طَوَى اللَّهُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَطَيِّ السِّــــجِلِّ لِلْكُتُبِ ثُمَّ دَحَا بِهِمَا ثُمَّ تَلَقَّفَهُمَا ، ثُمَّ قَـــالَ : أَنَا الْجَبَّارُ ، ثُمَّ دَحَا بِهِمَا ثُمَّ تَلَقَّفَهُمَا ثُمَّ قَـالَ : أَنَا الْجَبَّارُ ، ثُمَّ دَحَا بِهِمَا ، ثُمَّ تَلَقَّفَهُمَا ثُمَّ قَـالَ : أَنَا الْجَبَّارُ ثُمَّ هَتَـفَ بِصَـوْتِهِ فَقَـالَ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ ثُمَّ قَالَ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ ثُمَّ قَالَ : لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَـوْمَ ؟ ثُمَّ قَـالَ لِنَفْسِـهِ لِلَّهِ الْوَاحِـــدِ الْقَهَّارِ ثُمَّ بَـــدَّلَ الْأَرْضَ غَيْـــرَ الْأَرْضِ وَالسَّـمَاوَاتِ فَبَسَـطَهَا وَسَـطَحَهَا وَمَـدَّهَا مَـدَّ الْأَدِيمِ الْعُكَـاظِيِّ لَا تَـرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا "[121]

5 - إن أعضاء الإنسـان الـتي كـانت أعوانا في حق نفسه ، صارت عليه شـهودا في حق ربّـه. والسـبب في التعبـير بكلام الأيـدي وشـهادة الأرجل أن اليد مباشـرة للعمل ، فتحتـاج إلى شهادة غيرها.

ومن وقائع الشهادة يوم القيامة أن المشركين قالوا كما حكى القرآن عنهم : وَاللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْـرِكِينَ [الأنعـام 6/ـ 23] فيختم اللّه على أفواههم ، حتى تنطق جوارحهم.

---

[121] - تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ (15549) ضعيف

6 - لو شاء اللّه لأعمى الكفار عن الهدى ، فلا يبصرون طريقا إلى منـازلهم ولا غيرها ، ولكنه لم يفعل رحمة بهم ، وليتمكنـــــوا من النظر الصـحيح المـؤدي إلى الإيمـان باللّه وحـده لا شريك له.

7 - ولو شاء اللّه لبدل خلقة الكفـار إلى ما هو أقبح منها جزاء على كفـرهم ، ولجعلهم حجـرا أو جمادا أو بهيمة ، كالقردة والخنازير ، وحينئذ لا يستطيعون أن يمضـوا أمـامهم ، ولا يرجعـوا وراءهم ، كما أن الجمـاد لا يتقـدم ولا يتـأخر ، ولكنه تعالى أيضا لم يفعل ، لرحمته الواسعة.

8 - لا حاجة لإطالة أعمار الناس أكثر مما قدر تعـــالى لهم ، لأنه كلما طـــال العمر ازداد الإنسـان ضـعفا. والمقصـود بالآية وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ .. الإخبار عن هذه الـدار بأنها دار زوال وانتقـال ، لا دار دوام واسـتقرار ، ولهـذا قـال تعـــالى في ختـــام الآية : أَفَلا يَعْقِلُـــونَ أي يتفكـــرون بعقـــولهم في ابتـــداء خلقهم ، ثم صـــــيرورتهم إلى سن الشـــــيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لـدار أخـرى لا زوال لها ، ولا انتقـــال عنها ، ولا محيد عنها ، وهي الدار الآخرة. ثم أفلا يعقلون أن من فعل هذا بهم قادر على بعثهم مرة أخرى؟!

إثبات وجود اللّه ووحدانيته وبيان خواص الرسالة

قال تعالى :

□□□□□□□□□□□□ □□□ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ
ﯗ □ □ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ
ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ
ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

69 ... وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ... لم نعلم محمـدا □ الشعر

69 ... وَمَا يَنْبَغِي لَـــــهُ ... ما هو من طبعه ولا يصلح له ولا يصح منه

72 ... ذَلَّلْنَاهَا ... سخرناها

75 ... جُنْــدٌ مُحْضَــرُونَ ... المشــركون جند ينصرون الآلهة بدلا من أن تنصرهم

المناسبة :

بعد أن ذكر اللّه تعالى أصلين من أصول الدين الثلاثة ، وهما الوحدانية في قوله : وَأَنِ اعْبُــدُونِي هــذا صِــراطٌ مُسْــتَقِيمٌ والبعث أو الحشر في قوله : هذِهِ جَهَنَّمُ .. اصْـلَوْهَا الْيَـوْمَ ذكر الأصل الثــالث وهو الرســالة في الآيــتين الأوليين : وَما عَلَّمْنـاهُ الشِّـعْرَ ... الآيـة. ثم إنه تعالى أعـاد الكلام على الوحدانية وأقـام الأدلة الدالة عليها في بقية هذه الآيات.

التفسير والبيان :

ينفي الحق تبـارك وتعـالى صـفة الشـعر عن القرآن ، وخاصية الشاعرية عن الرسـول ، فيقول : « وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ »..

ومناسبة هـذه الآية لما قبلها أيضا ، هو أنه وقد حملت الآيـــات الثلاث قبلها دعـــوة إلى المشـركين أن يسـتبقوا الإيمـان باللّه ، وأن يبادروا باستعمال عقولهم والنظر بها إلى آيات اللّه قبل أن تذهب هـذه العقـول مع الـزمن ـ فقد جـاءت تلك الآية تلقـاهم برسـول اللّه ، وبكتاب اللّه الذي معه ، ليكون لمن انتفع بهذه الـدعوة معـاودة نظر إلى رسـول اللّه ، وإلى كتاب اللّه .. فالضمير فى قوله تعـالى : « وَما عَلَّمْناهُ » يعود إلى الرسول الكـريم ، وهو وإن لم يجر له ذكر فى الآيـات السـابقة ، فإنه مذكور ضمنا فى كل آية من آيات الكتـاب ، إذ كانت منزلة عليه ..

فهذا رسول اللّه .. ليس بشاعر كما يقولون .. إنه لم يؤثر عنه شعر ، ولم يكن ـ كما عرفـوا منه ـ من بين شعرائهم .. فهـذه تهمة ظالمة ، يجب أن يـبرئوا النـبىّ منها ، وأن يلقـوه من جديد على أنه ليس بشاعر.

وهـذا كتـاب اللّه الـذي بين يديه .. ليس من واردات الشعر ـ كما يزعمون زورا وبهتانا ـ بل هو « ذكر » يجد النـاس من آياته وكلماته ، ما يذكّرهم بإنسانيتهم ، وبما ضـيعوا من عقـولهم فى التعامل مع الجهـالات والضـلالات ، على

خلاف الشــعر ، فإنه ــ فى غالبه ــ استرضــاء للعواطف وتغطية على مــــــواطن الرشد من العقول ..
وهذا الكتاب هو « قُرْآنٌ مُبِينٌ » أي كتاب غــير مغلق على قارئه ، أو ســامعه من قــارئ له ، بل هو واضح المعــنى ، بيّن القصد ، فلا تعمّى على قارئه أو سامعه أنباء ما به .."
والشــعر : كلام عــربي له وزن خــاص ، ينتهي كل بيت منه بحـرف خـاص يسـمى قافية ، ولا بد في القصيدة من وحدة القافية ، أي الحرف الأخير من كل بيت. ويعتمد الشعر على الخيال الخصب ، والتصــــــــــوير الرائع ، والعاطفة المشـــــبوبة ، ولا يتبع الشــــاعر فيه ما يمليه العقل والمنطق ، ولا يتحــرى الصــدق والدقة في إرسـال أوصـاف المـديح والهجـاء والرثـاء والغزل وغير ذلك ، ويبالغ الشاعر في التصوير والوصف ، وما همّه إلا انـــتزاع الإعجـــاب من السـامعين بقوله ، لـذا وصف تعـالى الشـعراء بقوله : أَلَمْ تَــرَ أَنَّهُمْ فِي كُــلِّ وادٍ يَهِيمُــونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُــونَ ما لا يَفْعَلُــونَ [الشــعراء 26/ 225 -ـ 226] وقـال العـرب : أعـذب الشـعر أكذبه قـال أبو حيـان : والشـعر : إنما هو كلام مــــوزون مقفّى ، يــــدل على معـــنى تنتخبه الشعراء من كثرة التخييل وتزويق الكلام وغير ذلك ، مما يتـورع المتـدين عن إنشـاده ، فضلا عن إنشائه[122].

[122] - البحر المحيط : 7/ 345

أما القرآن الكريم فخبره صدق ، وكلامه عظة واقعية ، ومنهجه التشـريع الـذي يسـعد البشر ،وقصده الـترغيب في فضـائل الأعمـال وغـرر الخصــال والأخلاق ،والــترهيب من الانحــراف والرذيلة ،وتقرير أحكـــام العبـــادة الصـــحيحة والمعاملة الرشيدة.

فالآية دلت على نفي كـون القـرآن شـعرا في قوله تعالى : وَما عَلَّمْنـاهُ الشِّعْرَ ، ونفي كـون النـبي شـاعرا في قوله تعـالى : وَما يَنْبَغِي لَـهُ وإنما علّمه اللّه القـرآن الـذي يمتـاز بخاصـيّة معينة تختلف عن الشعر المعـروف وعن النـثر المألوف.

وهي رد قاطع على قول العرب أهل مكة : إن القـرآن شـعر أو سـحر أو من عمل الكهـان ، وإن محمدا شاعر ، قاصدين بذلك إبطال صفة الـــوحي به من عند اللّه ، وتكـــذيب خاصـــيّة الرسالة.

عَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ رَضِـــيَ اللَّهُ عَنْهُمَا " أَنَّ اِلْوَلِيـــدَ بْنَ الْمُغِـيرَةِ ، جَـاءَ إِلَى النَّبِيِّ فَقَـرَأَ عَلَيْـهِ الْقُـرْآنَ فَكَأَنَّهُ رَقَّ لَـهُ ، فَبَلَـغَ ذَلِـكَ أَبَا جَهْـلٍ ، فَأَتَـاهُ ، فَقَـالَ : يَا عَمِّ ، إِنَّ قَوْمَـكَ يَـرَوْنَ أَنْ يَجْمَعُوا لَكَ مَالًا . قَـالَ : لِمَ ؟ قَـالَ : لِيُعْطُوكَـهُ فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا لِتَعْرِضَ لِمَا قِبَلَـهُ قَـالَ : قَـدْ عَلِمَتْ قُرَيْشٌ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا قَـالَ : فَقُـلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ أَنَّكَ مُنْكِرٌ لَـهُ أَوْ أَنَّكَ كَـارِهٌ لَهُ , قَالَ : وَمَاذَا أَقُولُ ؟ فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُـلٌ أَعْلَمَ بِالْأَشْـــعَارِ مِنِّي ، وَلَا أَعْلَمَ بِرَجَـــزِهِ وَلَا

بِقَصِيدَتِهِ مِنِّي ، وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ . وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، وَوَاللَّهِ ، إِنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي يَقُولُ حَلَاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَا ، وَأَنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ . قَالَ : لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ . قَالَ : فَدَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ فِيهِ ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ : هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ يَأْثُرُهُ عَنْ غَيْرِهِ ، فَنَزَلَتْ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا "

وفي رواية عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ : جَاءَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ : اقْرَأْ عَلَيَّ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ قَالَ : أَعِدْ ، فَأَعَادَ النَّبِيُّ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ ، إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً ، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ وَمَا يَقُولُ هَذَا بَشَرٌ .[123]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ " أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ اجْتَمَعَ وَنَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانَ ذَا سِنٍّ فِيهِمْ ، وَقَدْ حَضَرَ الْمَوَاسِمَ ، فَقَالَ : إِنَّ وُفُودَ الْعَرَبِ سَتَقْدَمُ عَلَيْكُمْ فِيهِ ، وَقَدْ سَمِعُوا بِأَمْرِ صَاحِبِكُمْ هَذَا ، فَأَجْمِعُوا فِيهِ رَأْيًا وَاحِدًا وَلَا تَخْتَلِفُوا ، فَيُكَذِّبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَيَرُدُّ قَوْلَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا . فَقَالُوا : فَأَنْتَ يَا أَبَا عَبْدِ شَمْسٍ ، فَقُلْ ، وَأَقِمْ لَنَا رَأْيًا نَقُومُ بِهِ ، فَقَالَ : بَلْ أَنْتُمْ فَقُولُوا

---

123 - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (505) صحيح مرسل

أَسْمَعْ ، فَقَالُوا : نَقُـولُ كَـاهِنٌ ، فَقَـالَ : مَا هُـوَ بِكَـاهِنٍ ، لَقَـدْ رَأَيْتُ الْكُهَّانَ فَمَا هُـوَ بِزَمْزَمَـةِ الْكُهَّانِ ، فَقَالُوا : نَقُـولُ : مَجْنُـونٌ ، فَقَـالَ : مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ وَلَقَـدْ رَأَيْنَا الْجُنُـونَ ، وَعَرَفْنَـاهُ فَمَا هُـوَ بِخَنْقِـهِ وَلَا تَخَالُجِـهِ وَلَا وَسْوَسَـتِهِ . قَـالُوا : فَنَقُـولُ : شَـاعِرٌ ، قَـالَ : مَا هُـوَ بِشَـاعِرٍ ، قَـدْ عَرَفْنَا الشِّـعْرَ بِرَجَـزِهِ ، وَهَزَجِـهِ ، وَقَرِيضِـهِ ، وَمَقْبُوضِهِ ، وَمَبْسُوطِهِ ، فَمَا هُوَ بِالشِّعْرِ . قَالُوا : فَنَقُولُ : سَـاحِرٌ قَـالَ : فَمَا هُـوَ بِسَـاحِرٍ : قَـدْ رَأَيْنَا السُّـحَارَ وَسِـحْرَهُمْ ، فَمَا هُـوَ بِنَفْثِـهِ وَلَا عُقَدِهِ ، فَقَالُوا : مَا نَقُـولُ يَا أَبَا عَبْـدِ شَـمْسٍ ؟ قَـالَ : وَاللَّهِ ، إِنَّ لِقَوْلِـهِ حَلَاوَةً ، وَإِنَّ أَصْـلَهُ لَغَـدِقٌ وَإِنَّ فَرْعَـهُ لَجَنًا ، فَمَا أَنْتُمْ بِقَـائِلِينَ مِنْ هَـذَا شَـيْئًا إِلَّا عُـرِفَ أَنَّهُ بَاطِـلٌ ، وَإِنَّ أَقْـرَبَ الْقَوْلِ لَأَنْ تَقُولُوا : سَاحِرٌ فَتَقُولُوا : هُـوَ سَـاحِرٌ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَـرْءِ وَبَيْنَ أَبِيـهِ ، وَبَيْنَ الْمَـرْءِ وَبَيْنَ أَخِيـهِ ، وَبَيْنَ الْمَـرْءِ وَبَيْنَ زَوْجَتِـهِ ، وَبَيْنَ الْمَـرْءِ وَعَشِـيرَتِهِ ، فَتَفَرَّقُـوا عَنْـهُ بِـذَلِكَ ، فَجَعَلُـوا يَجْلِسُونَ لِلنَّاسِ حِينَ قَـدِمُوا الْمَوْسِـمَ ، لَا يَمُـرُّ بِهِمْ أَحَدٌ إِلَّا حَذَّرُوهُ إِيَّاهُ ، وَذَكَرُوا لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِ فَـأَنْزَلَ اللَّهُ عَـزَّ وَجَـلَّ فِي الْوَلِيـدِ بْنِ الْمُغِـيرَةِ وَذَلِـكَ مِنْ قَوْلِـهِ : ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيـدًا - إِلَى قَوْلِـهِ - سَأُصْـلِيهِ سَـقَرَ . وَأَنْـزَلَ اللَّهُ عَـزَّ وَجَلَّ فِي النَّفَرِ الَّذِينَ كَـانُوا مَعَـهُ وَيَصِـفُونَ لَـهُ الْقَـوْلَ فِي رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا جَـاءَ بِـهِ مِنْ عِنْـدِ اللَّهِ : الَّذِينَ جَعَلُـوا الْقُـرْآنَ عِضِـينَ أَيْ أَصْـنَافًا فَوَرَبِّكَ لَنَسْـأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ أُولَئِكَ النَّفَـرُ

الَّذِينَ يَقُولُونَ ذَلِكَ لِرَسُـولِ اللَّهِ ﷺ لِمَنْ لَقُـوا مِنَ النَّاسِ قَــالَ وَصَــدَرَتِ الْعَــرَبُ مِنْ ذَلِــكَ الْمَوْسِمِ بِـأَمْرِ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ وَانْتَشَـرَ ذِكْـرُهُ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ كُلِّهَا "[124]

وأما ما ورد على لسان الرسول ﷺ من أقوال موزونة ، فهو مجــرد ســليقة اتفاقية من غــير تكلف ولا صـنعة ولا قصد ، فعَنْ أَبِى إِسْـحَاقَ . قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ - رضى الله عنهما - أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - يَوْمَ حُنَيْنٍ قَــالَ لَكِنَّ رَسُــولَ اللَّهِ - ﷺ - لَمْ يَفِــرَّ ، إِنَّ هَــوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً ، وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَــانْهَزَمُوا ، فَأَقْبَــلَ الْمُسْــلِمُونَ عَلَى الْغَنَــائِمِ وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ ، فَأَمَّا رَسُــولُ اللَّهِ - ﷺ - فَلَمْ يَفِرَّ ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِـهِ الْبَيْضَـاءِ وَإِنَّ أَبَا سُــفْيَانَ آخِــذٌ بِلِجَامِهَا ، وَالنَّبِىُّ - ﷺ - يَقُولُ

« أَنَا النَّبِىُّ لاَ كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ »[125] .

وعَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - كَانَ فِى بَعْضِ الْمَشَاهِدِ وَقَدْ دَمِيَتْ إِصْبَعُهُ ، فَقَالَ :

« هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ ، وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ » [126].

بل إن الخليل بن أحمد الفراهيــــدي ما عــــدّ المشطور من الرجز شعرا.

---

124 - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (506) حسن
125 - صحيح البخارى(2864)
126 - صحيح البخارى (2802)

ولكنه ﷺ كـــان يتمثل أحيانا ببعض الأشـــعار لشـعراء العـرب ، مثل تمثله بـبيت طرفة بن العبد في معلّقته المشهورة[127] :

سَتُبْدي لكَ الأيامُ مَا كُنْتَ جَاهلا ... وَيأْتيك بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

فجعل يقول: "مَن لم تُزَوّد بالأخبار". فقال أبو بكــر: ليس هـــذا هكـــذا. فقـــال: "إني لست بشاعر، ولا ينبغي لي"

وعَنِ الْحَسَـنِ " أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ ﷺ كَـانَ يَتَمَثَّلُ بِهَـذَا الْبَيْتِ : كَفَى بِالْإِسْـلَامِ وَالشَّـيْبِ لِلْمَـرْءِ نَاهِيًا فَقَالَ أَبُو بَكْـرٍ : يَا رَسُـولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا قَـالَ الشَّاعِرُ :

كَفَى الشَّيْبُ وَالْإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

وَرَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ يَقُـــولُ : كَفَى بِالْإِسْـــلَامِ وَالشَيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَشْـهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا عَلَّمَـكَ الشِّـعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَـكَ " [128]

وثبت في الصحيح عَنِ البَرَاءِ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ ، قَالَ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الأَحْزَابِ يَنْقُــلُ التُّرَابَ ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِـهِ ، وَهُـوَ يَقُولُ :

" لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ، وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا ، فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ، وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا ، إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا "[129]

---

[127] - تفسير ابن كثير - (6 / 590) وفيه جهالة

[128] - الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ (793) حسن مرسل

[129] - صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (2837)

وعَنِ الْبَرَاءِ - رضى الله عنه - قَالَ رَأَيْتُ النَّبِىَّ - ﷺ - يَـوْمَ الْخَنْـدَقِ وَهُـوَ يَنْقُـلُ التُّرَابَ حَتَّى وَارَى التُّرَابُ شَـعَرَ صَـدْرِهِ ، وَكَـانَ رَجُلاً كَثِـيرَ الشَّعَرِ وَهْوَ يَرْتَجِزُ بِرَجَزِ عَبْدِ اللَّهِ:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاَقَيْنَا

إِنَّ الأَعْدَاءَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

يَرْفَعُ بِهَا صَوْتَهُ [130].

وعـــدم تعليمه الشـــعر، لأن اللّه إنما علّمه القرآن العظيم الذى : لا يَأْتِيهِ الْباطِـلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْـهِ وَلا مِنْ خَلْفِـهِ ، تَنْزِيـلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـدٍ [فصلت 41/ 42].

والقــرآن ليس بشــعر ولا تخيلات ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سـحر يـؤثر ، وإنما هو دسـتور للحيـاة الإسـلامية ، ومواعظ وإرشـادات ، كما قال تعالى : إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُـرْآنٌ مُبِينٌ أي ما القـــرآن إلا ذكر من الأذكـــار ، وموعظة من المواعظ ، وكتـاب سـماوي واضح ظـاهر جلي لمن تأمله وتـــــــدبره ، يتلى في المعابد ، ويسترشد في كل شؤون الحياة.

لـذا قـال تعـالى محـدّدا مهمة القـرآن ومهمة رسـول اللّه ﷺ : « لِيُنْـذِرَ مَنْ كـانَ حَيًّا وَيَحِـقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ » أي لينـذر هـذا القـرآن المـــــبين كل حي على وجه الأرض ، كقوله تعالى : لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَـغَ [الأنعـام 6/ـ 19] ولكن إنما ينتفع بنذارته من هو حيّ القلب ،

---

[130] - صحيح البخارى(3034)

مسـتنير البصـيرة ، ولكي تثبت به وتجب كلمة العذاب على الكافرين ، الممتنعين من الإيمان به ، وهذا في مقابلة صفة المؤمنين وهم أحياء القلوب ، أما الكافرون فهم لكفرهم وسـقوط حجتهم وعـدم تـأملهم أشـبه بـالأموات في الحقيقة ، لعـدم تـأثرهم بعظـات القـرآن ، وانعدام يقظتهم لاتباع الحق والهدى.

" أي أن هـذا الرسـول الكـريم ، إنما ينـذر بالكتـاب الـذي معه ، « مَنْ كـانَ حَيًّا » أي من كان فى الأحياء من النـاس ، بعقله ، ومدركاته ، وحواسه .. فإن من كان هذا شأنه ، كان أهلا لأن ينتفع بما ينذر به .. أما من تخلى عن عقله ، وملكاته ومشـاعره فلا يحسب فى الأحيـاء ، ولا ينتفع بالنـذر .. بل سـيظل على ما هو عليه من كفر وضلال ، ويحق عليه القول ، أي ينزل به العذاب ، الذي توعد به اللّه سبحانه وتعـالى ، أهل الكفر والضلال .."

والخلاصة : أن الآية دالة على أن القـــــرآن رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين.

ثم أعـــاد تعـــالى الكلام في الوحدانية وأتى ببعض أدلتها ، فقـال « أَوَلَمْ يَـرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ »

" هو عرض للآيات الكونية ، الـتي تكشف عنها الآيـات القرآنية لأبصـار هـؤلاء المشـركين ، الذين دعـوا إلى إعـادة النظر فى كتـاب اللّه ، وإلى إخلاء مشـاعرهم من القـول بأنه شـعر ، وأن الرسول الذي جـاء به من عند اللّه شـاعر

..فهذا الكتاب الـذي بين أيـديهم ليس شـعرا ، إنه ذكر وقـرآن مـبين ..ومن الـذكر الـذي فى هذا القرآن ـ هذا العرض الذي تعرض فى آياته هـذه المظـاهر من قـدرة اللّه ، وصـنعة يـده ..فهذه الأنعام التي يملكها هؤلاء المشـركون ، والتي فيها عبرة وذكرى لمن سـمع ، ووعى .. من خلقها ؟ ومن جعل لهم سـلطانا عليها ؟ ومن وضـعها فى أيـديهم وجعلها ملكا خالصا لهم ؟ ..

ألا فلينظـروا بعقـولهم إلى هـذه الأنعـام ، وليجيبـوا على هـذه الأسـئلة الـتي تطلع عليهم منها ..إنها صـنعة اللّه ، وفى ملكه .. ولكنه ـ سبحانه ـ قد ملّكهم اللّه إياها ، وأقـدرهم على تسخيرها ، والانتفاع بها .."

قوله تعـالى :« وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُـوبُهُمْ وَمِنْها يَـأْكُلُونَ » أي أنه لو لا أن ذللّها اللّه لهم ، وجعلها فى خدمتهم ، لما قـدروا عليها ، ولما أمسكوا بها .. إذ كانت أقـوى قـوّة منهم .. ولو شـاء اللّه لجعلها فى طبـائع الحيوانـات المفترسة ، الـتي لا تـألف النـاس ، ولا يألفها الناس .. فلا يكون لهم منها نفع أبدا .."

أي أو لم يشاهد هؤلاء المشركون باللّه عبدة الأصنام وغيرهم أن اللّه خلق لهم هذه الأنعـام (وهي الإبل والبقر والغنم) التي سـخرها لهم ، وأوجدها من أجلهم من غير وساطة ولا شريك ، وجعلهم مـالكين لها ، يقهرونها ويضـبطونها ويتصـرفون بها كيف شـاؤوا ، وهي ذليلة لهم ،

لا تمتنع منهم ، ولو شـــاء لجعلها مستعصـــية عليهم ، مستوحشة نـــــــــــافرة منهم ، فلا يســتفيدون منها ، فــترى الولد الصــغير يقــود البعير الكبير ، بل ولو كان القطار مائة بعير أو أكثر.

ثم أبان اللّه تعالى منافعها الملموسة ، فقال : وَذَلَّلْناها لَهُمْ ، فَمِنْها رَكُوبُهُمْ ، وَمِنْها يَأْكُلُونَ أي وجعلناها لهم مسـخّرة مذللة منقــادة لهم ، لا تمتنع مما يريــدون منها ، حــتى الــذبح ، فمنها مركوبهم الذي يركبونه في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال ، ومنها ما يأكلون من لحمها.

« وَلَهُمْ فِيها مَنـافِعُ وَمَشـارِبُ أَفَلا يَشْـكُرُونَ » أي ولهم فيها منافع أخرى غير الركـوب والأكل منها ، كالاســــتفادة من أصـــــوافها وأوبارها وأشـــــعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، وهي لهم مشارب أي يشربون من ألبانها ، أفلا يشكرون خـالق ذلك ومسـخره وموجد هـذه النعم لهم ، بعبادته وطاعته ، وترك الإشراك به غيره.

وهــذا حثّ صــريح على شــكر الخــالق المنعم بعبادته وطاعته ، وهو أبسط ما يوجبه الوفاء ، وتقدير المعروف والإحسان.

ولكن الكفـار تنكـروا لهـذا الـواجب ، وكفـروا بــأنعم اللّه ، واســتمروا في ضــلالهم وتركــوا عبادة اللّه ، وأقبلوا على عبـادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصـرة ، فقـال تعـالى : « وَاتَّخَــذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَــةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَــرُونَ ».هو عطف حدث على حدث .. وبين الحـدثين

تغـــاير كبـــير ، وتفـــاوت بعيد ، والشـــأن بين المتعـــاطفين أن يتقاربا ، ويتجاوبا .. ولكن فى هـــــذا العطف فضح لضــــلال المشــــركين ، وانحرافهم هذا الانحـراف الحـادّ ، عن الطريق السوىّ .. حيث يقابلون الإحسان بالكفران.
فاللّه سبحانه وتعالى يفضل عليهم بهـذه النعم ، خلقا ، وتسخيرا ، وتذليلا ..وهم يكفـرون به ، ويحادّونه ، ويتخــذون من دونه آلهة .. فما أبعد ما بين الإحسان والكفران!.
وقوله تعالى : « لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ » بيــان للغاية الــتي يقصد إليها المشــركون من اتخــاذ هــذه الآلهة من دون اللّه .. إنهم يرجـــــون من وراء ذلك الاســتعانة بها على ما يغلبهم من شــئون الحيـاة ، وما يلقـاهم على طريقها من عقبـات ..وهيهات .. ضعف الطالب والمطلوب ..!
ولكنها في الواقع لا تقـــدر على شــــيء ، ولا تحقق فائدة لعبادها ، لذا قال تعالى مبينا خيبة أملهم : « لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْـدٌ مُحْضَرُونَ ».هو ردّ على معتقد المشركين فى آلهتهم .. فهــؤلاء الآلهة الــذين اتخــذوهم من دون اللّه معبودين لهم ، يرجون منهم نصـرا ـــ هــؤلاء الآلهة لا يســتطيعون لهم نصـــرا ، بل وأكثر من هذا ، فإن آلهتهم هـذه ، محتاجة إلى من يحرسها ، ويدفع عنها يد المعتدين ..
وهـــــؤلاء المشـــــركون هم أنفســــهم ، جند محضـرون ، يقومـون على حماية هـذه الآلهة ، وحراســتها ، وحراسة ما تـــزيّن من به حلىّ ،

وما يلقى عليها من ملابس ..ــ فقوله تعـالى : « وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ » ـ الضمير « هم » يعــود إلى المشــركين ، وفى قوله تعــالى : « مُحْضَــرُونَ » ـــ إشــارة إلى أن هنــاك قــوى مسـلطة على هـؤلاء المشـركين ، تجعل منهم جندا لخدمة هذه الآلهة .. وهذه القوى هى تلك المشـــاعر المتولـــدة من معتقـــدهم الفاسد ، وتصـــورهم المـــريض ، حيث تســـوقهم هـــذه المشاعر الضـالة ، سـوقا ، إلى الـتزلّف لهـذه الدّمى ، والولاء الأعمى لها .."

وقوله : مُحْضَــرُونَ أي يخــدمونهم ، ويــدفعون عنهم ، ويغضبون لهم ، وليس للآلهة استطاعة على شيء ، ولا قدرة على النصر. أو إنهم يوم القيامة محضــرون لعــذابهم ، لأنهم يجعلــونهم وقودا للنار.

ثم ســـلّى اللّه رســـوله عما يلقـــاه من أذى المشركين ، فقال : « فَلا يَحْزُنْكَ قَــوْلُهُمْ .. إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ ».هو عزاء كريم ، للنــبى الكــريم ، من ربّ كــريم ، مما يرميه به قومه من بـــذىء القـــول وســـاقطه .. « فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ » هـذا الـذي يقولونه عنك ، من أنك كاذب ، وشاعر ، ومجنــون ، ولا يحزنك ما يقولونه فى آلهتهم ، وأنها شفعاء لهم من دون اللّه ..

وفى قوله تعالى : « إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِــرُّونَ وَما يُعْلِنُـــونَ ».. تهديد للمشـــركين ، ووعيد لهم بالحســاب الشــديد ، والعــذاب الأليم ، فاللّه

سبحانه يعلم ما يسرون وما يعلنـون ، من كفر ، وضـلال ، وبهتـان ، وهو سـبحانه محاسـبهم ومجازيهم عليه .."

ومضات

في هذا القطاع الأخير من السـورة تسـتعرض كل القضـايا الـتي تعالجها السـورة .. قضـية الـوحي وطبيعته وقضـية الألوهية والوحدانيـة. وقضـــية البعث والنشـــور .. تســـتعرض في مقـاطع مفصـلة. مصـحوبة بمـؤثرات قوية في إيقاعات عميقة. كلها تتجه إلى إبراز يد القدرة وهي تعمل كل شيء في هـذا الكـون وتمسك بمقاليد الأمور كلها. ويتمثل هذا المعنى مركزا في النهاية في الآية الـــتي تختم الســـورة : «فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُونَ» .. فهـذه اليد القوية المبتدعة خلقت الأنعـــــــــام للبشر وذللتها لهم. وهي خلقت الإنسان من نطفة.

وهي تحـــيي رميم العظـــام كما أنشـــأتها أول مـــرة. وهي جعلت من الشــجر الأخضر نـــارا. وهي أبـدعت السـماوات والأرض. وفي النهاية هي مالكة كل شـيء في هـذا الوجـود .. وذلك قوام هذا المقطع الأخير ..

«وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ - وَما يَنْبَغِي لَهُ - إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْـرٌ وَقُـرْآنٌ مُبِينٌ. لِيُنْـذِرَ مَنْ كـانَ حَيًّا وَيَحِـقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ» ..

وردت قضية الـوحي في أول السـورة : «يس وَالْقُـــرْآنِ الْحَكِيمِ. إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَـــلِينَ. عَلى

صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيـلَ الْعَزِيـزِ الـرَّحِيمِ. لِتُنْـذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آبـاؤُهُمْ فَهُمْ غـافِلُونَ ..» .. والآن تجيء في صـــورتها هــذه للـــرد على ما كـــان يدعيه بعضـــــهم من وصف النـــبي - ﷺ - بأنه شاعر ووصف القرآن الذي جاء به بأنه شعر.
وما كـــان يخفى على كـــبراء قـــريش أن الأمر ليس كـــذلك. وأن ما جـــاءهم به محمد - ﷺ - قـــول غـــير معهـــود في لغتهم. وما كـــانوا من الغفلة بحيث لا يفرقـون بين القـرآن والشـعر. إنما كـــان هــذا طرفا من حــرب الدعاية الــتي شنوها على الــدين الجديد وصـاحبه - ﷺ - في أوسـاط الجمـاهير. معتمـدين فيها على جمـال النسق القـــرآني المـــؤثر ، الـــذي قد يجعل الجمـــاهير تخلط بينه وبين الشـــعر إذا وجهت هذا التوجيه.
وهنا ينفي اللّه - ســبحانه - أنه علم الرســـول الشعر. وإذا كـان اللّه لم يعلمه فلن يعلم. فما يعلم أحد شيئا إلا ما يعلمه اللّه ..
ثم ينفي لياقة الشـعر بالرسـول - ﷺ - : «وَما يَنْبَغِي لَهُ» فللشعر منهج غير منهج النبوة.
الشـــعر انفعـــال. وتعبـــير عن هـــذا الانفعـــال. والانفعـال يتقلب من حـال إلى حـال. والنبـوة وحي. على منهج ثابت.
على صراط مستقيم. يتبع ناموس اللّه الثـابت الـذي يحكم الوجـود كلـه. ولا يتبـدل ولا يتقلب مع الأهـــــــواء الطارئة ، تقلب الشـــــــعر مع الانفعالات المتجددة التي لا تثبت على حال.

والنبـــوة اتصـــال دائم باللّه ، وتلق مباشر عن وحي اللّه ، ومحاولة دائمة لـــرد الحيـــاة إلى اللّه. بينما الشعر - في أعلى صـوره - أشـواق إنسانية إلى الجمال والكمـال مشـوبة بقصـور الإنسـان وتصـوراته المحـدودة بحـدود مداركه واســـتعداداته. فأما حين يهبط عن صـــوره العالية فهو انفعـالات ونــزوات قد تهبط حـتى تكون صراخ جسد ، وفــورة لحم ودم! فطبيعة النبوة وطبيعة الشعر مختلفتـان من الأسـاس. هـذه - في أعلى صـورها - أشـواق تصـعد من الأرض. وتلك في صـــميمها هداية تتـــنزل من السماء ..

«إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُـرْآنٌ مُبِينٌ» ..ذكر وقـرآن .. وهما صـــفتان لشـــيء واحـــد. ذكر بحسب وظيفتــه. وقــرآن بحسب تلاوتــه. فهو ذكر للّه يشتغل به القلب ، وهو قرآن يتلى ويشـتغل به اللسان. وهو منزل ليؤدي وظيفة محـدودة : « لِيُنْـــذِرَ مَنْ كـــانَ حَيًّا ، وَيَحِـــقَّ الْقَـــوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ» ..

ويضع التعبير القرآني الكفر في مقابل الحياة. فيجعل الكفر موتا ، ويجعل اســـتعداد القلب للإيمان حياة.

ويـــبين وظيفة هـــذا القـــرآن بأنه نـــزل على الرســول - ﷺ - لينــذر من به حيــاة. فيجــدي فيهم الإنــذار ، فأما الكــافرون فهم مــوتى لا يسمعون النذير وظيفة القـرآن بالقيـاس إليهم هي تسجيل الاسـتحقاق للعـذاب ، فـإن اللّه لا

يعـذب أحـدا حـتى تبلغه الرسـالة ثم يكفر عن بينة ويهلك بلا حجة ولا معـــذرة! وهكـــذا يعلم النـاس أنهم إزاء هـذا القـرآن فريقـان : فريق يســـتجيب فهو حي. وفريق لا يســـتجيب فهو ميت.

ويعلم هـــذا الفريق أن قد حق عليه القـــول ، وحق عليه العذاب!

والمقطع الثاني في هذا القطاع يعـرض قضـية الألوهية والوحدانية ، في إطـار من مشـاهدات القــــوم ، ومن نعم البـــــارئ عليهم ، وهم لا يشـــــكرون : «أَوَلَمْ يَـــــرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعامـاً فَهُمْ لَها مالِكُونَ؟ وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُـــوبُهُمْ وَمِنْها يَـــأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيها مَنـافِعُ وَمَشـارِبُ أَفَلا يَشْـكُرُونَ؟ وَاتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَـةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَـرُونَ. لا يَسْـتَطِيعُونَ نَصْـرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْـدٌ مُحْضَـرُونَ. فَلا يَحْزُنْـكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ» ..

أو لم يــروا؟ فآية اللّه هنا مشــهودة منظــورة بين أيـــــديهم ، ليست غائبة ولا بعيـــــدة ، ولا غامضة تحتـاج إلى تـدبر أو تفكـير .. إنها هـذه الأنعــام الــتي خلقها اللّه لهم وملكهم إياهــا. وذللها لهم يركبونها ويــأكلون منها ويشـــربون ألبانها ، وينتفعون بها منـافع شـتى .. وكل ذلك من قـــدرة اللّه وتـــدبيره ومن إيداعه ما أودع من الخصـــائص في النـــاس وفي الأنعـــام ، فجعلهم قـــادرين على تـــذليلها واســـتخدامها والانتفاع بها. وجعلها مذللة نافعة ملبية لشــتى

حاجات الإنسـان. وما يملك النـاس أن يصـنعوا من ذلك كله شيئا. وما يملكون أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له.

وما يملكون أن يذللوا ذبابة لم يـركب اللّه في خصائصـــها أن تكـــون ذلـــولا لهم! .. «أَفَلا يَشْكُرُونَ؟» ..

وحين ينظر الإنســـان إلى الأمر بهـــذه العين وفي هذا الضوء الذي يشـيعه القـرآن الكـريم. فإنه يحس لتـــوه أنه مغمـــور بفيض من نعم اللّه. فيض يتمثل في كل شيء حولـه. وتصـبح كل مـرة يـركب فيها دابة ، أو يأكل قطعة من لحم ، أو يشـــرب جرعة من لبن ، أو يتنـــاول قطعة من ســـــمن أو جبن. أو يلبس ثوبا من شعر أو صوف أو وبر .. إلى آخره إلى آخره .. لمسة وجدانية تشـــعر قلبه بوجـــود الخـــالق ورحمته ونعمته. ويطـرد هـذا في كل ما تمس يـده من أشـياء حوله ، وكل ما يسـتخدمه من حي أو جامد في هـذا الكـون الكبـير. وتعـود حياته كلها تسبيحا للّه وحمدا وعبادة آناء الليل وأطراف النهار ..

ولكن النـاس لا يشـكرون. وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة من دون اللّه : «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَـــةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَـــرُونَ. لا يَسْـــتَطِيعُونَ نَصْـــرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْـــدٌ مُحْضَـــرُونَ» : وفي الماضي كانت الآلهة أصناما وأوثانا ، أو شـجرا أو نجوما ، أو ملائكة أو جنا .. والوثنية ما تـزال حتى اليوم في بعض بقاع الأرض. ولكن الـذين

لا يعبدون هذه الآلهة لم يخلصوا للتوحيــد. وقد يتمثل شركهم اليـوم في الإيمـان بقـوى زائفة غير قوة اللّه وفي اعتمادهم على أسناد أخرى غـير اللّـه. والشـرك ألـوان ، تختلف بـاختلاف الزمان والمكان.

ولقد كانوا يتخذون تلك الآلهة يبتغون أن ينـالوا بها النصــر. بينما كـــانوا هم الـــذين يقومـــون بحماية تلك الآلهة أن يعتـــــــدي عليها معتد أو يصـــيبها بســـوء ، فكـــانوا هم جنودها وحماتها المعدين لنصرتها : «وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» ..

وكان هـذا غاية في سـخف التصـور والتفكـير. غـير أن غالبية النـاس اليـوم لم ترتق عن هـذا السخف إلا من حيث الشكل. فالـذين يؤلهـون الطغاة والجبارين اليوم ، لا يبعـدون كثـيرا عن عباد تلك الأصنام والأوثان. فهم جند محضرون للطغـاة. وهم الـذين يـدفعون عنهم ويحمـون طغيـــانهم. ثم هم في الـــوقت ذاته يخـــرون للطغيــــان راكعين! إن الوثنية هي الوثنية في شتى صورها. وحيثما اضطربت عقيدة التوحيد الخـالص أي اضـطراب جـاءت الوثنية ، وكـان الشرك ، وكانت الجاهلية! ولا عصمة للبشـرية إلا بالتوحيد الخــالص الــذي يفــرد اللّه وحــده بالألوهية. ويفرده وحده بالعبادة. ويفرده وحده بالتوجه والاعتمـــاد. ويفـــرده وحـــده بالطاعة والتعظيم.

«فَلا يَحْزُنْـكَ قَـوْلُهُمْ. إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِـرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ».
الخطـــاب للرســـول - ﷺ - وهو يواجه أولئك الــذين اتخــذوا من دون اللّه آلهــة. والــذين لا يشـــكرون ولا يـــذكرون. ليطمئن بـــالا من نــاحيتهم. فهم مكشــوفون لعلم اللّــه. وكل ما يدبرونه وما يملكونه تحت عينه.
فلا على الرســول منهم. وأمــرهم مكشــوف للقدرة القادرة. واللّه من ورائهم محيط ..
ولقد هان أمرهم بهـذا. وما عـاد لهم من خطر يحسه مــؤمن يعتمد على اللّــه. وهو يعلم أن اللّه يعلم ما يســرون وما يعلنــون. وأنهم في قبضته وتحت عينه وهم لا يشعرون![131]
وقال دروزة : " والآية الأولى تنفي عن النبي ﷺ الشـاعرية علما وترفُّعـاً وتقـرر أن القـرآن ليس إلّا تذكيراً للناس وقرآنا مبينا واضحا.
والآية الثانية تعلن أن النـــــبي ﷺ إنما أرسل وأنزل عليه القرآن لينـذر النـاس فينتفع بـذلك من كـــان ذا عقل متأمل وقلب حيّ ســـليم ويحق القول وتقوم الحجة على الجاحدين.
وبرغم ما يبـدو من اسـتقلال الآيـتين بموضـوع منفصل عما قبلهما فــإن ما جــاء بعــدهما هو اســتمرار للســياق الأول في التنديد بالكفــار وحكاية أقـــوالهم ومـــواقفهم بحيث يمكن أن يقال إنهما متصلتان بالسـياق السـابق واللاحق أيضا وإنهما جاءتا بمثابة تقرير لمهمة النــبي ﷺ

---
131 - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2974

وهــدف ما يوحيه اللّه إليه من قــرآن. وهــذا الأسلوب النظمي قد تكرر في القـرآن. ويبـدو أن حكمة هــذا الأســلوب هنا هي تقرير أن ما يتلــوه النــبي ﷺ من آيــات الإنــذار والوعيد والتقريــرات عن عظمة اللّه ووصف مشــاهد الآخــرة ومصــائر النــاس فيها ليس من قبيل الشــعر وإنما هو قــرآن ربــاني فيه كل الحق والحقيقة.

على أن الآيــتين احتوتا موضــوعا جديــدا ذاتيا أيضـا. وهو نفي شـاعرية النـبي ﷺ والقـرآن. فلقد رأى الكفار النـبي ﷺ يتلو الآيـات البليغة القوية النافذة إلى أعمـاق النفـوس والمـؤثرة في العواطف والمشاعر فظنـوا ذلك من قبيل الشعر البليغ الـذي اعتـادوا سـماعه والتـأثّر به والتحمّس له.

ولم يرد في السـور السـابقة حكاية عن نسـبة الشعر إلى النبي ﷺ من قبل الكفـار. غـير أن الآيتين تلهمان بقوة أن هـذا مما كـانوا يقولونه قبل نزولهمــا. ولقد حكته عنهم آيــات عديــدة في سور أخرى بعد هذه السورة حيث اقتضت حكمة التنزيل ذلك. منها آية سورة الأنبياء هذه : بَلْ قـالُوا أَضْـغاثُ أَحْلامٍ بَـلِ افْتَـراهُ بَـلْ هُـوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِـلَ الْأَوَّلُـونَ (5) وآية سورة الطور هذه : أَمْ يَقُولُـونَ شـاعِرٌ نَتَـرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30).

وفي نفي شـاعرية النـبي ﷺ وتقرير خطـورة مهمته في عبارة {وَما يَنْبَغِي لَـهُ} وكـذلك في

تقرير كون القرآن ذكرا وإنذارا قصدٌ آخرُ على ما يتبادر لنا وهو توكيد سموّ المصـدر القـرآني وعلوّ أهدافه وتجرّده عن المبالغات والأكـاذيب والاندفاع في العاطفة والخيال ، شأن الشعراء وما يصــدر عنهم ، ولفت نظر الســامعين إلى أن ما يتلوه هو ذكر وقرآن ربـاني فيه الصـدق والحقيقة وفيه الهدى والموعظة وفيه الـدعوة الخالصة إلى اللّه وصــــراط المســــتقيم وفيه أسمى مبادئ الخير والصـلاح وفضـائل الأخلاق والنظم وفيه الإنـذار والتبشـير والحـرص على هداية النــــاس وتحرير نفوســــهم وقــــواهم وعقـولهم والتسـامي بها إلى مـراتب الكمـال الخلقي والاجتماعي والإنساني.

وكل هـــذا هو من مهمـــات النبـــوّة وأعلامها ومظاهرها وليس فيه شـيء يمتّ إلى الشـعر والشعراء. ولقد زعم الكفـار بالإضـافة إلى أنه شــاعر أنه يتلقى شــعره من شــياطين الجنّ على ما كانوا يعتقدونه بالنسبة لنوابغ الشـعراء وعباقرتهم فأنزل اللّه آيات عديـدة في سـورة الشعراء في هذا الصدد منها : وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (192) نَزَلَ بِـهِ الـرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسـانٍ عَــــرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) وَإِنَّهُ لَفِي زُبُــــرِ الْأَوَّلِينَ (196) ومنها : وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّـياطِينُ (210) وَما يَنْبَغِي لَهُمْ وَما يَسْـــــتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّـــمْعِ لَمَعْزُولُــونَ (212) ،ومنها : هَــلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّـياطِينُ (221) تَنَـزَّلُ

عَلى كُــلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُــونَ السَّـــمْعَ وَأَكْثَــرُهُمْ كــاذِبُونَ (223) وَالشُّــعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغـــاوُونَ (224) أَلَمْ تَــــرَ أَنَّهُمْ فِي كُــــلِّ وادٍ يَهِيمُـونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُـونَ ما لا يَفْعَلُـونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُـــوا وَعَمِلُـــوا الصَّـــالِحاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِمُــوا وَسَــيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُــوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُــونَ (227) حيث انطوى في هذه الآيات تقرير قويٌّ في تزييف الشـعر والشـعراء ونفيٌ لشـاعرية النبي والقرآنِ ،ومقارنةٌ رائعـةٌ بين الشـعر والقرآن وبين الشعراء والنـبي صـلى اللّه عليه وسـلم. فالشـياطينُ إنما تـنزل بالشـعر على الشــعراء لا على الأنبيــاء ، ومعظم الشــعراء كـاذبون أفّـاكون أثيمـون وفي كل واد يهيمـون ويقولـون ما لا يفعلـون ولا يتبعهم إلّا الغـاوون الضـالون في حين أن النـبي معـروف بكل خلق كريم و يدعو إلى اللّه وحده وإلى مكـارم الأخلاق وفضائل الآداب والحـقّ والهـدى وينهى عن الشــرك والإثم والفــواحش. ويتبعه طائفة عــرفت بكـرم الأخلاق والصـفات فلا يمكن أن يكون النبي شاعرا ولا يمكن أن يكـون القـرآن شـعرا من نـوع الشـعر الـذي يقوله الشـعراء وتتنزل به الشياطين. وإنما أنزله اللّه عزّ وجلّ ، ودليـــلُ ذلك أنه متســـقٌ مع كتب اللّه الأولى الــتي أنزلها على أنبيائه الأولين والــتي يعــرف العـــرب الســـامعون خبرها من أهل الكتـــاب الذين هم بين ظهرانيهم.

هذا ، ومن الممكن أن يستدلَّ من الآيات على أن العرب كـانوا يـرون في القـرآن نمطـاً من أنمـاط الشـعر ، وأن الشـعر عنـدهم لم يكن محصورَ المفهوم في ما يكـون منظوما موزونا مقفّى ، فقد قـالوا إن النـبي ﷺ شـاعر في حين أن القـرآن ليس شـعرا حسب تعريف الشعر العربي المعتاد. ولو لم يسمعوا ما يصحُّ أن يطلق عليه في نظـرهم اسم الشـعر لما قـالوا إنه شـاعر ، ولعلّهم رأوا في السـور والفصـول القرآنية المتوازنة المقفّـاة مثل النجم والأعلى والليل والشـمس والقارعة إلخ ما بـرّر لهم إطلاق الشـعر على القـرآن والشاعر على النبي صلى اللّه عليه وسلم.

وذكر بعض المثلة الـتي تمثل فيها النـبي ﷺ ببعض الشـعر أو الرجز ، ثم قـال معقبـاً : " والـذي يتبـادر لنا أنه لا منافـاة بين أن يتمثّل النبي ﷺ ببعض الشعر بوزنه الصـحيح بل وأن يحفظ أكثر من بيت من شـعر شـعراء العـرب الذي يجري على لسانه بعض أبيـات على نمط الشـعر المتـواتر وبين مـدى الجملة القرآنيـة. وأن نفي ذلك عنه غـيـر متّسق مع طبيعة الأشـياء من حيث إن النـبي ﷺ كـان يعيش حياة العرب التي كان للشـعر فيها حيّـزٌ كبـيرٌ. وإن المـدى الأوجه والأصح للجملة على ضـوء ما تلهمه آيـات سـورة الشـعراء الـتي أوردناها وشـرحناها قبل قليل هو أن النـبي ﷺ قد

صُرف عن معاطاة الشـعر وأن ذلك لا يتناسب مع مهمة وجلال النبوّة."[132]
وقـــال التعليق على الايـــات (71-73) : " في الآيات تذكير استنكاري للسامعين بالأنعام التي سخّرها اللّه لهم لينتفعوا بها في مختلف وجوه النفع من ركـوب وأكل وشـرب ولبس ، وتنديد بهم لعـــدم شـــكرهم على نعمه والاعـــتراف بفضله وربوبيته.
وفي الآيــــات عــــود على بـــــدء في التنديد بالكــافرين والمكــذّبين وربط للســياق ، كأنما فصـــول مشـــهد الآخـــرة وما بعـــدها جـــاءت اســتطرادية. وهكــذا تتصل فصــول الســورة ببعضها وتبدو صورة رائعة من صــور التسـاوق في النظم القرآني.
ولقد كانت الأنعام من أهمّ ما ينتفع به العـرب. فجـــاء التـــذكير بنعمة اللّه عليهم بها قـــوي الاســـتحكام. وفي هـــذا مظهر من مظـــاهر التســـاوق بين الأســـاليب القرآنية وأذهـــان السامعين مما تكرر كثيرا في مناسبات وصــيغ متنوعة.
وقد يقال إن اللّه خلق الأنعــام كما خلق غيرها من الـــــــــدواب النافعة والمؤذية بمقتضى النـاموس العـام. وإن في القـول بـأن اللّه قد خلقها للنــاس إشــكالا ، والــذي يتبــادر لنا أن المقصد من ما جـــــاء في الآيـــــات وأمثالها المتكررة في القرآن هو تـذكير السـامعين بما

---

[132] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 39)

أقدرهم اللّه عليه من تسخير الأنعام والانتفــاع بها شتى المنافع الـتي فيها قـوام حيـاتهم وبما يوجبه ذلك عليهم من الإخلاص له وشكره وبما في الاتجـاه نحو غـيره أو إشـراك غـيره معه انحراف وشذوذ. وفي الآيـات نفسـها وما يليها من الآيات ما يؤيد هذا التوجيه."[133]

وقــال التعليق على الآيــتين (74-ــ 75)ـ :ـ " والآيتــــان اســـــتمرار في الســـــياق والتنديد بالكافرين على اتخاذهم آلهة غير اللّه رجاء أن ينصروهم في حين أنهم عاجزون عن ذلك.

وقد أوّل المفسرون الفقــرة الأخــيرة من الآية الثانية تأويلات متعددة. منها أن الكفّار يتخذون الأصـــــــــــنام آلهة لهم مع أنهم هم جند لهم يحمـــونهم ويـــدفعون عنهم الأذى والعـــدوان. ومنها أن الآلهة سوف يكونون مع الكفـار يـوم القيامة جندا واحـدا ولكنهم لن يسـتطيعوا لهم نصـــرا حيث يطرحـــون جميعا في النـــار. وكلا التـــأويلين وجيه وإن كنا نـــرجح الأول. وكلاهما منطو على الســـخرية بالكـــافرين والتســـفيه لعقـــولهم وبقصد الإفحـــام والتـــدعيم كما هو المتبادر."

وقال في التعليق على آية (فَلا يَحْزُنْـكَ قَـوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِـــرُّونَ وَما يُعْلِنُـــونَ (76) : في الآية تسلية للنبي وقد جـاءت معترضة في السياق. وقد أوردناها لحدتها لأن من المحتمل أن تكون التسلية في صدد ما يثير نفس النـبي

---

[133] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 43)

ﷺ من اتخـــاذ الكفـــار آلهة لهم غـــير اللّه والاستنصـــار بهم ، أو في صـــدد نعتهم إيـــاه بالشـاعرية وتكـذيبهم القـرآن أو في صـدد ما حكته الآيــات التالية من تحــدي بعض زعمــاء الكفـار ومكـابرتهم وتكـذيبهم البعث الأخـروي بعد أن يصبحوا رميما.

وقد تكـــــرر مثل ذلك حيث اقتضــــته حكمة التنزيل بسبيل تثبيت النبي ﷺ وتقويته إزاء ما كان يلقـاه من قومه من مواقف ويسـمعه من نعوت كانت تثيره وتحزنه."[134]

ما ترشد إليه الآيات

دلت الآيات على ما يلي :

1 - ليس القرآن شعرا ، ولا محمّد ﷺ شاعرا ، فلا يقــول الشــعر ولا يزنه ، وكــان إذا حــاول إنشاد بيت قــديم متمثلا به ، كسر وزنه ، وإنما كان همّه فقط الإفادة من المعاني.

2 - إن إصابة النـبي ﷺ الـوزن أحيانا لا يـوجب أنه يعلم الشعر ، فقد يأتي مثل ذلك في آيـات القــرآن ، وليس ذلك شــعرا ولا في معنــاه ، كقوله تعالى : لَنْ تَنـالُوا الْبِـرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِمَّا تُحِبُّونَ [آل عمـران 3/ـ 92] وقوله : نَصْـرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَــرِيبٌ [الصف 61/ـــ 13] وقوله : وَجِفـانٍ كَـالْجَوابِ وَقُـدُورٍ راسِـياتٍ [سـبأ 34/ 13] وقوله : فَمَنْ شــاءَ فَلْيُــؤْمِنْ وَمَنْ شــاءَ فَلْيَكْفُــرْ [الكهف 18/ـ 29] إلى غــير ذلك من الآيات.

---

[134] - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 44)

3 - وَفِي الْعُتْبِيَّةِ أَنَّ مَالِكًا سُــئِلَ عَنْ إنْشَـــادِ الشِّعْرِ فَقَالَ : مَا يَخِفُّ مِنْهُ وَلَا يَكْثُرُ وَمِنْ عَيْبِــهِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَـلَّ يَقُـولُ : وَمَا عَلَّمْنَـاهُ الشِّـعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ "[135].

4 - ما ينبغي ولا يصح للنـــبي أن يقــــول الشعر ، وذلك من أعلام النبـوة ، ولا اعـتراض لملحد على هـــذا بما يتفق الـــوزن فيه من القرآن وكلام الرسـول ، لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ، ولم يقصد به إلى الشـعر ، ليس بشـعر ، ولو كـان شـعرا لكـان كل من نطق بمـوزون من العامة الـذين لا يعرفـون الـوزن شاعرا.

5 - إن الـذي يتلـوه النـبي على النـاس هو ذكر من الأذكار ، وعظة من المواعظ ، وقرآن بيّن واضح مشـــــتمل على الآداب والأخلاق ، والحكم والأحكام ، والتشريع المحقق لسـعادة البشر.

6 - إن الغرض من إنزال القرآن إنذار من كان حيّ القلب ، مستنير البصيرة ، وإيجـاب الحجة بالقرآن على الكفرة.

7 - من أدلة وجـــــود اللّه ووحدانيته : خلق الإنسان والحيوان والنبات ، فإنه سـبحانه خلق كل ذلك ، وأبدعه ، وعمله من غير واسطة ولا وكالة ولا شركة.

ومن فضله ونعمته على النـاس تـذليل الأنعـام لهم ، وتسخيرها لمنافعهم في الركوب ، وأكل

---

[135] - المنتقى - شرح الموطأ - (4 / 268)

اللحـــوم وشـــرب الحليب والألبـــان ، وصـــنع الأسمان ، حتى إن الصبي يقود الجمل العظيم ويضـــربه ويوجهه كيف شـــاء ، وهو له طـــائع. وهذا كله وغـيره يـوجب شـكر الخـالق المنعم وهو اللّه على نعمه ، بعبادته وطاعته وإخلاص ذلك له.

8 - بالرغم من وجود الآيات الدالة على قـــدرة اللّه ، اتخذ الكفـــار المشـــركون من دون اللّه آلهة ، لا قـــــــــدرة لها على فعل ، طمعا في نصـرتها وأملا في مسـاعدتها لهم إن نـزل بهم عذاب.

والحقيقة أن تلك الآلهة المزعومة لا تســـتطيع نصر عابـــديها ، ولا جلب الخـــير لهم ، ولا دفع الشر والضر عنهم ، ومع ذلك فإن الكفـــار جند طائعون لهذه الآلهة ، يمنعـون عنهم ويـدفعون عنهم ، ويغضـــبون لهم في الـــدنيا ، فهم لها بمنزلة الجند والحـــرس ، وهي لا تســـتطيع أن تنصـرهم. وقيل : إن الآلهة جند للعابـدين يـوم القيامة ، محضرون معهم في النـار ، فلا يـدفع بعضهم عن بعض.

عَنْ أَبِي هُرَيْـرَةَ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْـهُ : أَنَّ رَسُـولَ اللَّهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِـعَ إِلَيْـهِ الـذِّرَاعُ ، وَكَـانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً ، ثُمَّ قَـالَ : " أَنَا سَـيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَـةِ ، وَهَـلْ تَـدْرُونَ مِمَّ ذَلِـكَ ؟ يَجْمَـعُ اللَّهُ النَّاسَ الأَوَّلِينَ وَالآخِـرِينَ فِي صَـعِيدٍ وَاحِـدٍ ، يُسْـمِعُهُمُ الـدَّاعِي وَيَنْفُـذُهُمُ البَصَـرُ ، وَتَـــدْنُو الشَّـــمْسُ ، فَيَبْلُـــغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ

وَالكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُـونَ وَلاَ يَحْتَمِلُـونَ ، فَيَقُـولُ النَّاسُ : أَلاَ تَـرَوْنَ مَا قَـدْ بَلَغَكُمْ ، أَلاَ تَنْظُـرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : عَلَيْكُمْ بِآدَمَ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّـلاَمُ فَيَقُولُونَ لَهُ : أَنْتَ أَبُو البَشَرِ ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَـدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ المَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَـرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، أَلاَ تَـرَى إِلَى مَا قَـدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُـولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَـبْ قَبْلَـهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَـدْ نَهَـانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُـوا إِلَى غَيْـرِي ، اذْهَبُـوا إِلَى نُـوحٍ ، فَيَـأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُـوحُ ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُـلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيـهِ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ قَـدْ غَضِـبَ اليَـوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَـبَ بَعْـدَهُ مِثْلَـهُ ، وَإِنَّهُ قَـدْ كَـانَتْ لِي دَعْـوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَـوْمِي ، نَفْسِـي نَفْسِـي نَفْسِـي، اذْهَبُـوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُـوا إِلَى إِبْـرَاهِيمَ ، فَيَـأْتُونَ إِبْـرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُـهُ مِنْ أَهْـلِ الأَرْضِ ، اشْـفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَـرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَيَقُولُ لَهُمْ : إِنَّ رَبِّي قَـدْ غَضِـبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَـبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذِبَاتٍ - فَذَكَرَهُنَّ أَبُو حَيَّانَ فِي الحَدِيثِ - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَـى

فَيَـأْتُونَ مُوسَـى فَيَقُولُـونَ : يَا مُوسَـى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْـفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلاَ تَـرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَـدْ غَضِـبَ اليَـوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَـبَ بَعْـدَهُ مِثْلَـهُ ، وَإِنِّي قَـدْ قَتَلْتُ نَفْسًـا لَمْ أُومَـرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِـي نَفْسِـي نَفْسِـي ، اذْهَبُـوا إِلَى غَيْـرِي ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَكَلِمَتُـهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَـرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْـهُ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي المَهْـدِ صَبِيًّا ، اشْـفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَـرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ عِيسَى : إِنَّ رَبِّي قَـدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَـهُ قَـطُّ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا ، نَفْسِي نَفْسِـي نَفْسِي اذْهَبُـوا إِلَى غَيْـرِي اذْهَبُـوا إِلَى مُحَمَّدٍ ، فَيَـأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُـونَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ ، وَقَـدْ غَفَـرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، اشْـفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَـأَنْطَلِقُ فَـآتِي تَحْتَ العَرْشِ ، فَأَقَعُ سَـاجِدًا لِـرَبِّي عَـزَّ وَجَـلَّ ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِـدِهِ وَحُسْـنِ الثَّنَـاءِ عَلَيْـهِ شَـيْئًا ، لَمْ يَفْتَحْـهُ عَلَى أَحَـدٍ قَبْلِي ، ثُمَّ يُقَـالُ : يَا مُحَمَّدُ ارْفَـعْ رَأْسَـكَ سَـلْ تُعْطَـهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِـي ، فَـأَقُولُ : أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ ، أُمَّتِي يَا رَبِّ ، فَيُقَـالُ : يَا مُحَمَّدُ أَدْخِـلْ مِنْ أُمَّتِـكَ مَنْ لاَ حِسَـابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَـابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْـوَابِ الجَنَّةِ ، وَهُمْ

شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ ، ثُمَّ قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ ، كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ - أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى "[136]

9 - سلّى اللّه عز وجل نبيه ، فقال له : لا يحزنك قولهم : شاعر ، ساحر ، روي أن القائل عقبة بن أبي معيط ، فنفى اللّه ذلك عن رسوله.

10 - إن اللّه تعالى عليم مطلع على ما يسرّ الكافرون ويظهرون من القول والعمل ، فيجازيهم بذلك يوم القيامة.

---

[136] - صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ (4456)

إثبات البعث

قال تعالى :

ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ گ

ڳ ڳ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ۀ ۀ □ □ □ □ □ □ ھ ھ ھ ھ □

□ □ □ ۓ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ □ ۋ ۋ □ □ □ □ □ ې

ې ې ى ى □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □

ی ی □

شرح الكلمات :

رقم الآية ... الكلمة ... معناها

77 ... خَصِيمٌ ... مبالغ في الخصومة

78 ... رَمِيمٌ ... بالية

83 ... مَلَكُوتُ ... الملك التام

سبب النزول :

عَنْ أَبِي مَالِكٍ ، قَالَ : إِنَّ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ جَاءَ بِعَظْمٍ حَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ □ ، فَفَتَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَيَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَّ ؟ قَالَ : " نَعَمْ ، " يَبْعَثُ اللَّهُ هَذَا ، ثُمَّ يُمِيتُكَ ، ثُمَّ يُحْيِيكَ ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ " قَالَ : فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ يَس : أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ "[137]

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة والسّدّي نحوه ، وسمّوا الإنسان أبي بن خلف. وهذا هو الأصح

137 - الْمَطَالِبُ الْعَالِيَةُ لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ (3786) صحيح مرسل

كما قـــال أبو حيـــان ، لما رواه ابن وهب عن مالك.
وبناء عليه ، قال المفسّرون : إن أبي بن خلف الجمحي جاء إلى رسول اللّه ص بعظم حائل ، ففتته بين يديه ، وقـــال : يا محمد ، يبعث اللّه هذا بعد ما أرمّ؟ فقال : نعم ، يبعث اللّه هـذا ، ويميتك ، ثم يحييك ، ثم يـــدخلك نـــار جهنم ، فنزلت هذه الآيات.[138]
وعلى أي حال ، يقول علماء أصول الفقه : إن العـبرة بعمـوم اللفظ ، لا بخصـوص السـبب ، كما في قوله تعالى : قَدْ سَـمِعَ اللَّهُ قَـوْلَ الَّتِي تُجادِلُـكَ فِي زَوْجِها [المجادلة 58/ـ 1] نــزلت في امـــرأة واحـــدة ، وأراد الكل في الحكم ، فكذلك كل إنسـان ينكر اللّه أو الحشر ، فهـذه الآية ردّ عليه ، فتكون الآية عامة.
المناسبة :
بعد بيان الأدلة الدّالة على قدرة اللّه عزّ وجـلّ ، ووجوب طاعته وعبادته ، وبطلان الشـرك به ، ذكر تعالى شبهة منكري البعث ، وأجاب عنها بأجوبة ثلاثة : هي أن الإعـــادة مثل البـــدء بل أهون ، وقدرة اللّه على إيجاد النار من الشجر الأخضر ، وخلق ما هو أعظم من الإنســـــان ، وهو خلق الســـموات والأرض ، وفي النهاية : فورية تكوين الأشياء بقول : كُنْ فَيَكُونُ.

---
[138] - الدر المنثور - (8 / 319) وتفسير ابن أبي حاتم - (12 / 75) وتفسير ابن كثير - (6 / 593) وتفسير الطبري - (20 / 553و554) وتفسير اللباب في علوم الكتاب - (60 / 236)

التفسير والبيان :

قوله تعالى :«أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسـانُ أَنَّا خَلَقْنـاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ».

"هو مراجعة لهــؤلاء المشــركين ، وتنبيه لهم من هـذه الغفلة المسـتولية عليهم ..وفى هـذا الاستفهام التقريرى الموجه إلى الإنسـان على إطلاقه ــ دعـوة إلى كل إنسـان أن ينظر فى نفسه ، وأن يمد بصره ، إلى نقطة الابتداء فى حياته ، ثم ليسـير مع نقطة الابتـداء هـذه فى الطريق الذي سلكه ، حتى صار هذا الإنسان ، الذي يجادل ، ويخاصم ، ويقف من اللّه موقف المحادّ المحارب!.

ألم يكن هــذا الإنســان نطفة ؟ .. إنه لو نظر الإنسان فيها لأنكر نفسه ، وما وقع فى تصوره أنه كـان جرثومة من آلاف الجـراثيم السـابحة فى هذه النطفة ..

وأين تلك النطفة أو هــــذه الجرثومة العالقة بالنطفة ــ أين هي من هـذا الإنسـان ، الـذي أبدعته يد القدرة هذا الإبداع العظيم الحكيم ؟

ألا ما أضـأل شـأن الإنسـان ، وما أعظمـه! ما أضأله نطفة ، وما أعظمه رجلا ما أضأله ضـالا ضائعا ، كضلال هذه النطفة وضياعها ..

وما أعظمه إنسـانا رشـيدا ، عـاقلا مؤمنا ، فى ثوب الإنسانية الرشيدة العاقلة المؤمنة!."

ألم يعلم كل إنسـان أننا بـدأنا خلقه من نطفة (مني) من ماء مهين ، هي أضعف الأشياء ، ثم جعلناه بشرا سويّا ، ثم تراه يفاجئنا بأنه ناطق

مجـادل بيّن جـريء في جدله ، فقوله خَصِـيمٌ ناطق ، ومُبِينٌ إشارة إلى قوة عقله.
والمراد : أو لم يسـتدلّ من أنكر البعث بالبـدء على الإعادة ، فإن اللّه ابتدأ خلق الإنسـان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شيء ضعيف حقير ، كما قـال تعـالى : أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مـاءٍ مَهِينٍ ، فَجَعَلْنــاهُ فِي قَــرارٍ مَكِينٍ ، إِلى قَــدَرٍ مَعْلُومٍ [المرسلات 77/ـ 20 -ـ 22]ـ ، وقـالَ سبحانه : إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسـانَ مِنْ نُطْفَـةٍ أَمْشـاجٍ [الإنســـان 76/ـــ 2] أي من نطفة من أخلاط متفرقة.
فشأن هـذا المخلـوق أن يشـكر النعمة ، لا أن يطغى ويتجبر ، وينكر البعث والإعادة.
قوله تعالى:« وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظـــــامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ». "هو عطف حـدث على حـدث ، عطف خلق اللّه سـبحانه الإنسان من نطفة ، ثم قيـام إنسـان من هـذه النطفة يجـادل اللّه ، ويختصـمه ، ويضـرب له الأمثال ، احتجاجا وحجة!.
ففاعل الفعل « ضــــرب » يعــــود إلى هــــذا الإنســـان الخصــيم المــبين ، الــذي تولد من النطفة!.
إنه لم يقف عند هـذه الـدعوة الـتي دعـاه اللّه ســبحانه وتعــالى بها إلى أن ينظر فى خلقه ، وأن يعرف من أين جاء ، وكيف كان ، ثم كيف صــار ـــ لم يقف عند هــذه الــدعوة ، بل أقبل

يحاجّ اللّه ويجادله ، ويضرب الأمثال له .. « إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (34 : إبراهيم) ..
والمثل الذي ضربه هذا الكافر ، ليدلل به على معتقده الفاسد ، فى إنكار البعث ـ هــذا المثل ، هو أنه نظر فى هــذه العظــام البالية الــتي يراها فى قبــور المــوتى ، ثم اتخذ منها معرضا يعرضه على النــاس ، ويســألهم هــذا الســؤال الإنكــارى الســاخر : « مَنْ يُحْيِ الْعِظــامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » ؟ أهذه العظام الـتي أبلاها البلى تعـود ثانية كما كانت ، ويتشكل منها أصـحابها الـذين كانوا يحيون بها فى الحياة ؟
أهذا معقول ؟ إن محمـدا يقـول هـذا .. فما ذا تقولون أنتم أيها الناس فيمن يقول هذا القـول ؟ ألا ترجمونه ؟ ألا تسخرون من جنونه ؟ .
وقوله تعالى : « وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ » جملة حالية ، أي أن هذا الكافر ضرب هذا المثل ناسيا خلقه ، ولو ذكر خلقه وكيف كـــان بـــدؤه ، ثم كيف صار ـ لـرأى بعينيه ــ قبل أن يـرى بعقله ــ إن كان له عقل ـ أن هذه النطفة التي أقامت منه هــذا الإنســان الخصــيم المــبين ، هى أقل من العظام شأنا ، وأبعد منها عن مظنّة الحياة.
إذ كانت النطفة لا تعدو ـ فى مرأى العين ـ أن تكـون نقطة مـاء قـذرة أشـبه بالمخـاط .. أما العظام فهى تمثل حيـاة كاملة ، كـانت تسـكن فى تلك العظام ـ إنها عاشت فعلا حيــاة كاملة ، وكــان منها إنســان كامل ، كهــذا الإنســان ، الذي يجادل ، ويضرب الأمثال للّه ..

فهذه العظام ، تمثل حياة لها تاريخ معـروف .. أما النطفة ، فلا تــرى عين هــذا الجهــول فيها أثرا للحياة."

فأجابه اللّه تعــالى بقوله : « قُــلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَـأَها أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَهُـوَ بِكُـلِّ خَلْـقٍ عَلِيمٌ ».هو الرد المفحم على هـذا السـؤال الإنكـارى .. « مَنْ يُحْيِ الْعِظَـــامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » ؟ إن الـــذي يحييها ، هو الذي أنشـأها أول مـرة .. لقد أنشأ هذه العظـام من نطفة ، وألبسـها الحيـاة ، ثم أماتها .. ثم هو الذي يحييها .. إنه إعادة لشىء كـان بعد أن لم يكن ، وإعـادة بنـاء الشـيء ، أهـون ـ فى حسـابنا ـ من ابتداعه ، واختراعه أصلا ..

وفى قوله تعالى : « وَهُوَ بِكُلِّ خَلْـقٍ عَلِيمٌ » ــ إشارة إلى علم اللّه المحيط بكل شىء ، ومن كـان هـذا علمه فلن يعجـزه شـىء .. فبـالعلم استطاع الإنسان أن يحـرك الجمـاد ، وينطقه ، وبـالعلم اسـتطاع أن ينقل الأصـوات ، وصـور المرئيـات من طـرف الأرض إلى طرفها الآخر فى لحظة عين ، أو خفقة قلب .. وبـــــالعلم يسـتطيع الإنسـان أن يفعل الكثـير ، مما تعـدّ هذه الأشياء من نوافل علمه ..

فكيف بعلم اللّه الـــــذي وسع كل شى ء ؟ أيعجزه شى ء ؟ إن من يعجز عن أي شـىء لا يستحق أن يضـاف إليه العلم كله .. إذ لو كـان معه العلم كله لما أعجـــــزه شى ء ؟ واللّه

سبحانه وتعالى : « بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ » (29 : البقرة)"
وقد قال العلمـاء : إن الـذرّة لا تفـنى ، وتقـرر نظرية (لافوازيه) المعروفة : أنه لا يوجد شيء من العدم ، والموجود لا ينعدم.
ودليل ثان هو : « الَّذِي جَعَـلَ لَكُمْ مِنَ الشَّـجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْـهُ تُوقِـدُونَ ». أي وهو الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء ، حتى صـار خضـرا نضـرا ذا ثمر يـانع ، ثم أعـاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار ، ومن قدر على ذلك ، فهو قادر علي ما يريد ، لا يمنعه شيء ، فهذا التحـوّل والتقلّب من عنصر الرطوبة إلى عنصر الحـرارة ، يـدل على إمكـان إعـادة الرطوبة إلى ما كان يابسا باليا. والمشـاهد أن شجر السّنط يوقد به النار وهو أخضر.
وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والعفـار ينبت في أرض الحجـاز ، فيـأتي من أراد قـدح نـار ، وليس معه زناد ، فيأخذ عودين أخضرين منهما ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما ، كالزنـاد تمامـا. ومثل ذلك احتكـاك السّـحب المولّد لشرارة البرق.
"هـذه بعض آيـات من علم اللّه .. إنه سـبحانه خلق الشـجر ، وقد امتلأ كيانه بالمـاء يجـرى فى أصـوله ، وفروعه وأوراقه .. ثم جعل من طبيعة هـذا الشـجر أن يجـفّ ، وأن يقبل الاحتراق ، وإذا هو فى النار ، قطع من الجمر!

فــأين هــذا الشــجر الأخضر ، من هــذا الجمر الملتهب ؟
وكما يخرج اللّه سبحانه النار من الماء ، يخرج ســبحانه الميت من الحىّ ، ويخــرج الحىّ من الميت ..
هـذه صـورة من الإبـداع فى الخلق ، لا تحتـاج فى وضوحها إلى علم ، وتجربة ، وإنما بحسب الإنسـان ــ أي إنسـان .. أن يقف قليلا بنظـره عنــدها ، فــيرى آيــات بينــات ، من علم اللّه وقدرته .."
ودليل ثالث أعجب مما سـبق : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقـادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ ؟ بَلى . وَهُــوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ »..وصــورة أخــرى للدلالة على قــدرة اللّه ســبحانه .. هى هذه السـموات والأرض .. من خلقها ؟ إنه اللّه سبحانه ، بإقرار الكافرين والمشركين أنفسهم ..إنهم لا يعرفون لهما خالقا غيره .. كما يقـول ســبحانه وتعــالى : « وَلَئِنْ سَــأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَــقَ السَّــــماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُـــولُنَّ اللَّهُ » (25 : لقمان).
وهنا ســؤال : أليس الــذي خلق الســموات والأرض قــادرا على أن يخلق ســموات كهــذه الســــموات وأرضا كهـــــذه الأرض ؟ وبديهية المنطق تقــول : إن ذلك ممكن .. فمن صــنع شيئا قادرا على أن يصنع أشياء مثله ، لا شــيئا واحدا.

ولهذا جاء الجواب عن هذا السـؤال : « بلى » أي بلى قــــادر .. « وَهُــــوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ».. الخلّاق ، الـــذي يزيد فى الخلق ما يشـــاء « العليم » الذي لا يعجزه شيء!"

أي إن من خلق السّموات السّبع بما فيها من الكواكب السّيارة والثّوابت ، والأرضين السّبع بما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وهي أعظم من خلق الإنســـان ، إن من خلق ذلك قادر على خلق مثل البشر وإعادة الأجسام ، وهي أصغر وأضعف من السّموات والأرض ، بلى هو قــادر على ذلك ، وهو الكثــير الخلق ، الواسع العلم ، فقوله الْخَلَّاقُ إشارة إلى كمال القـــدرة ، وقوله الْعَلِيمُ إشـــارة إلى شـــمول العلم.

والخلاصة : أن خلق الأشــياء العظيمة برهــان قــاطع على خلق ما دونها ، كما قــال تعــالى : لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ [غافر 40/ـ 57] ، وقالَ سبحانه : أَوَ لَمْ يَـرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَــقَ السَّــماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقــادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَــوْتى ؟ بَلى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَـدِيرٌ [الأحقـاف 46/ 33].

وتأكيدا للبيان ونتيجة لما سبق ، قـال تعـالى : « إِنَّما أَمْــرُهُ إِذا أَرادَ شَــيْئاً أَنْ يَقُــولَ لَــهُ كُنْ فَيَكُـونُ ». أي إنما شـأنه سـبحانه فى الخلق ، أن يريد ، فيقع ما يريد .. بلا معاناة ولا بحث .. إنه سبحانه يقول للشىء الـذي يريد إيجـاده «

كن » فيكون كما أراد ..فبالكلمة خلق اللّه كل شـىء .. إن الكلمة : « كن » هي مظهر إرادة اللّه. والموجـودات هى مظـاهر كلمـات اللّه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعـالى « قُـلْ لَـوْ كـانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِـدَ الْبَحْـرُ قَبْـلَ أَنْ تَنْفَـدَ كَلِمـاتُ رَبِّي وَلَـوْ جِئْنا بِمِثْلِـهِ مَـدَداً » (109 : الكهف).

ومقتضى ثبــوت القـــدرة التامة للّه تعـــالى : تنزيهه عما وصــفوه به ، فقــال : « فَسُــبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُـوتُ كُـلِّ شَـيْءٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ ».فتســبيحا للّه ، وتنزيها له ، وإجلالا لجلاله ــ سبحانه ـ « بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَــيْءٍ » أي ملك كل شـــىء ، ملكا متمكنا ، مســتوليا على كل ذرة فيه ..والملكــــــوت : مبالغة فى الملك ، بالاســتيلاء عليه اســتيلاء مطلقا ، يمسك بكل ذرة ، وبكل ما دون الذرة منه.

وفى قوله تعـالى : « وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ » تقرير للبعث ، وتأكيد له .. وأنه ما دام بيد اللّه ملكــوت كل شــىء والنــاس من أشــياء هــذا الوجود الذي هو ملك للّه ، فإنهم لا بد راجعون إلى اللّه.

وإلى أين يـــذهب النـــاس بعد المـــوت إذا لم يرجعــــوا إلى اللّه ؟ إنهم إذا لم يرجعــــوا إليه فليســوا إذن فى ملكه ..وليس هنــاك شــىء غير مملوك للّه ، وهو « الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ » « أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْـرُ تَبـارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ». (54 : الأعراف) "

فهو الذي له ملكية الأشـياء كلها ، وله القـدرة الكاملة على التّصـرف فيها كما يريد ، وبيـده مفـاتح كـلّ شـيء ، وإليه لا إلى غـيره مرجع العبـاد بعد البعث في الـدار الآخـرة ، فيجـازي كل إنسـان بما عمل ، فليعبـده النـاس جميعا وليوحّدوه ويطيعوه ، تحقيقا لمصلحتهم.

ومضات

ويبدأ هذا المقطع بمواجهة الإنسـان بواقعه هو ذاته في خاصة نفسـه. وهـذا الواقع يصـور نشـأته وصـيرورته مما يـراه واقعا في حياته ، ويشهده بعينه وحسه مكـررا معـادا. ثم لا ينتبه إلى دلالته ، ولا يتخذ منه مصـداقا لوعد اللّه ببعثه ونشوره بعد موته ودثوره ..

«أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِـيمٌ مُبِينٌ» .. فما النطفة الـتي لا يشك الإنسان في أنها أصله القـريب؟ إنها نقطة من مـاء مهين ، لا قـوام ولا قيمـة! نقطة من مـاء تحـوي ألـوف الخلايا .. خلية واحـدة من هـذه الألـوف هي الـتي تصـير جنينـا. ثم تصـير هـذا الإنسـان الـذي يجـادل ربه ويخاصـمه ويطلب منه البرهـان والـدليل! والقـدرة الخالقة هي الـتي تجعل من هـذه النطفة ذلك الخصـيم المـبين. وما أبعد النقلة بين المنشأ والمصـير! أفهذه القدرة يستعظم الإنسان عليها أن تعيده وتنشره بعد البلى والدثور؟

«وَضَـرَبَ لَنا مَثَلًا - وَنَسِـيَ خَلْقَـهُ - قـالَ :مَنْ يُحْيِ الْعِظــامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُــلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» ..

يا للبســاطة! ويا لمنطق الفطــرة! ومنطق الواقع القــريب المنظــور! وهل تزيد النطفة حيوية أو قــدرة أو قيمة على العظم الــرميم المفتــوت؟ أو ليس من تلك النطفة كــان الإنسان؟

أو ليست هــذه هي النشــأة الأولى؟ أو ليس الذي حول تلك النطفة إنسانا ، وجعله خصـيما مبينا بقــادر على أن يحــول العظم الــرميم مخلوقا حيا جديدا؟

إن الأمر أيسر وأظهر من أن يـــدور حوله سؤال. فما بال الجدل الطويل؟!

«قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ. وَهُوَ بِكُـلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ» ..

ثم يزيــدهم إيضــاحا لطبيعة القــدرة الخالقة ، وصــنعها فيما بين أيــديهم وتحت أعينهم مما يملكون : «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نـاراً فَـإِذا أَنْتُمْ مِنْـهُ تُوقِـدُونَ» .. والمشـاهدة الأولية الساذجة تقنع بصـدق هـذه العجيبـة! العجيبة الـتي يمـرون عليها غـافلين. عجيبة أن هذا الشجر الأخضر الريان بالماء ، يحتك بعضه ببعض فيولد نارا ثم يصـير هو وقـود النـار. بعد اللدونة والاخضرار ..

والمعرفة العلمية العميقة لطبيعة الحــرارة الــتي يختزنها الشــجر الأخضر من الطاقة

الشمسية التي يمتصها ، ويحتفظ بها وهو ريان بالمــاء ناضر بالخضــرة والــتي تولد النــار عند الاحتكاك ، كما تولد النار عند الاحتراق .. هــذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزا في الحس ووضــوحا. والخــالق هو الــذي أودع الشــجر خصائصه هـذه. والـذي أعطى كل شـيء خلقه ثم هدى. غـير أننا لا نـرى الأشـياء بهـذه العين المفتوحة ولا نتدبرها بذلك الحس الواعي.
فلا تكشف لنا عن أسرارها المعجبـة. ولا تـدلنا على مبدع الوجود. ولو فتحنا لها قلوبنا لبـاحت لنا بأســرارها ، ولعشــنا معها في عبــادة دائمة وتسبيح! ثم يستطرد في عـرض دلائل القـدرة وتبسيط قضية الخلق والإعــادة للبشر أجمعين : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـــقَ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضَ بِقـادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُـقَ مِثْلَهُمْ؟ بَلى وَهُـوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ» ..والســــــماوات والأرض خلق عجيب هائل دقيق .. هــذه الأرض الــتي نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجنـاس والأنـواع ، ثم لا نبلغ نحن شيئا من حجمها ، ولا شــيئا من حقيقتها ، ولا نعلم عنها حـــتى اليـــوم إلا القليل ..هـــذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس الـتي تعيش أرضنا الصغيرة على ضـوئها وحرارتها .. وهــذه الشــمس واحــدة من مائة مليــون في المجرة الواحـدة الـتي تتبعها شمسـنا ، والـتي تؤلف دنيانا القريبـــة! وفي الكـــون مجـــرات أخـرى كثـيرة. أو دنييـات كـدنيانا القريبـة. عد الفلكيون حـتى اليـوم منها مائة مليـون مجـرة

بمناظيرهم المحدودة. وهم في انتظــار المزيد كلما أمكن تكبــير المنــاظير والمراصــد. وبين مجرتنا أو دنيانا والمجـــــــــرة التالية لها نحو خمسين وسبع مائة ألف سـنة ضـوئية (السـنة الضوئية تقـدر بسـتة وعشـرين مليـون مليـون من الأميال!) .. وهناك كتل ضخمة من السدم التي يظن أنه من نثارها كانت تلك الشـموس. وهذا هو الجزء الذي يـدخل في دائـرة معارفنا الصـغيرة المحـدودة! تلك الشـموس الـتي لا يحصـــيها العـــد. لكل منها فلك تجـــري فيـــه. ولمعظمها توابع ذات مـــدارات حولها كمـــدار الأرض حــول الشـمس .. وكلها تجـري وتـدور في دقة وفي دأب. لا تتوقف لحظة ولا تضـــــطرب. وإلا تحطم الكـــــون المنظـــــور واصــطدمت هــذه الكتل الهائلة الســابحة في الفضاء الوسيع ..

هذا الفضاء الذي تسبح فيه تلك الملايين الــتي لا يحصيها العد ، كأنها ذرات صغيرة. لا نحــاول تصـــويره ولا تصـــوره .. فـــذلك شـــيء يـــدير الـــرؤوس! «أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَـــقَ السَّـــماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ؟».

وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب؟
«بَلى ! وَهُـــــــوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ» ..ولكن اللّه - ســبحانه - يخلق هــذا وذلك ويخلق غيرهما بلا كلفة ولا جهــد. ولا يختلف بالقيــاس إليه خلق الكبــير وخلق الصــغير : «إِنَّما أَمْــرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ. فَيَكُونُ».

يكـون هـذا الشـيء سـماء أو أرضـا. ويكـون بعوضة أو نملة. هـذا وذلك سـواء أمـام الكلمة .. كن .. فيكون! ليس هناك صـعب ولا سـهل. وليس هنالك قـــريب ولا بعيد .. فتوجه الإرادة لخلق الشــيء كـاف وحــده لوجــوده كائنا ما يكون. إنما يقرب اللّه للبشر الأمـور ليـدركوها بمقياسهم البشري المحدود.
وعند هــذا المقطع يجيء الإيقــاع الأخــير في السـورة. الإيقـاع المصـور لحقيقة العلاقة بين الوجود وخالق الوجود : «فَسُـبْحانَ الَّذِي بِيَـدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَـيْ ءٍ. وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ» ..ولفظة ملكـوت بصـياغتها هـذه تضـخم وتعظم حقيقة هـــذه العلاقـــة. علاقة الملكية المطلقة لكل شيء في الوجود.
والسـيطرة القابضة على كل شــيء من هــذا المملـوك.ثم إن إليه وحــده المرجع والمصـير ..إنه الإيقـاع الختـامي المناسب لهـذه الجولة الهائلة ، وللســـــورة كلها ، ولموضـــــوعاتها المتعلقة بهـذه الحقيقة الكبـيرة ، الـتي ينـدرج فيها كل تفصيل ..[139]
وقال دروزة : " تساءلت الآية الأولى تسـاءل المســتنكر المنــدد عما إذا كــان الإنســان لم يعرف أن اللّه إنما خلقه من نطفة حتى ينقلب خصــما عنيــدا لــه. وحكت الثانية موقف هــذا الإنســـان الـــذي نسي كيفية نشـــوئه وخلقه المـــذكورة فتســـاءل عمن يمكن أن يحـــيي

[139] - في ظلال القرآن ، ج 5 ، ص : 2977

العظام بعد أن تصبح رميما فتاتا متحـدّيا بـذلك ربّه العظيم الـــــــــذي خلقه من تلك النطفة ومتجاهلا قدرتـه. واحتـوت الآيـات التالية أمـرا ربانيا للنـــبي بـــالردّ على هـــذا الإنســـان السـائل المتحـدي المتجاهل ردّا قويا فيه تنديد لاذع بعبارة واضـحة موجهة إلى العقل والقلب وفيه تـــدليل هنا على قـــدرة اللّه على إعـــادة الخلق وعظمته بما لا يمكن المكـابرة فيه مما يقع تحت المشاهدة...

غير أننا نلاحظ أن السياق كلّه أي هـذه الآيـات وما قبلها منسجم يـدلّ على الوحـدة التقريرية والإلزامية والتنديدية. والذي يتبادر لنا من ذلك أن حكاية هـــذا الموقف قد جـــاءت كإشـــارة عرضــية إلى بعض أسـئلة الكفــار ومــواقفهم الساخرة بسبيل الردّ والتنديد مما تكـرر كثـيرا في النظم القرآني.

وأســلوب الآيــات قـــويّ من شـــأنه أن يفحم المجـادل المكـابر وأن يقطع عليه نفس الكلام والمكابرة. وفيه من الإفحام ما يظـلّ مسـتمدُّ إلهامٍ وقوةٍ في صـدد التـدليل على قـدرة اللّه عزّ وجلّ وعظمته كما هو المتبـادر. ولقد كـان السائلون يعترفون باللّه عزّ وجلّ وكونه خـالق الأكوان ومـدبّرها ومالك كل شـيء ومرجع كل شـــيء على ما نبهنا عليه وأوردنا شــــواهده القرآنية في مناســبات ســابقة ومن هنا يــأتي الإفحــام لهم قويا ملزمــا. غـير أن هـذا يظـلّ كذلك دائما لأن دلائل وجـــود اللّه وقدرته مائلة

في كل شـــيء لا يكـــابر فيها إلّا مكـــابر أو جاهل."[140]

ما ترشد إليه الآيات

يستنبط من الآيات ما يأتي :

1 - عجبا لأمر الإنسان ، سواء العاص بن وائل السّـــهمي ، أو أبيّ بن خلف الجمحي (و هو الأصـــح) أو أمية بن خلف أو غـــيرهم ، كيف خلقه اللّه من يسير الماء ، وأضـعف الأشـياء ، ثم يصبح مخاصما ربّه ، مجادلا في الخصومة ، مبيّنا للحجة ، أي أنه صار بعد أن لم يكن شـيئا مذكورا خصيما مبينا.

قال أبو حيان : قبّح تعالى إنكار الكفرة البعث حيث قرر أن عنصره الـذي خلق منه هو نطفة ماء مهين خارج من مخرج النجاسة ، أفضى به مهانة أصله أن يخاصم الباري تعالى ، ويقول : من يحـيي الميت بعد ما رمّ مع علمه أنه منشأ من موات.[141]

2 - لقد نسي هذا الإنسان الضـعيف المخلـوق أن اللّه أنشـأه من نطفة ، ثم جعله إنسـانا حيّا سويا ، فهذا دليل حاضر من نفسه على إمكان البعث ، وقد احتج اللّه عـزّ وجـلّ على منكـري البعث بالنشأة الأولى ، فكيف يقول الإنسـان : من يحيي هذه العظام البالية؟!

والجـــواب : أنّ النّشـــأة الثانية مثل النّشـــأة الأولى ، فمن قـــدر على النّشـــأة الأولى قـــدر

---

140 - التفسير الحديث لدروزة - (3 / 45)

141 - تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع - (7 / 332)

على النّشـــأة الثانية ، وأن اللّه عـــالم بكـــلّ الأشـياء ، سـواء الأجسـام العظـام أو الـذّرات الصغار.
3 - في قوله تعـالى : مَنْ يُحْيِ الْعِظـامَ وَهِيَ رَمِيمٌ دليل على أن في العظـام حيـاة ، وأنها تنجس بـالموت ، وهو قـول أبي حنيفة ، وقـال الشافعي : لا حياة فيها.
4 - من أدلة وحدانيته تعـــالى وكمـــال قدرته على إحيـاء المـوتى : ما يشـاهده النـاس من إخـراج المحـروق اليـابس من العـود النـدي الطـري ، فـإن الشـجر الأخضر من المـاء ، والماء بارد رطب ضدّ النار ، وهما لا يجتمعـان ، فـأخرج اللّه منه النـار ، فيـدلّ ذلك على أنه تعالى هو القادر على إخراج الضدّ من الضـدّ ، وهو على كلّ شيء قدير.
5 - إنّ الذي خلق السموات والأرض الـتي هي أعظم من خلق النـاس قـادر على أن يبعثهم مرة أخرى.
6 - إذا أراد اللّه خلق شيء لا يحتـاج إلى تعب ومعالجة ، وإنما أمـره نافذ فـورا ، ولا يتوقف على شيء آخر.
7 - إن اللّه تعـــالى نـــزّه نفسه عن العجز والشـرك ، لتعليم النـاس ، وإبـراز الحقيقة ، فبيـده مفـاتح كـلّ شـيء ، ومـردّ النـاس ومصـيرهم بعد ممـاتهم إليه تعـالى ، ليحاسب كلّ امـرئ على ما قـدم في دنيـاه من خـير أو شرّ.

أهم مقاصد هذه السورة

(1) بيــان أن محمــدا رســول من عند اللّه حقا ، وأنه نذير للأميين وغيرهم.
(2) المنــذرون من النــبي صــنفان : صــنف ميئوس من صلاحه ، وآخر قد سعى لفلاحه.
(3) أعمــال الفــريقين تحصى عليهم ، فتحفظ أخبارهم ، وتكتب آثارهم.
(4) ضرب المثل لهم بأهل أنطاكية ، إذ كــذبوا الناصح لهم وقتلــوه فــدخلوا النــار ودخل الجنة بما قـــدم من إيمـــان وعمل صـــالح وهداية وإرشاد.
(5) الدليل الطبيعي والعقلي على البعث.
(6) تبيان قــدرة اللّه ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة.
(7) جــزاء الجاحــدين على كفــرانهم أنعم اللّه عليهم وســرعة أخــذهم ونــدمهم حين معاينة العذاب.
(8) الجنة ونعيمها وما أعد للمؤمنين فيها.
(9) تــوبيخ الكــافرين على اتبــاعهم همــزات الشياطين.
(10) قدرته تعــالى على مســخهم في الــدنيا وطمس أعينهم.
(11) الانتفــاع بالأنعــام في المأكل والمشــرب والملبس.
(12) إثبـــــات البعث بما أقامه من أدلة في الآفاق والأنفس.[142]

---

[142] - تفسير الشيخ المراغى ـ موافقا للمطبوع - (23 / 40)

أهم المصادر

1. جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيّ
2. التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج
3. صفوة التفاسير ـ للصابونى
4. في ظلال القرآن موافق للمطبوع
5. التفسير الحديث لدروزة -موافق للمطبوع
6. تفسير المراغي
7. تفسير القرطبي
8. تفسير الرازي
9. تفسير الألوسي
10. نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور
11. تَفْسِيرُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ
12. تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع
13. الدر المنثور للسيوطي
14. التفسير القرآني للقرآن ـ موافقا للمطبوع
15. تفسير اللباب في علوم الكتاب
16. تفسير ابن كثير
17. كلمات القرآن للشيخ غازي الدروبي
18. سنن الترمذى
19. شعب الإيمان للبيهقي
20. مُسْنَدُ الشِّهَابِ الْقُضَاعِيِّ
21. صحيح ابن حبان
22. مسند أحمد
23. مُسْنَدُ الرُّويَانِيِّ
24. الطَّبَقَاتُ الْكُبْرَى لِابْنِ سَعْدٍ
25. دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ
26. سنن الترمذى
27. صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ
28. صحيح مسلم
29. الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ لِلْبَيْهَقِيِّ
30. الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ لِلْحَاكِمِ
31. المنتقى - شرح الموطأ

32. الْمَطَــالِبُ الْعَالِيَـــةُ لِلْحَافِـــظِ ابْنِ حَجَـــرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ

الفهرس العام